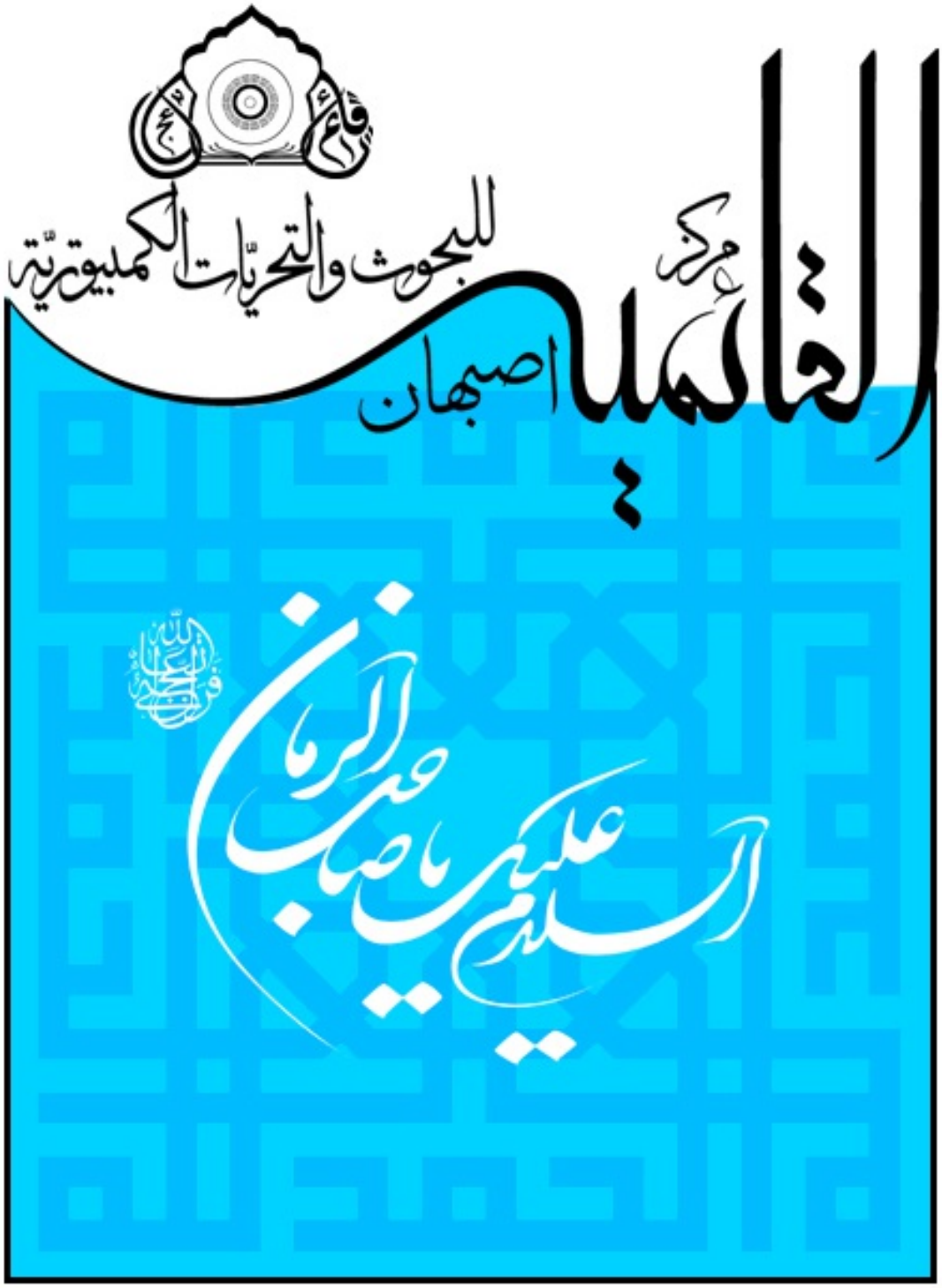

www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.ir

علی و مناوئوه
مولف: جعفر نوری

بسم الله الرحمن الرحيم

علی و مناوئوه

کاتب:

نوری جعفر

نشرت فی الطباعة:

مطبوعات النجاح

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
علی و مناوئوه ----- ۷
اشارة ----- ۷
کلمة مجلة المسلم و جریدة المساء القاهریة ----- ۷
مقدمة المولف ----- ۱۰
قصة الخلافة (۱۱ ۳۵ ه) ----- ۱۲
اشاره ----- ۱۲
مسالة الوصیة ----- ۱۲
حدیث السقیفة ----- ۲۲
ابوبکر الصدیق ----- ۲۲
عمر بن الخطاب ----- ۳۲
عثمان بن عفان ----- ۴۴
قمیص عثمان ----- ۶۷
اشاره ----- ۶۷
الناکثون ----- ۶۷
القاسطون ----- ۷۷
التحکیم، المارقون، و مصرع الامام ----- ۸۲
بین علی و معاویة ----- ۹۰
اشاره ----- ۹۰
مقتطفات من سیرة الامام ----- ۹۰
اشاره ----- ۹۰
فلسفة الحکم ----- ۹۰
حرصه علی بیت المال ----- ۹۲

تواضعه و عدله ----- ۹۳
تحلیل لسیاسته العامة ----- ۹۳
بعض أقواله المأثورة ----- ۹۴
ما ینطبق علیه من آی الذکر الحکیم ----- ۹۶
نماذج من تصرفات الخلیفة الجدید ----- ۹۷
اشاره ----- ۹۷
ماساة حجر بن عدی ----- ۹۷
نماذج أخری من غدر معاویة ----- ۱۰۰
الحاقه زیاد بن أبیة بأبی سفیان ----- ۱۰۰
اقواله المأثورة ----- ۱۰۲
معاویة فی المیزان ----- ۱۰۴
ما ینطبق علی تصرفاته من القرآن ----- ۱۰۶
پاورقی ----- ۱۰۶
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۲۰

علی و مناوئوه

اشارة

سرشناسه: جعفر، نوری - ۱۹۱۴

عنوان و نام پدیدآور: علی و مناوئوه نوری جعفر؛ قدم له عبدالهادی مسعود؛ راجعه و علق علیه مرتضی الرضوی

مشخصات نشر: قاهره مطبوعات النجاح ۱۳۹۶ق = ۱۹۷۶م = ۱۳۵۵.

مشخصات ظاهری: ص ۲۲۰

فروست: (مطبوعات النجاح بالقاهره۱۱)

وضعیت فهرست نویسی: فهرستنویسی قبلی

یادداشت: کتابنامه ص []۲۱۸

موضوع: علی‌بن ابی‌طالب ع، امام اول ۲۳ قبل از هجرت - ق ۴۰

شناسه افزوده: مسعود، عبدالهادی

شناسه افزوده: رضوی مرتضی - ۱۳۲۶

رده بندی کنگره: BP۳۷/۳۵/ج۷ع۸

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۹۵۱

شماره کتابشناسی ملی: م۵۰۳۱-۷۰

کلمة مجلة المسلم و جریدة المساء القاهریة

حول کتاب: «علی ومنائوه»

فی رحلتی الی القاهرة عام ۱۳۹۴ ه موافق ۱۹۷۴ م لنشر کتابی «مع رجال الفکر فی القاهرة» کنت قد راجعت کتاب: «علی ومناوئوه» للدکتور نوری جعفر وعلقت علیه فی الهامش بعض التعالیق التی کان یجب التنبیه علیها والاشارة الیها وکنت اهملتها فی الطبعة الثانیة لضیق الوقت آنذاک وهذه الطبعة هی الطبعة الثالثة کما تجدها کاملة والحمد لله.

وقد نشرت مجلة المسلم الغراء فی عددها الرابع فی السنة الخامسة والعشرین الصادر فی ذی القعدة عام ۱۳۹۴ ه الکلمة التالیة:

علی ومناوئوه:

اصدر السید الرضوی فی سلسلة مطبوعات النجاح بالقاهرة کتاب: «علی ومناوئوه» للدکتور نوری جعفر بتقدیم الاستاذ عبدالهادی مسعود وبتعلیق السید مرتضی الرضوی، وهو حدیث مفصل عن الفتنة الکبری بین علی ومعاویة بتحقیق حدیث فی نحو مائتی صفحة من القطع الکبیر، وطباعة فیها عنایة واضحة، واهتمام بالغ.

وقد نشرة جریدة المساء القاهریة فی عددها الصادر یوم السبت ۲۸ دیسمبر عام ۱۹۷۴ م الکلمة التالیة:

مکتبة النجاح فی طهران اصدرت بحثا تاریخیا عن الامام علی رضی الله تعالی عنه فی تعلیق السید مرتضی الرضوی وتقدیم العالم الاسلامی المصری عبدالهادی مسعود.

الکتاب فی مائتی صفحة ویتناول تاریخ صدور الاسلام، وما کان بین رجال الشوری واهل الحل والعقد بعد وفاة الرسول صلی الله علیه وسلم ویعرض لنا المؤلف خاصة ما دار من حروب بین علی ومعاویة وبین اهل العراق واهل الشام وما کان من مقتل علی وتولی معاویة للخلافة من بعده فانتقل نظام الحکم فی الاسلام من الشوری والاجماع الی حکم السیف والقوة، والاستبداد.

مرتضى الحاج سيد محمد الرضوى

[صفحه ۵]

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد كان من واجبى ان اعترف على نفسى بالتقصير او القصور، اذ كتبت ترجمات عديدة عن شخصيات اوربية او اجنبية ولم اتمكن من الكتابة عن عظماء التاريخ الاسلامى، وعلى رأس هؤلاء الامام على عليه السلام.

ولم يكن بد كما يحدث غالبا ان القى بظلال هذا العتاب على الظروف والملابسات التى مرت ولاتزال تمر بى لأدفع عن نفسى هذا القصور والتقصير امام جمهور احبه كل الحب بل احبه الى حد العشق وهو جمهور القارئين فى الاقطار العربية والاسلامية الشقيقة.

وتقدم الى الاستاذ مرتضى الرضوى لاكتب مقدمة لكتاب الدكتور نورى جعفر: «على ومناوئوه»، وكان ذلك فى منتصف شهر شعبان ۱۳۹۴ ه الموافق اواخر الشهر الثامن اغسطس ۱۹۷۴ م، فقلت مالنا ومناوئيه ولست منهم ولاشك ايها القارىء الكريم، كما واننى لست منهم على التحقيق، ولقد اقبل الموسم القضائى ايها الصديق المرتضى ولنا فيه معارك على ساحة مجلس الدولة، مما قد يشغلنا عن كثير مما يتوجب بذل الجهد والوقت فيه من قضايا الفكر والعقيدة والايمان.

كنت اتوق الى الكتابة عن الامام عاى بن ابى طالب منذ امد بعيد وهو اول فتى فى الاسلام وفارس فرسانه، وكنت ولازلت اتوق لان تكون الكتابة عنه تمهيدا لى وتمهيدا للقراء ان اكتب عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

[صفحه ۶]

والكتابة عن امير المؤمنين على بن ابى طالب كتابة عن الايمان وكتابة عن الحكم الاسلامى فى ظل الايمان، وكتابة عن الاسلامية الصحيحة، ودفاع عن المسلمين على مر العصور، من حضر منهم فى عهد على عليه السلام، ومن حضر بعده او قبله، منذ نزلت الرسالة على رسول الله محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم.

كان علىّ ان انتظر سانح فرصة.. لأسجل بعض ما خطر فى ذهنى عن هذا الرجل العظيم.

وكان على بن ابى طالب عليه السلام كما ورد فى «الاصابة»: قد اشتهر بالفروسية والشجاعة والاقدام فهل كانت شهرته قاصرة على هذا المجال فحسب؟!

لقد اجمع الرواة وترى ذلك متواترا طبقة عن طبقة أن على بن ابى طالب هو اول فتى دخل فى الاسلام، وسارت الركبان بهذا الحديث يسوقونه على انه ميزة لعلى، بمعنى انه لم يعش الجاهلية، وانما يكاد يكون مسلما منذ ادرك فهل كانت هذه هى ميزته فحست؟!

كان على ابن عم الرسول الاعظم ومتبناه.

وكان على اخا لرسول الله والرسول اخوه كما يروى الرواة الثقات نقلا عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم نفسه، حيثما كان يتحدث عن ابن عمه على.

وكان بمنزلة هارون من موسى، غير انه لم يكن ثمة نبى بعد محمد بن عبدالله صلى الله عليه وآله وسلم.

وكان هو وزير النبى وخليفته من بعده [۱].

[صفحه ۷]

وتلك نصوص قاطعة عن الرسول، قاطعة الدلالة على امامة على، فهل تكفى هذه الاشارات اللامحة للكشف عن احقيته فى الامامة عليه الاسلام؟!

قال ابن مسعود فى شأن الامام: «كنا نتحدث عن ان افضل اهل المدينة هو على».

بل ان عمر نفسه كان يتعوذ من معضلة ليس لها ابوالحسن، وكان يقول: «لولا على لهلك عمر».

وهناك جوانب اخرى عديدة يجب ان نجليها لانفسنا وللعالم كله على السواء...

لقد نقض بعض الذين بايعوا عليا، ونقضوا ما عقدوا عليه العزم وكانت الحروب بين المسلمين ان انتهى صراعها بانتصار الاقوياء، ولم تنته المعارك بانتصار الحق، اذ لو انتصر الحق لكان على عليه السلام هو الحقيقة المجسدة، وكان نصره فوق كيد الكائدين، وقوة المال والسلاح، وسطوة البغى والغرض، والدهاء والاغراء.

ولأمر ما اراد الله ان تدخل دولة المسلمين فى محنة كبرى، ولما تستقر اصول الاسلام فى نفوس الناس، ولاسرت روحه فى دمائهم على الوجه الذى كنا نظنه فى اول دراسة لنا لقضية صدر الاسلام، ومن المعلوم الذى يجب ان يكون بديهة فى نفوس الباحثين ان نعلم ان الاسلام هو صحوة المستقبل للعالم كله، ولم يكن كما كنا نتخيل احيانا دعوة الزمن الذى ظهر فيه وحده ... لان اطاره المكانى هو العالم كله، والاطار الذى يتحرك من خلاله من حيث الازمنة والعصور هو كل الازمنة وكل العصور، منذ ظهر الرسول صلوات الله عليه حتى يرث الله الارض ومن عليها.

ولقد علمنا من الصراع بين على عليه السلام وبين معاوية ان السلطة قد انتقلت الى معاوية بن ابى سفيان بن حرب ... وامه هند آكلة الاكباد.. التى نهشت جسد عم الرسول حمزة عليه السلام، وفلقت رأسه.. واكلت كبده.. شفاء لحقدها على الرسالة واهلها حينذاك واستبد معاوية بالناس، واحال

[صفحه ۸]

الخلافة ملكا عضوضا، واستحصل من الناس جبرا وقسرا على عهد لابنه «يزيد».. ونحن نعلم من هو «يزيد» وما كان عجبا ان يكون هو «يزيد» لانه وارث القسوة والفجر، ومستمد الفساد من شجرة الفساد.. والعرق دساس ... ونحن لانجرى الابحاث مع الاسف الشديد عن شجرة الرجال، واصول الرجال.

لقد عمل اليهود من خلال كل الجهود على تدمير علم الانساب لتختلط العائلات ويمكن من خلال هذا الاختلاط ان يندس فى وسط كل قطر من اقطار الاسلام طبقة من اليهود يدعون الاسلام ليفسدوا فيه، وكانوا يناصرون كل من يدعو للفتنة.

ولكن بنية الاسلام القوية رغم كل ما مر بها لم تتوقف عن النماء ولم يزعزع عقيدة الاسلام ما مارسه بنو امية من طغيان.

ولقد احاط المفسدون بحكام الدولة الاسلامية ليحولوا بينهم وبين كل اصلاح ... محاولين ايقاع الفتنة فى دولة المسلمين.

لقد قيل: ان بناء الجماعة تصدع على عهد على، ومن قبله كان الثائرون يحاصرون بيت عثمان، فهل قرر هذا او ذاك: مصير الاسلام والقرآن؟!

ان هذا الدين الخالد مر بهذه المحنة وبغيرها من المحن وخرج منها اقوى مما كان من قبلها. ذلك ان بنية العقيدة اقوى من ان تحطمها الرضوض والآلام.

اكلت الحروب بين على وخصومه عددا كبيرا من المسلمين ولم يكن متوقعا ان يحدث ذلك على وجه من الوجوه، الا ان اتساع الملك والسلطان كان يقتضى ذلك، وكان يقتضى غيره من الوان الصراع ... وكانت هذه المحن فى رأيى هى درجة الغليان التى احاطت بالدين الجديد فحفظت الشعب ان ينهار امام الحضارات المجاورة، وامام الفتوحات الوسيعة المدى، بما تحتويه من افكار جديدة، واتجاهات متعددة مختلفة الالوان والاحجام.

[صفحه ۹]

ان علينا ان ندرس كل اولئك حين ندرس شخصية هذا البطل العظيم فى تاريخ الاسلام على بن ابى طالب عليه السلام.

وعلينا ان نعلم: ان انفصام عرى الوحدة بين المسلمين، وتفرقهم فى الآراء والمذاهب والاحزاب؛ كل ينصر رأيه بالقول وبالعمل على رأى خصمه، وكل يصارع فى سبيل عقيدته هذه او تلك بالفكرة حينا وبالسلوك احيانا، وعلينا ان ندرك ان هذا كله وغيره ليس الا دلائل صحة، لا دلائل وهن او هزيمة، وان الصراع دائما يدل على اليقظة لا على الموت، ما دام لا يفضى الى انشقاق فى صفوف الامة، او مواجهة عدائية بين الطوائف.

وقد اكتمل الدين حينما اكتمل نزول القرآن، ولقد كان الاسلام على عهد الرسول دعوة وفكرة اكثر منه دولة وسلطانا، واذا كان النبى صلى الله عليه وآله وسلم قد اقام دولة على اساس من التشريع القرآنى، فقد كانت دولة صغيرة الحدود على اية حال، ولكنها كانت نوية قوية، قابلة دائما على النمو والازدهار، وبقى ان تكتمل الدولة بعد ذلك فتوسع من آفاقها وتنشر من سلطانها على هذه الاسس السليمة، كانت نواة فى مثل صلابة «الجرانيت» يحمل لواءها نفر من المؤمنين الاتقياء لا يبالون اين يكون الموت، اذ هو عندهم دور من ادوار الحياة، ومرحلة من مراحل الوجود، فهم لا- يخشون شيئا ولا احدا ولا دولة من الدول، ولاحكومة من الحكومات، وانما يذيعون نظريتهم فى مجال الفكر وفى مجال التطبيق على السواء، وقد بدأ صفوة المسلمين وعلى رأسهم على عليه السلام يتوقون الى بناء الدولة الوليدة، على اساس من النظرية والعقيدة، واختلفت الآراء بين الصفوة وبين عامة من المسلمين، ممن لم تتدخل العقيدة فى مسرى دمائهم...

كانت الدولة وليدة فى المهد، وقد تعرض والوليد لكل ما يتعرض له الوليد من محن تكبر فى عينه هو، وان صغرت فى عين الزمن، الذى اثبت دائما ان البقاء للاصلح، وان الخلود للايمان.

[صفحه ۱۰]

مرت دولة المسلمين فى محنة كبرى فآذت المحنة دولتهم، ولم تنل من دينهم، وللنشأة الجديدة ثورات وحركات وصراعات، سنرى جوانب منها حين ندرس الامام، وما احاط به، وبالمسلمين من حوادث، واحداث...

وسنرى جوانب منها حين نطالع صفحات هذا الكتاب.

عبدالهادى مسعود

القاهرة فى

۱۸ شعبان ۱۳۱۴ه

۵ سبتمبر ۱۹۷۴ م

[صفحه ۱۱]

مقدمة المولف

خالجتنى فكرة البحث فى هذا الموضوع منذ زمن بعيد، غير ان امورا كثيرة قد حالت مع الاسف الشديد بينى وبين اخراجها الى حيز الوجود، وعند ما قررت الحكومة العراقية اعفائى عن الخدمة بالشكل المعروف ساورنى الم وامتعاض شديدان، فطفت ابحث عن وسائل تعيننى على التعبير عن ذلك الالم وهذا الامتعاض، وما هذه الدراسة فى جوهرها الا احد الجوانب الايجابية لذلك التعبير، وقد شجعنى على ذلك عامل اشار اليه ابوجعفر ابن ابى زيد نقيب البصرة قبل زهاء سبعمائة عام ذكره ابن ابى الحديد حين قال: «قلت لابى جعفر النقيب ما سبب حب الناس لعلى.. دعنى فى الجواب من حديث الشجاعة والعلم والفصاحة ...؟ فضحك وقال ... ان اكثر الناس موتورون فى الدنيا. اما المستحقون فلا ريب فى ان اكثرهم محرومون! نحو عالم يرى ان لاحظ له فى الدنيا، ويرى جاهلا غيره مرزوقا وموسعا عليه، وشجاع قد ابلى فى الحرب.. وليس له عطاء يكفيه.. ويرى غيره وهو جبان مالكا لقطر عظيم.. وعاقل سديد التدبير قد قدر عليه رزقه، وهو يرى غيره احمق مائقا تدر عليه الخيرات.

فاذا عرفت هذه المقدمة فمعلوم ان عليا كان مستحقا محروما، بل هو امير المستحقين المحرومين.

ومعلوم ان الذين ينالهم الضيم يتعصب بعضهم لبعض.. وعلى رجل عظيم القدر جليل الخطر كامل الشرف جامع للفضائل.. وهو مع ذلك محروم محدود قد جرعته الدنيا علاقمها.. وعلا عليه من هو دونه.. ثم كان فى آخر الامر ان قتل هذا الرجل الجليل فى محرابه، وقتل بنوه وسبى حريمه ونساؤه، وتتبع اهله وبنوه بالقتل والطرد والتشريد والسجون، مع فضلهم وزهدهم وعبادتهم وسخائهم وانتفاع

الخلق بهم» [۵].

[صفحه ۱۲]

طفقت اذن ابحث فی هـذا الموضوع المعقـد الشائک، وقـد انار امامی سبیل البحث کبار المؤرخین المسـلمین من حیث تدوین الوقائع التاریخیـة، کما انار سبیلی کـذلک من حیث تحلیل تلک الحوادث وتفسـیرها فریق من الکتاب المصـریین المحـدثین، فانقسـمت هذه الدراسة من حیث وحدة موضوعها الی ثلاثة اقسام:

بحثت فی القسم الاول منها: قصـة الخلافـة بثلاثـة فصول، تطرقت فی الفصل الاول الی مسألـة الوصـیة، وفی الفصل الثانی الی حـدیث السـقیفة الذی بدأ علی ما اری والرسول مسـجی علی فراش الموت، وانتهی بمقتل عثمان، لا بخلافة ابی بکر کما هو معروف، وبحثت فی الفصل الثالث خلافة الامام.

اما القسم الثانی من الکتاب فیتضـمن البحث فیما سـمیته «قمیص عثمان» ویقع فی ثلاثة فصول ایضا، تطرقت فی الفصل الاول منها الی حرکة الناکثین اصحاب الجمل.

وفی الفصل الثانی الی تمرد القاسطین: اصحاب صفین.

وفی الفصل الثالث الی مسألة التحکیم وخروج المارقین ومصرع الامام.

لقـد سـاقنی البحث فی معرض التحـدث عن قمیص عثمان الی الاعتقاد بأن الصـراع بین علی ومناوئیه ما وهو فی جوهره الا صـراع بین فلسـفتین: فلسـفة خلقیة مثلی تستمد اصولها من القرآن وسنة الرسول سار علیها الامام فی حکمه، وفلسفة ملتویة غادرة تستمد مقوماتها من حیـاة العرب فی جاهلیتهم انغمس فیها مناوئوه الی الاذقان. ولعل الصـراع بین علی ومناوئیه یعیـد الی الـذاکرة قصـة الصـراع الـذی حدث بین النبی وکفار قریش تحت زعامة الامویین. واذا کان النصر قد کتب للنبی فی نزاعه مع مناوئیه لاعتصامهم بالاوثان فان النصر لم یکن فی متناول الامام لتقمص مناوئیه [۵] رداء الاسلام.

[صفحه ۱۳]

فکـان خصوم الرسول المنـدحرین من الامویین ومن هم علی شاکلتهم قـد حاربوا ابن عمه بعقائـد آبائهم الکامنـة وراء سـتار الاسـلام. فمعاویة مثلا هو ابن هند آکلة الاکباد، وابوه ابوسـفیان اول المشـرکین فی کل حرب، ورأسهم فی کل فتنة، لم ترفع علی الاسلام رایة الا وکان صاحبها. تظاهر بالاسلام غیر منطو علیه، واخفی الکفر غیر مقلع عنه، ویلوح لی ان غدر معاویة قد اصاب روح الاسلام قبل ان یصـیب ابا تراب [۵] فقـد انفسح باغتیال علی المجال واسـعا امام قوی الشـر التی حبسـها الامام فی نطاق ضـیق من خشـیة الله، ومبادیء الـدین الحنیف. فتلاشت من القلوب حرارة الایمان التی کانت تجمع بین قلب الخلیفـة الکبیر وقلوب رعایاه. واسـتهان الولاة والحکام بتطبیق مبادیء الاسـلام علی شـئون الحیاة، وعمـدوا الی کسب ولاء الناس بوسائل فاسـدة من الرشوة والملاینـة، او الارهاب والتجویع. فـذری روح الاسـلام وانطوت مبـادئه علی نفسـها بـدلا من ان تسـیر فی طریق التوسع والانتشـار. وکـانت حصـیلة ذلـک انتشار التـذمر والالحـاد فی جسم المجتمع العربی وتـدنی المسـتویات الخلقیـة الرفیعـة بین الحکـام والمحکومین علی السواء. فـبرز الاسـتهتار والظلم والخروج علی القرآن، وتعـالیم الرسول من جهـة الحـاکمین، والانقیـاد والملق والنفـاق من جهـة الرعایـا. واختفی القـائلون بالحق وراء سحب المطاردة والاضطهاد. فأصبح المطالبون بحقوقهم «زنادقة» و «ملحدین» و «رافضة» وصار الوصولیون والمنافقون اصحاب الحظوة والکلمـة النافـذة، فجریرة معاویة اذن اکبر من مجرد غدره بالامام لانها اصابت صـرح الاسـلام من حیث هو نظام للحکم ومجموعة من المثل العلیا ومکارم الاخلاق.

ذلک ما یتصل بالقسمین الأول والثانی من هذه الدراسة.

امـا القسم الثـالث فیروی للقـارىء مقتطفـات من سـیرة الامام رواها کبار المؤرخین المسـلمین ونماذج من سـیرة معاویـة اثناء نزاعه مع الخلیفـة. وبمـا انی کتبت هـذا البحث متـأثرا بالمثـل العلیـا التی جاء بها محمـد؛ والتی حرص علیٌ علی تطبیقها فی الحکم وبخاصـة ما

يتصل منها بتوزيع العدالة الاجتماعية بين الناس وبالتحلى بمكارم الاخلاق.

[صفحه ۱۴]

فلا عجب ان وجدنى القارىء انتقد الذين خرجوا على تلك المثل فى الاقوال وفى الاعمال من الحكام والامراء والولاة. قال تعالى فى سورة آل عمران: «ان الذى يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ويقتلون الذين يأمرون بالقسط بين الناس فبشرهم بعذاب اليم. اولئك الذين حبطت اعمالهم فى الدنيا والاخرة وما لهم من ناصرين ۳: ۲۱و ۲۲».

وذكر مسلم بن الحجاج فى صحيحه بأسانيد مختلفة عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «اربع من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى ينزعها: اذا حدث كذب، واذا عاهد غدر؛ واذا وعد اخلف، واذا خاصم فجر» [۵].

والمنافقون؛ كما وصفهم الله فى سورة المنافقين الاية: ۳ «اتحذوا ايمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله انهم ساء ما كانوا يعملون».

وسوف نتخذ هاتين الآيتين والحديث الآنف الذكر مقياسا للحكم على على ومناوئيه اثناء البحث فى «قميص عثمان».

حق وباطل، ابديان سرمديان. لكل زمان حقه وباطله. ولكل زمان على ومناوئوه.

بغداد فى: ۱/ ۱ / ۱۹۵۶

نورى جعفر

[صفحه ۱۶]

قصة الخلافة (۱۱ ۳۵ ه)

اشاره

۱ الفصل الاول: مسألة الوصية

۲ الفصل الثانى: حديث السقيفة

أ ابوبكر الصديق (۱۱ ۱۳ ه)

ب عمر بن الخطاب (۱۳ ۲۳ ه)

ج عثمان بن عفان (۲۳ ۳۵ ه)

۳ الفصل الثالث: خلافة الامام (۳۵ ۴۰ ه)

[صفحه ۱۷]

مسألة الوصية

الخلافة بنظر فريق من المسلمين مركز دينى ودنيوى فى آن واحد. فهى دينية من حيث كونها تستند الى تعاليم الاسلام فى تصريف شئون الناس فيما يتعلق بصلاتهم فى جميع مظاهرها من جهة ومن حيث كون صاحبها معصوما من الخطأ كعصمة الأنبياء عالما بجميع أمور الدين ومن جهة اخرى، وهى دنيوية فيما يتصل بكون الخليفة شخصا لا- ينزل عليه الوحى؛ وانما هو مكلف، بنص من النبى ووحى من الله بالمحافظة على تعاليم الدين وتطبيقها على سنن الحياة والنهوض بالرسالة النبوية وبثها بين البشر كافة.

فالخلافة على هذا الاساس ظاهرة تأتى بعد مرتبة النبوة مباشرة فى القدسية والاهمية؛ فلا غرابة والحالة هذه، على ما يقول حملة هذا الرأى، ان امر الله نبيه محمدا بالنص على ولاية خليفته من بعده: وهذا الخليفة هو الامام على بن ابى طالب غير ان قسما من المسلمين

حسب وجهة النظر هذه قد سلب الامام عليا حقه فى الخلافة حينما نقلها منه الى غيره من الصحابة، ولكن الامام عليا مع هذا بنظر هؤلاء هو الخليفة الحقيقى للمسلمين بعد الرسول، وان لم يمارس منصبه هذا بحكم طبيعة الظروف التى عاش فيها.

والاساس الذى يستند اليه هذا الفريق من المسلمين فى اعتباره الخلافة منصبا دينيا؛ هو ان الرسول، بعد ان فارق الحياة الدنيا تاركا تعاليمه الدينية. كان لابد له من تولية شخص يأتى من بعده فى الكفاءة والخلق ليقوم بتصريف امور الناس وذلك لان الغاية من نزول الدين ليست محصورة على تطبيقه فى عهد الرسول وبين قريش او العرب وحدهم، ولابد لتطبيق تعاليمه بعد وفاته من شخص كما ذكرنا، اقرب الناس اليه من حيث فهمه لاصول الدين واتصافه بمتانة الاخلاق.

[صفحه ۱۸]

وليس من المعقول ان يترك امر المسلمين، بعد وفاة الرسول، الى الصدف والظروف فى هذه المسألة الحيوية التى يتوقف عليها مصير الشريعة السمحاء من حيث التطبيق والانتشار. وان قصة اختيار المسلمين لخليفتهم بعد النبى، امر على جانب كبير من الخطر والمجازفة.

فمن هم الذين يوكل اليهم اختيار الخليفة الجديد؟ هل هم جميع المسلمين؟ ام فئة خاصة منهم؟ ما خصائص هذه الفئة؟ هل هى مقصورة على ابى بكر وعمر وابى عبيدة فى بادىء الامر ونفر من الانصار اجتمعوا فى السقيفة كما سنرى؟ اليس استبعاد على وبنى هاشم وسعد بن عبادة وابنه، وسلمان الفارسى، وابى ذر الغفارى، والمقداد بن الاسود، وعمار بن ياسر والزبير بن العوام وخالد بن سعيد، وحذيفة بن اليمان وبريدة وغيرهم «وهم من خيرة اصحاب النبى» بجعل الخلافة، وفى حالة اقتصارها على رأى فئة خاصة من الصحابة، غير كاملة الشروط؟

هل يمكن ان يتوصل المسلمون الى اختيار افضلهم للخلافة مع ما بينهم من احقاد وعنعنات قبلية جاهلية لم يستأصلها الاسلام كما سنرى؟

هل كان الرسول راغبا فى اثارة تلك العصبيات؟

كيف يجرى اختيار الخليفة: بالتصويت الشفوى؟ ام بالكتابة؟

كم من المسلمين يستطيعون ان يقرأوا ويكتبوا آنذاك؟

اين يجرى الانتخاب؟ افى الحواضر والبوادى؟ وكيف يمهد لذلك الانتخاب؟ وكم يستغرق من الوقت؟ وكيف تصرف شئون المسلمين اثناء فترة الانتخاب

تلك اسئلة محيرة ؟...

لقد مر بنا ذكر رأى فريق من المسلمين فى قضية خلافة الرسول. وقد لخص احد الباحثين موضوع الخلافة والوصية من وجهة النظر هذه بقوله [۵۶].

[صفحه ۱۹]

«اجمع رسول الله الخروج الى الحج فى سنة عشر من مهاجره، وآذن فى الناس بذلك. فقدم المدينة خلق كثير يأتمون به فى حجته تلك التى يقال عليها: حجة الوداع ... ولم يحج غيرها منذ هاجر الى ان توفاه الله...

ولما قضى مناسكه وانصرف راجعا الى المدينة.. ووصل غدير خم من الجحفة التى تتشعب فيها طرق المدنيين والمصريين والعراقيين، نزل عليه جبرائيل عن الله يقول: «يا ايها الرسول بلغ ما انزل اليك من ربك [۵۲]».. وامره ان يقيم عليا علما للناس..

ثم قام الرسول خطيبا.. واخذ بيد على فرفعها.. فقال: ان الله مولاى وانا مولى المؤمنين.. والولاية لعلى، من كنت مولاه فعلى مولاه [۵۳].. ثم نزلت الآية: «اليوم اكملت لكم دينكم» [۵۴].

فقال رسول الله: [الحمد لله] [۵۵] على اكمال الدين واتمام النعمة ... والولاية لعلى من بعدى».

ومن الطريف ان نذكر هنا ان المقريزى [۵۶] قد اشار الى احتفال قسم من المسلمين القدامى بذكرى عيد الغدير حين قال:

«اعلم ان عيد الغدير لم يكن عيدا مشروعا، ولا عمله احد من سالف الامة المقتدى بهم، واول ماعرف فى الاسلام بالعراق ايام معز الدولة على بن بابويه، كان احدثه فى سنه اثنتين وخمسين وثلثمائة، فاتخذه الشيعة من حينئذ عيدا، واصلهم فيه ماخرجه الامام احمد فى مسنده الكبير من حديث البراء بن عازب قال:

كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فى سفرتنا فنزلنا بغدير خم ونودى:

[صفحه ۲۰]

الصلاة جامعة، وكسح لرسول الله تحت شجرتين فصلى الظهر، واخذ بيد على بن ابى طالب فقال: الستم تعلمون انى اولى بالمؤمنين من انفسهم؟ قالوا: بلى.. قال:

من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه. قال:

فلقيه عمر بن الخطاب فقال: هنيئا لك يا ابن ابى طالب اصبحت مولى [۵۲] كل مؤمن ومؤمنة. (وغدير خم) على ثلاثة اميال من الجحفة يسرة الطريق وتصب فيه عين وحوله شجر كثير.

ومن سننهم فى هذا العيد وهو ابدا اليوم الثامن عشر من ذى الحجة ان يحيوا ليله بالصلاة ويصلوا فى صبيحته ركعتين قبل الزوال، ويلبسوا فيه الجديد ويعتقوا الرقاب، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح.

ولما عمل الشيعة هذا العيد بالعراق ارادت عوام السنة مضاهدة فعلهم ونكايتهم فاتخذوا فى سنة تسع وثمانين وثلثمائة بعد عيد الغدير بثمانية ايام عيدا اكثروا فيه من السرور واللهو وقالوا:

هذا يوم دخول رسول الله الغار هو وابوبكر.

وبالغوا فى هذا اليوم فى اظهار الزينة.. ولهم فى ذلك اعمال مذكورة فى اخبار بغداد!!» [۵۳].

والخلافة. بنظر فريق آخر من المسلمين: مركز دنيوى صرف من حيث وجوده، وان كان مبنيا على الدين من حيث الاسس النظرية التى ينبغى ان يسير وفق مستلزماتها، وعلى هذا الاساس فليس هناك نص صريح من جانب الرسول على توليته خليفة للمسلمين، لانتفاء الضرورة الدينية الى ذلك.

[صفحه ۲۱]

ولهذا السبب نجد بعض المسلمين يجتمعون، بعد وفاة الرسول فى سقيفة بنى ساعدة [۵۴] كما سنرى، لاختيار الخليفة لتسلم هذا المنصب الرفيع. فاختير ابوبكر، ثم عمر، فعثمان، فعلى، فهؤلاء اذن هم الخلفاء الراشدون مرتبون حسب تسلسهم الزمنى وحسب منزلتهم الدينية، على ما يقول حملة هذا الرأى، والحجة التى يستند اليها هذا الفريق من المسلمين هى: ان التعاليم الدينية قد اصبحت كاملة وواضحة بعد وفاة الرسول، ولم تكن هناك ضرورة سماوية لتعيين المشرف على تطبيقها على شئون الحياة. وقد وضع هذا الرأى بشكله المعتدل احد الكتاب المعاصرين [۵۵] حين قال: «الخلافة الاسلامية كنظام من نظم الحكم هى فى حقيقتها وليدة رأى، وليست وليدة نص دينى ثابت لا يحتمل التأويل. ورسول الله وهو يستقبل ربه لم يوص لأحد بعده بالحكم وصية صريحة، وان بدرت منه فى اوقات شتى اشارات وتلميحات تاه اصحابه فى تفسيرها عقب وفاته بين الاحتمال والترجيح.

وثمة احاديث فيها من الصراحة ما قد يرسم لنا صورة المستخلف كحديث الغدير [۵۶] وحديث خاصف النعل.

وهناك فريق ثالث من المسلمين وقف فى نظرية الخلافة موقفا وسطا بين الفريقين المختلفين، فهو يتفق مع الفريق الثانى فى اعتبار الخلافة منصبا دنيويا خالصا وينكر وجود النص الدال بصراحة على وصية النبى لعلى خليفة للمسلمين من بعده، على الشكل الذى ذكره الفريق الاول من المسلمين ولكن مع هذا يعتبر عليا اولى بالخلافة من ابى بكر لانه افضل المسلمين على الاطلاق.

[صفحه ۲۲]

وقد لخص هذا الرأى احد الباحثين حين قال: [۵۲] «اتفق شيوخنا كافة.. على ان بيعة ابى بكر صحيحة شرعية، وانها لم تكن عن نص

وانما كانت بالاختيار الذى ثبت بالاجماع وبغير الاجماع كونه طريقة الى الامامة، واختلفوا فى التفضيل.

فقال قدماء البصريين: كأبى عثمان وعمرو بن عبيد: ان ابا بكر افضل من على.. وهؤلاء يجعلون ترتيب الاربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة.

وقال البغداديون قاطبة قدماؤهم ومتأخروهم:

ان عليا.. افضل من ابى بكر: والى هذا المذهب ذهب من البصريين ابوعلى محمد بن عبدالوهاب الجبائى، والشيخ ابوعبدالله الحسين بن على البصرى.. وقاضى القضاة ابوالحسن عبدالجبار بن احمد.. وابومحمد الحسن بن متويه..

وذهب كثير من الشيوخ الى الوقف فيهما، وهو قول ابى حذيفة واصل ابن عطاء، وابى الهذيل محمد بن الهذيل العلاف. وهما وان ذهبا الى التوقف بينه وبين ابى بكر وعمر.. قاطعان على تفضيله على عثمان.

واما نحن فنذهب الى ما يذهب اليه شيوخنا البغداديون من تفضيله عليهم»

وقد ذهب الباحث الآنف الذكر، فى موضع آخر [۵۳]، الى القول فى موضوع الخلافة: ان الذى استقر عليه رأى المعتزلة بعد اختلاف كثير بين قدمائهم فى التفضيل وغيره:

ان عليا افضل الجماعة، وانهم تركوا الافضل لمصلحة رأوها، وان لم يكن هناك نص يقطع الغموض وانما كانت اشارة وايماء لا يتضمن شىء منهما صريح النص، وان عليا نازع ثم بايع. ولو اقام على الامتناع لم نقل بصحة البيعة ولا لزومها.

وبالجملة اصحابنا يقولون:

[صفحه ۲۳]

ان الامر كان له وكان هو المستحق والمتعين، فان شاء اخذه لنفسه، وان شاء ولاه غيره فلما رأينا قد وافق على ولاية غيره. اتبعناه ورضينا لما رضى».

اى ان هذا الفريق من المسلمين يقول: بأفضلية على على ابى بكر وبالتالى بأحقيته بالخلافة دون ان يعترف بالنص على وصية الرسول له، وذلك تصبح خلافة ابى بكر سابقة لخلافة على من الناحية الزمنية الواقعية او «دوفاكتو» كما يقول المشرعون المعاصرون» فى حين ان خلافة الامام سابقة لها من الناحية الشرعية «دوجورى».

كان موضوع الخلافة وما زال محور الخلاف، واساس الفرقة بين طوائف المسلمين، وقد تفرعت عنه خلافات اخرى كثيرة، نظرية وعملية، وما زالت قائمة بين المسلمين منذ وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم الى اليوم.

وتعصب كل فريق لرأيه، واعتبر نظريته فى الخلافة هى النظرية السلمية وما عداها فاختلاق وبهتان، وليس امام الباحث من سبيل لتقريب وجهات النظر المختلفة، ذلك، لان التسليم بأحدها يستلزم اهمال النظريتين الاخريين، واذا اغفل الباحث، امر التحدث عن وصية النبى لعلى فى الخلافة من بعده على الشكل الذى يقول فيه فريق من المسلمين ونظرا الى مسألة الخلافة من الناحية الزمنية الصرفة فليس لديه على ما نرى من الادلة القاطعة ما يدعوه الى التسليم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قد اهمل امر التفكير فيمن يخلفه من بعده فى تصريف شؤون المسلمين، وهنا تتوارد الى الذهن جملة قضايا تاريخية مهمة، وفى مقدمتها قضية «القرطاس والدواة» يقول ابن الاثير [۵۴]:

«اشتد برسول الله مرضه ووجعه فقال: ائتونى بدواة وبيضاء [۵۵] فكان النبى صلى الله عليه وآله وسلم يؤلمه وقوع مثل هذه الاشياء التى تؤول بالامة الى الفرقة بعد الاجتماع، والعداوة بعد الاخاء فأراد صلى الله عليه وآله وسلم ان يقرر مصير الامة وان يجدد موقفها ليقطع بذلك كل طريق يوصل للخلاف المؤدى الى الضلال فقال: ايتونى بدواة ... الحديث اراد ان يضع الامة نظاما يسيرون عليه دوما فى قضية الخلافة وتحديد الشخصية التى تليق بأن تخلفه فى منصبه.

ومن البديهى ومالا يقبل الشك ان عليا هو تلك الشخصية التى تتجسد فيها آمال الامة ولكن حدث ما حدث فما اعظم من ذلك

الموقف على النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال لهم متأثرا: ابعد الذى قلتم، ومات والالم يحز نفسه ولكن اراد ان يطوق الامة بواجب لامفر لهم من الالتزام به، الا وهو العناية بأهل بيته فقال صلى الله عليه وآله وسلم: «اوصيكم بأهل بيتى خيرا، الله الله فى أهل بيتى واخرجوا اليهود من جزيرة العرب، وهى آخر ما تكلم به صلى الله عليه وآله وسلم كما سيأتى. «الناشر @».اكتب لكم

[صفحه ۲۴]

كتابا لاتضلون بعدى ابدا، فتنازعوا ولاينبغى عند نبى تنازع فقالوا: ان رسول الله يهجر، فجعلوا يعيدون عليه. فقال: دعونى فما انا فيه خير مما تدعوننى اليه، فأوصى بثلاث: ان يخرج المشركون من جزيرة العرب وان يجازى الوفد بنحو مما كان يجيزهم، وسكت عن الثالثة عمدا وقال: نسيتها»، وذكر البخارى [۵۶] فقال: «حدثنا سفيان عن سليمان الاحول عن سعيد بن جبير قال: قال ابن عباس: اشتد برسول الله وجعه فقال: ائتونى اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده ابدا، فتنازعوا ولاينبغى عند نبى تنازع فقالوا: ما شأنه اهجر؟ استفهموه، فذهبوا يرددون عليه؟ فقال: دعونى فالذى انا فيه خير مما تدعوننى اليه، واوصاهم بثلاث قال: اخرجوا المشركين من جزيرة العرب، واجيزوا الوفد بنحو ما كنت اجيزهم، وسكت عن الثالثة، او قال: فنسيتها.

وحدثنا على بن عبدالله، حدثنا عبدالرزاق، اخبرنا معمر عن الزهرى عن عبيد الله

[صفحه ۲۵]

ابن عبدالله بن عتبة عن ابن عباس قال: لما حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم وفى البيت رجال، فقال النبى.. هلموا اكتب لكم كتابا لاتضلوا بعده، فقال بعضهم: ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، وحسبنا كتاب الله؟ فاختلف اهل البيت واختصموا. فلما اكثروا اللغو والاختلاف قال رسول الله: «قوموا».

وذكر ابن سعد [۵۲]: «ان الرسول عندما حضرته الوفاة وكان معه فى البيت رجال فيهم عمر بن الخطاب، قال: هلموا اكتب لكم كتابا لن تضلوا بعده، فقال عمر «ان رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن حسبنا كتاب الله؟ فاختلف اهل البيت واختصموا، فلما كثر اللغط والاختلاف ... قال النبى: قوموا عنى». فما الذى حمل عمر يا ترى على ذلك؟ وهل تجيز آداب المجاملة او العرف او الدين ان يقول عمر: ان الوجع قد غلب النبى وعندنا كتاب الله فهو حسبنا؟ وما قصده بذلك القول؟ وهل يتفق موقف عمر مع قوله تعالى فى وصف النبى بأنه: «لا ينطق عن الهوى ان هو الا وحى يوحى» [۵۳]؟

وممن يلفت النظر حقا فى هذا الموضوع الخطير: ان اصحاب النبى على مايذكر المؤرخون قد سألوه قبيل وفاته عن كثير من الامور التى تبدو بنظرنا اقل وجاهة من موضوع الخلافة؟ فقد سألوه على ما يحدثنا ابن خلدون [۵۴]: «عن مغسله؟ فقال: الادنون من اهلى، وسألوه عن الكفن؟ فقال: فى ثيابى، او ثياب مصر، او حلة يمانية ... وسألوه عمن يدخل القبر معه؟ فقال: اهلى». فهل من المعقول ان يغيب عن اذهانهم موضوع الاستفسار عن الخلافة؟ او ان يغفله النبى نفسه؟ ويستطرد ابن خلدون بعد الذى ذكرنا فيقول: المصدر نفسه والصفحة نفسها «ثم قال النبى: ائتونى بدواة وقرطاس، اكتب لكم كتابا لا تضلوا بعده؟ فتنازعوا وقال بعضهم: اهجر؟ ثم ذهبوا يعيدون عليه فقال: دعونى فما انا فيه خير مما تدعوننى اليه».

[صفحه ۲۶]

ترى ماذا اراد الرسول ان يكتب؟ ولماذا امتنع القوم عن تلبية الطلب؟ هل اراد ان يثبت النص الشفوى على الخلافة «حسب وجهة نظر بعض المسلمين بالكتابة زيادة فى التأكيد، ودفعا للالتباس؟ ثم ايجوز ان يقال: بأن الرسول يهجر فى واحدة من ثلاث قالها بالتتابع فى آن واحد؟ اى ان الرسول كان يهجر [۵۵] بنظرهم فى مسألة الدواة والقرطاس فقط على حين انه لم يكن كذلك بنظرهم فى اخراج المشركين من جزيرة العرب ومجازاة الوفد بمثل ماكان يجيزهم فيه؟ لقد نفذ أبو بكر الجزء الخاص من وصية الرسول هذه فيما يتصل بجيش اسامة. ومحاربة المشركين فى جزيرة العرب، فى حين ان الرسول قال ذلك فى الوقت الذى طلب فيه الدواة والقرطاس.

ومن الطريف ان نذكر هنا ان ابن عباس قد روى محاورة طريفة جرت بينه وبين عمر بن الخطاب فى اوائل عهده بالخلافة ملخصها: ان

عمر قال له: «يا عبدالله عليك دماء البدن ان كتمتها.. هل بقى فى نفس على شىء من امر الخلافة؟ قلت: نعم، قال: ايزعم ان رسول الله نص عليه؟ قلت: نعم. فقال عمر: لقد كان فى رسول الله من امره ذروه من قول، لا يثبت حجة ولا يقطع عذرا، ولقد كان يربع فى امره وقتا ما، ولقد اراد فى مرضه ان يصرح باسمه فمنعت من ذلك اشفاقا وحيطة على الاسلام.. فعلم رسول الله انى علمت ما فى نفسه فأمسك [۵۶]». واذا صحت هذه الرواية فان عمر يبدو كأنه احرص على الاسلام من نبيه وهو امر كان المفروض فى عمر ان لا يهبط اليه.

واذا اغفلنا؛ لغرض سهولة البحث بقدر ما يتعلق الامر بموضوع الخلافة من الناحية الدنيوية، امر الاستشهاد بالنصوص التاريخية التى ينفرد بذكرها الفريق

[صفحه ۲۷]

الاول من المسلمين وركزنا اهتمامنا فى النصوص التى يذكرها الفريق الثانى من المسلمين اصبح بمقدورنا ان نجعل دراستنا لهذا الموضوع تسير فى هذا المرحلة من مراحلها بالاتجاه التالى:

ترى ما الذى حال بين على والخلافة بمعناها الزمنى بعد وفاة الرسول؟ وقبل ان نتصدى للاجابة على هذا السؤال يجمل بنا ان ننبه القارىء الى ان ليس لدينا من الادلة المقنعة ما يحول بيننا وبين الاعتقاد باندثار كثير من النصوص التاريخية المهمة المتعلقة بالنقطة موضوع البحث بطريقة عرضية، او مقصودة، او بتحريف بعض آخر، او وضع نصوص تاريخية معاكسة وبخاصة فى صدر الدولة الاموية.

ولكننا مع هذا تمشيا مع وحدة البحث وعدم تشتيت موضوعه قد اعتمدنا قدر المستطاع على النصوص التاريخية التى تذكرها امهات كتب التاريخ والسير.

اما حوادث الاعتداء على الطالبيين باللسان والسيف والقلم منذ وفاة الرسول فتكاد لاتقع تحت حصر فقد اتخذ الوصوليون من رجال الدين والقضاة، والامراء من انتقاص الطالبيين واتباعهم وسيلة يتقربون بها من الفئة الحاكمة فى العهدين الاموى، والعباسى!! وقد شجعتهم الفئة الحاكمة بدورها على ذلك وفى معرض التحدث عن هذا الجانب من جوانب الموضوع يقول احد المؤرخين [۵۲]:

«روى ابوالحسن على بن محمد بن ابى سيف المدائنى فى كتاب الاحداث قال:

كتب معاوية الى عماله بعد عام الجماعة ان برئت الذمة ممن روى شيئا من فضل ابى تراب واهل بيته، فقامت الخطباء فى كل كورة وعلى كل منبر يلعنون عليا ويبرءون منه ويقعون فيه وفى اهل بيته.

وكتب معاوية الى عماله فى جميع الآفاق: الا يجيزوا لاحد من شيعة على واهل بيته شهادة. وكتب اليهم: ان انظروا من قبلكم من شيعة عثمان ومحبيه، واهل ولايته والذين يرون مناقبه وفضائله فادنوا مجالسهم وقربوهم واكرموهم واكتبوا لى بكل ما يروى كل رجل واسمه، واسم ابيه وعشيرته؟ ففعلوا ذلك حتى اكثروا

[صفحه ۲۸]

فضائل عثمان ومناقبه، لما كان يبعثه اليهم من الصلات.. ثم كتب الى عماله: ان الحديث عن عثمان قد كثر.. فاذا جاءكم كتابى هذا فادعوا الناس الى الرواية فى فضائل الصحابة والخلفاء الاولين، ولا تتركوا خبرا يرويه احد من المسلمين فى ابى تراب الا واتوا بمناقض له فى الصحابة.. فقرأت كتبه على الناس فرويت اخبار كثيرة فى مناقب الصحابة مفتعلة لاـ حقيقة لها.. ومضى على ذلك الفقهاء والقضاة والولاة».

لقد مر بنا الاستفسار عن العوامل التى حالت بين على وبين ارتقائه منبر النبى بعد وفاته مباشرة، وللاجابة على ذلك ينبغى لنا ان نستعرض صفات الامام منذ نشأته الى وفاة الرسول ومواقفه من الرسول، ومن الاسلام، وموقف الرسول منه فى حالتى السلم والحرب، عسانا نعثر على مفتاح قفل الخلافة.

اننا نحاول بعبارة اخرى ان نجيب عن السؤالين التاليين:

هل كان الامام كفؤا للخلافة بعد الرسول؟ واذا كان كذلك فما الذى حال بينه وبينها؟.

والبحث فى الشق الاول من هذا الموضوع اهلية الامام للخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة يستلزم التطرق الى ظروف ملازمته للدعوة الاسلامية منذ نشوئها. ولابد فى هذه المناسبة من الالمام الى موقف ابويه من النبى ومن رسالته قبل ذكر مواقفه هو من الرسول ومن الاسلام فى حالتى السلم والحرب. وبما ان مواقف ابى طالب وزوجه فاطمة بنت اسد من النبى معروفة لدى من لهم ادنى المام بتاريخ الرسول فاننا سنكتفى بذكر نماذج من ذلك على سبيل التمثيل لا الحصر: ذكر ابن هشام [۵۳] بصدد التحدث عن صد ابى طالب كفار قريش فى صدر الدعوة الاسلامية عن البطش بالرسول «لما رأت قريش ان رسول الله لا يعتبهم من شىء انكروا عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا ان عمه ابا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من اشراف قريش الى ابى طالب: عتبة، وشيبة ابنا ربيعة ابن عبدشمس، وابوسفيان بن حرب بن امية. فقالوا: ياابى طالب، ان ابن اخيك قد

[صفحه ۲۹]

سب آلهتنا وعاب ديننا. فاما ان تكفه عنا واما ان تخلى بيننا وبينه. فنكفيكه؟ فقال لهم ابوطالب قولا رقيقا، وردهم ردا جميلا. ثم انهم مشوا له ثانية فردهم. ثم ان قريشا حين عرفوا ان ابا طالب قد ابى خذلان رسول الله. مشوا اليه بعمارة بن الوليد بن مغيرة فقالوا: يا ابا طالب هذا عمارة بن الوليد: انهد فتى فى قريش واجمله ... فخذه واسلم الينا ابن اخيك فقال لبئس ماتسومونني اتعطونني ابنكم اغذوه واعطيكم ابنى تقتلونه!» وقال ابن سعد [۵۴]: «لما توفى عبدالمطلب قبض ابوطالب رسول الله. وكان يحبه حبا شديدا لايحب ولده. وكان لاينام الا الى جنبه ويخرج فيخرج معه. وصب به ابوطالب صبابة لم يصب مثلها بشىء قط» ويذكر ابن الاثير [۵۵] فى حديث عن موقف ابى طالب فى حماية الرسول ضد قريش: ان قريشا عندما رأت الاسلام يفشو ويزيد ... وعاد اليهم عمرو ابن العاص ... من النجاشى بما يكرهون من منع المسلمين عنهم وامنهم عنده، ائتمروا فى ان يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون على ان لا ينكحوا بنى هاشم وبنى المطلب ولا يتباعوا منهم شيئا. فكتبوا بذلك صحيفة ثم علقوا الصحيفة فى جوف الكعبة توكيدا لذلك الامر على انفسهم... فأقاموا على ذلك سنتين او ثلاثا. فاعتزل الناس بنى هاشم وبنى المطلب. واقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وابوطالب ومن معهما بالشعب ثلاث سنين» فأكلت الارضة الصحيفة واخبر النبى عمه بذلك، «وكان ابوطالب لا يشك فى قوله فخرج من الشعب الى الحرم فاجتمع الملأ من قريش» فأخبرهم ابوطالب ان الارضة اكلت صحيفتهم ... وانشد:

وقد كان فى امر الصحيفة عبرة

متى ما يخبر غائب القوم يعجب

محا الله منهم كفرهم وعقوقهم

وما نقموا من ناطق الحق معرب

فأصبح ما قالوا من الامر باطلا

ومن يختلق ما ليس بالحق يكذب

فلا عجب ان اشتد كفار قريش عليه بعد وفاة عمه ابى طالب حتى قال رسول الله

[صفحه ۳۰]

صلى الله عليه وآله وسلم: «ما نالت قريش شيئا منى اكرهه حتى مات ابوطالب» [۵۶].

والخلاصة كما يقول ابن خلدون [۵۲]: «ان عبدالمطلب جد النبى توفى بعد ولادته بثمان سنين وعهد به الى ابنه ابى طالب فأحسن ولايته وكفالته. وكان شأنه فى رضاعه وشبابه ومرباه عجبا. وتولى حفظه وكلاءته من مفارقة احوال الجاهلية وعصمته [۵۳] من التلبس بشىء منها». ثم توفى «ابوطالب وخديجة، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين فعظمت المصيبة واقدم عليه سفهاء قريش بالاذاية

والاستهزاء، والقاء القاذورة فى مصلاه» [۵۴].

ذلك ما يتعلق بأبى طالب وموقفه من الرسول ومن دعوته.

اما موقف السيدة فاطمة ام على فيتضح بما صنعه الرسول عند وفاتها حزنا عليها لما ابدته من عطف عليه وعلى رسالته. فقد تقدم رسول الله عند موت فاطمة بنت اسد زوج ابى طالب وام على واسبق نساء العالمين الى الاسلام بعد خديجة فألبسها فوق كفنها قميصه، ثم نزل الى القبر فسواه بيده الكريمة فاضطجع الى جوارها فيه» [۵۵].

ذلك ما يتعلق بالبيت المشبع بالعطف على النبى والايمان برسالته حيث نشأ ابن ابى طالب وترعرع متنقلا بينه وبين بيت الرسول نفسه وفى كنف السيدة خديجة ام المؤمنين.

اما اذا نظر الباحث الى مواقف الامام نفسه فى حماية الدعوة الاسلامية وصاحبها من مؤامرات كفار قريش، تلك المواقف التى دلت على كفاءته لتسلم خلافة الرسول بعد وفاته من جهة، والتى اهلته بدورها لتسنم ذلك المنصب الرفيع

[صفحه ۳۱]

من جهة اخرى. فانه يجد تلك المواقف المشرفة كثيرة العدد «تتزاحم بالمناكب وتتدافع بالراح» بحيث يصبح امر الموازنة بينها «لاختيار بعضها للاستشهاد به» من اصعب الامور. وقبل ان نتطرق الى ذكر اهمها يجمل بنا ان نشير الى الظروف الخاصة التى ربطت بين على والاسلام من جهة، وبينه وبين النبى من جهة اخرى، وبقدر ما يتعلق الامر بصلة الاسلام بعلى، او صلة على بالاسلام يمكننا ان نقول مع العقاد: «لقد ملأ الدين الجديد قلبا لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة، ولم يخالطه شوب بكدر صفاءه ويرجع به الى عقابيله، فبحق ما يقال: ان عليا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وان الدين الجديد لم يعرف قط اصدق اسلاما منه ولا اعمق نفاذا فيه» [۵۶].

فقد بعث النبى على مايقول الدكتور طه حسين: وعلى عنده صبى فأسلم.. وظل بعد اسلامه فى حجر النبى يعيش بينه وبين خديجة ام المؤمنين وهو لم يعبد الاوثان قط.. فامتاز بين السابقين الأولين بأنه نشأ نشأة إسلامية خالصة. وامتاز كذلك بأنه نشأ فى منزله الوحى بأدق معانى هذه الكلمة» [۵۲].

اما الآثار العميقة التى تركتها هذه البيئة الاسلامية الصافية فى الامام فى عقله، وقلبه، ولسانه، ويده فتعتبر من اوليات الامور المسلم بها عند الباحثين الحديثين فى علم النفس، وعلم الاجتماع. واما اروع مواقفه فى نصرة الاسلام ونبيه وصدى ذلك عند الرسول وموقف الرسول منه فيتجلى فيما يلى:

۱ فى مبيته فى فراش النبى يوم ازمع كفار قريش على قتله، الامر الذى اضطره الى الهجرة من مكة الى المدينة. وفى معرض التحدث عن ذلك يقول ابن هشام: ان رسول الله امر عليا قبل هجرته ان ينام على فراشه ويتسجى ببردة الحضرمى الاخضر بعد ان اخبره بخروجه من مكة تفاديا لبطش كفار قريش، اى ان قريشا بعبارة اخرى لما علمت «ان رسول الله قد صار له شيعة وانصار من غيرهم.. وانه مجمع على اللحاق بهم.. تشاوروا ما يصنعوه فى امره،

[صفحه ۳۲]

واجتمعت لذلك مشيختهم فى دار الندوة عتبة، وشيبة وابوسفيان من بنى امية.. فتشاوروا فى حبسه او اخراجه عنهم، ثم اتفقوا على ان يتخيروا من كل قبيلة منهم فتى شابا جلدا فيقتلونه جميعا فيتفرق دمه فى القبائل ولا يقدر بنو عبدمناف على حرب جميعهم. واستعدوا لذلك من ليلتهم ... فلما رأى ارصادهم على باب منزله امر على بن ابى طالب ان ينام على فراشه ويتوشح ببرده» [۵۳].

وقد امر النبى عليا «ان يتخلف بعده بمكة حتى يؤدى عنه الودائع التى كانت عنده للناس ... فأقام على بمكة ثلاث ليال وايامها حتى ادى عن رسول الله الودائع ... حتى اذا فرغ منها لحق برسول الله» [۵۴] فقطع الامام المسافة بين مكة والمدينة وحده ماشيا حتى ورمت قدماه [۵۵].

۲ مؤاخاة الرسول له حين آخى بين اصحابه من المهاجرين والانصار حيث اخذ بيد على بن ابى طالب وقال: هذا اخى» [۵۶].

۳ فى دفاعه عن الاسلام ونبيه اثناء حروبه ضد الكفار وبخاصة فى موقعة احد حيث تعرض الرسول ورسالته لاعظم محنة عسكرية...

وقد ناول على سيفه لفاطمة عند رجوعه من احد قائلا:

«فوالله لقد صدقنى اليوم.. كما صدق سهل بن حنيف سيفه كذلك على ما ذكر الرسول، ثم انشد يقول:

افاطم هاك السيف غير ذميم

فلست برعديد ولا بمليم

لعمرى لقد قاتلت فى حب احمد

وطاعة رب بالعباد رحيم

[صفحه ۳۳]

وسيفى بكفى كالشهاب اهزه

اجد به من عائق وحميم [۵۲].

۴ فى ارساله من قبل النبى الى مكة عندما نزلت سورة براءة.. «حدثنى محمد ابن الحسين قال:

حدثنا احمد بن المفضل قال: حدثنا اسباط عن السدى قال:

«لما نزلت هذه الايات الى رأس الاربعين يعنى: من سورة براءة فبعث بهن رسول الله مع ابى بكر وامره على الحج، فلما صار فبلغ الشجرة من ذى الحليفة اتبعه بعلى فأخذها منه. فرجع ابوبكر الى النبى صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله بأبى انت وامى انزل فى شأنى شيء؟؟ قال: لا، ولكن لا يبلغ عنى غيرى او رجل منى » [... ۵۳].

۵ فى خروجه الى اليمن مبعوثا من قبل النبى «وكان ارسل قبله خالد ابن الوليد اليهم يدعوهم الى الاسلام فلم يجيبوه. فأرسل النبى عليا وامره ان يعقل خالدا ومن سار من اصحابه ففعل. وقرأ على كتابا من رسول الله على اهل اليمن، فأسلمت همدان كلها فى يوم واحد... » [۵۴].

۶ فى موقف النبى منه فى غزوة تبوك حيث خلفه على اهله فى المدينة عندما تخلف فيها عبدالله بن ابى المنافق فيمن تبعه من اهل النفاق» [۵۵] وقد قال الامام ابوالحسن مسلم بن الحجاج فى صحيحه [۵۶]:

[صفحه ۳۴]

«حدثنا يحيى بن يحيى التميمى وابوجعفر محمد بن الصباح وعبدالله القواريرى وسريح بن يونس.. عن سعيد بن المسيب عن عامر بن سعد بن ابى وقاص عن ابيه قال:

قال رسول الله لعلى: انت منى بمنزلة هارون من موسى غير انه لا نبى بعدى.

وحدثنا ابوبكر بن شيبة عن سعد بن ابى وقاص قال:

خلف رسول الله عليا فى غزوة تبوك. فقال: يا رسول الله تخلفنى فى النساء والصبيان؟ قال: اما ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى؟ غير انه لا نبى بعدى؟».

۷ فى موقف النبى منه فى غزوة خيبر. قال الامام مسلم فى صحيحه:

«حدثنا قتيبة بن سعيد ... عن ابى هريرة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال يوم خيبر: لاعطين هذه الراية رجلا يحب الله ورسوله...

قال عمر بن الخطاب:

ما احببت الامارة الا يومئذ. قال: فتساورت لها رجاء ان ادعى لها. قال: فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن ابى طالب فأعطاه اياها» [۵۲].

وهناك امور اخرى تتصل بأهلية الامام لتولى منصب الخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة لا بد من ذكرها فى هذه المناسبة:

أ تفهمه جوهر الدين الاسلامى والمامه به من جميع اطرافه وايمانه به ايمانا صافيا،بيده، وقلبه، ولسانه، فقد كان على محظوظا من دون الصحابة بخلوات كان يخلوها مع رسول الله «ص» لا يطلع احد من الناس على ما يدور بينهما، وكان كثير السؤال للنبى عن معانى القرآن ... واذا لم يسأل ابتدأه النبى بالتعليم والتثقيف، ولم يكن احد من اصحاب النبى كذلك، بل كانوا اقساما، فمنهم من يهابه ان يسأله، وهم الذين يحبون ان يجيء الاعرابى او الطارىء فيسأله وهم يستمعون.

[صفحه ۳۵]

ومنهم من كان بليداً بعيد الفهم قليل الهمة فى النظر والبحث.

ومنهم من كان مشغولا عن طلب العلم، وفهم المعانى اما بعبادة او دنيا.

ومنهم المبغض الشانىء الذى ليس للدين عنده من الموقع ما يضيع وقته بالسؤال عن دقائقه وغوامضه» [۵۳].

ب اشراك الرسول اياه فى تنفيذ اوامره المهمة التى تتصل بجوهرة العقيدة الاسلامية واعتماده عليه فى المواقف الحاسمة من تاريخ التبشير بالدعوة الاسلامية، فكأن الرسول اراد بذلك تدريبه وتهيئته لتولى شئون المسلمين من بعده.

يقابل ذلك من الناحية الثانية ان الرسول لم يعهد لكبار الصحابة وفى مقدمتهم ابوبكر وعمر بأمثال تلك الامور الخطيرة.

ومما يؤيد وجاهة ما ذهبنا اليه ان ابا بكر قد قام اثناء خلافته بعمل مشابه لما ذكرنا فيما يتصل بعمر بن الخطاب الذى ولى الخلافة من بعده فقد هيأه الى تسنم كرسى الخلافة من بعده عن الطريق ايداعه له كثيرا من الامور المهمة المتصلة بسياسة الدولة العليا.

ج وهناك امر ثالث يتصل بترشيح الرسول عليا للخلافة من بعده، ويتعلق هذا الامر بقضية جيش اسامة. وتفصيل ذلك على ما يقول ابن سعد [۵۴]:

«ولما كان يوم الاثنين لاربع ليال بقين من صفر سنة احدى عشرة من مهاجر رسول الله: امر رسول الله بالتهيؤ لغزو الروم، فلما كان من الغد دعا اسامة ابن زيد فقال:

«سر الى موضع مقتل ابيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغر صباحا على اهل ابنى [۵۵] وحرق عليهم واسرع السير وتسبق الاخبار، وان ظفرك الله فأقلل اللبث فيهم وخذ معك الادلاء وقدم العيون والطلائع امامك».

[صفحه ۳۶]

فلما كان يوم الاربعاء بدىء برسول الله فحم وصدع. فلما اصبح يوم الخميس عقد لاسامة لواءاً بيده، ثم قال:

«اغز باسم الله، فقاتل من كفر بالله».

فخرج بلوائه معقودا فدفعه الى بريدة بن الحصيب الاسلمى وعسكر بالجرف [۵۶] مع وجوه المهاجرين والانصار، فيهم ابوبكر وعمر وابوعبيدة ... فتكلم قوم وقالوا: ايستعمل هذا الغلام على المهاجرين الاولين؟ فغضب الرسول غضبا شديدا، فخرج وقد عصب على رأسه عصابة ... فصعد المنبر ... وقال:

اما بعد ايها الناس فما مقالة قد بلغتنى عن بعضكم فى تأميرى اسامة، ولئن طعنتم فى امارة اسامة لقد طعنتم فى امارة أبيه من قبله. وايم الله ان كان للامارة لخليقا، وان ابنه من بعده لخليق للامارة ان كان لمن احب الناس الى وانهما لمحلان لكل خير، فاستوصوا به خيرا فانه من خياركم».

ثم نزل فدخل بيته وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الاول ... وثقل رسول الله وجعل يقول:

«انفذوا بعث اسامة».

فلما كان يوم الاحد اشتد برسول الله وجعه فدخل اسامة معسكره والنبى مغمور مغمى عليه.. فطأطأ اسامة فقبله ورسول الله لايتكلم فجعل يرفع يديه الى السماء ثم يضعها على اسامة، قال:

فعرفت انه يـدعو لى، ورجع اسامة الى معسـكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب ... توفى رسول الله » ... أى ان رسول الله قد بعث قبيل وفاته ببضعة ايام بعثا الى الشام واميرهم اسامة بن زيد مولاه ... واوعب مع اسامة

[صفحه ۳۷]

المهـاجرون الاـولون منهم ابوبكر وعمر، فبينمـا الناس على ذلك ابتـدأ رسول الله مرضه ... فتأخر مسير اسامـة ... فخرج النبى عاصـبا رأسه من الصداع ... وامر بانفاذ جيش اسامة...

وخرج اسامة فضـرب بالجرف: العسـكر وتمهل الناس وثقل رسول الله ... ولم تشـغله شدة مرضه عن انفاذ امر الله» [۵۲] اى ان الرسول عند رجوعه من حجة الوداع على ما يقول ابن خلدون [۵۳]:

«ضـرب على النـاس ... بعثـا الى الشـام وامر عليهم مولاـه اسامـة بن زيـد بن حارثـة. امره ان يوطىء الخيـل تخوم البلقاء والـداروم الى الاردن من ارض فلسـطين ومشارف الشام فتجهز الناس واوعب معه المهاجرون الاولون فبينما الناس على ذلك ابتدأ رسول الله بشكواه التى قبضه الله فيها...

وخرج رسول الله عاصبا رأسه من الصداع وقال:

لقـد بلغنى ان اقوامـا تكلموا فى امـارة اسامـة، ان يطعنوا فى امـارته لقـد طعنوا فى امـارة ابيه من قبله، وان كان ابوه لحقيقا بالامارة وانه لحقيق بها. انفروا».

غير ان جيش اسامة لم يصدع بامر النبى على الرغم من الحاح الرسول على تنفيذ امره.

وقد ذكر اسامة نفسه انه: «لما ثقل رسول الله هبطت انا ومن معى الى المدينة فدخلنا عليه وقد اصـمت [۵۴] فلا يتكلم، فجعل يرفع يده الى السماء ثم يضعها علىّ فعلمت انه يدعو لى» [۵۵].

والغريب فى الامر هو: الحاح الرسول على ضرورة مسير جيش اسامة الى

[صفحه ۳۸]

الوجهـة التى وجهها اياه على الرغم من مرضه، واعجب من ذلك هو تلكؤ القوم وتملصـهم عن تنفيذ امر النبى، فكأن هناك امرا خفيا يتنازع عليه الطرفان.

ترى لماذا الح الرسول على إنفاذ الجيش فى تلك اللحظة الحاسمة من حياته؟

لماذا وضع فى الجيش كبار الصحابة وفى مقدمتهم ابوبكر وعمر واستثنى على بن ابى طالب؟.

ولماذا جعل اسامة قائدا للجيش رغم احتجاج كبار الصحابة؟

لماذا احجم القوم عن تنفيذ اوامره؟

هل رغب الرسول فى اخلاء الجو لعلى؟ وشعر القوم بذلك فأحجموا؟

تلك اسئلة محيرة دون شك.

ثم هل هناك من صلة بين مسألة جيش اسامة وبين رواية الدواة والقرطاس؟

ومما يجعل هذا الامر المعقد اكثر تعقيدا، هو: ان الرسول قد فقد قدرته على النطق قبيل وفاته [۵۶] واثناء الانشغال بجيش اسامة، ولكن اشارته باليد الى اسامة ابلغ وسيلة للتعبير عن رغبته فى انفاذ ذلك الجيش الذى لو نفذ لتغير مجرى التاريخ الاسلامى تغيرا كبيرا.

[صفحه ۳۹]

حديث السقيفة

ابوبكر الصديق

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول:

ان عليا كان مهيئا للخلافة بعد الرسول، هذا اذا نظرنا للخلافة من جوانبها الزمنية، وان صلاته بالرسول وبالاسلام، وصلات الاسلام والرسول به تؤهله لذلك.

ولو احتج المسلمون اثناء السقيفة بعد وفاة النبى: «ان عليا كان اقرب الناس اليه، وكان ربيبه، وكان خليفته على ودائعه، وكان اخاه. بحكم تلك المؤاخاة، وكان ختنه وابا عقبه، وكان صاحب لوائه؛ وكان خليفته فى اهله، وكانت منزلته منه بمنزلة هارون من موسى بنص الحديث عن النبى «ص» نفسه.

لو قال المسلمون هذا كله واختاروا عليا بحكم هذا كله لما ابعدوا ولا انحرفوا.

وكان كل شىء يرشح عليا للخلافة ... قرابته من النبى، وسابقته فى الاسلام، ومكانته بين المسلمين، وحسن بلائه فى سبيل الله، وسيرته التى لم تعرف العوج قط، وشدته فى الدين، وفقهه بالكتاب والسنة، واستقامة رأيه» [۵۷].

وقد لخص ابن حجر العسقلانى اهم خصائص الامام حين قال: [۵۸].

على بن ابى طالب.. اول الناس اسلاما فى قول كثير من اهل العلم، ربى فى حجر

[صفحه ۴۰]

النبى، ولم يفارقه، وشهد معه المشاهد الا غزوة تبوك، فقال له بسبب تأخيره له بالمدينة:

الا ترضى ان تكون منى بمنزلة هارون من موسى...

وكان لواؤه بيده فى اكثر المشاهد. ولما آخى النبى اصحابه قال له: انت اخى. ومناقبه كثيرة حتى قال الامام احمد بن حنبل لم ينقل لاحد من الصحابة ما نقل لعلى.

وقال غيره: كان سبب ذلك بغض بنى امية له. فكان كل من كان عنده علم من شىء من مناقبه من الصحابة يثبته. وكلما ارادوا اخماده وهددوا من حدث بما فيه لا يزداد الا انتشارا...

ولم يزل بعد النبى متصديا لنصرة العلم والفتيا...

ومن خصائص على قول الرسول يوم خيبر:

لادفعن الراية غدا الى رجل يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله ... فدفعها لعلى.

فقال عمر: ما احببت الامارة الا ذلك اليوم...

وبعثه يقرأ براءة على قريش وقال: لا يذهب الا رجل منى وانا منه..

وقال: على وليى فى الدنيا والاخرة. واخذ رداء فوضعه على على وفاطمة وحسن وحسين، وقال:

«انما يريد الله ليذهب عنكم الرجس اهل البيت ... الاية» [۵۹].

ولبس ثوبه ونام فى مكانه، وكان المشركون قصدوا قتل النبى ... وقال:

انت ولى كل مؤمن بعدى. وسد الابواب الا باب على [۶۰] فيدخل المسجد جنبا، وهو طريقه ليس له طريق غيره. وقال:

من كنت مولاه فعلى مولاه.. ولما نزلت هذه الاية: «قل تعالوا ندع ابناءنا

[صفحه ۴۱]

وابناءكم ونساءنا ونساءكم وانفسنا وانفسكم ... الاية» [۶۱] دعا رسول الله عليا وفاطمة وحسنا وحسينا، فقال: اللهم هؤلاء اهلى..

واخرج الترمذى باسناد قوى عن عمران بن حصين فى قصة قال فيها رسول الله: ما تريدون من على؟ ان عليا منى وانا من على، وهو ولى كل مؤمن بعدى».

فما الذى حال اذن دونه ودون ارتقاء منبر النبى بعد وفاته مباشرة؟

ان الاجابة على هذا السؤال تستلزم ان يتطرق الباحث الى ذكر ظروف وفاة الرسول؛ وانشغال الامام بتغسيله وتجهيزه ودفنه والصلاة عليه من جهة، وباجتماع الانصار فى سقيفة بنى ساعدة وموقف عمر بن الخطاب من ذلك كله من جهة اخرى، والى قول ذكره عمر، على ما يظن، وتردد على ألسنة بعض القرشيين يتضمن كرههم ان تجتمع النبوة والخلافة للهاشميين.

وخلاصة الامر ان الرسول توفى داره بالمدينة سنة ۱۱ ه وانشغل على بأمر تغسيله وتكفينه والصلاة عليه. وكان الجو السياسى خارج دار النبى آنذاك نشطا مملوءاً بالمفاجآة والاحداث الجسام، وفى مقدمتها مسألة خليفة الرسول.

اجتمع عمر بأبى عبيدة بمسجد المدينة وتشاورا فى امر الخلافة، واجتمع سعد ابن عبادة بسقيفة بنى ساعدة يشاور الاوس والخزرج فى امر الخلافة ايضا. واجتمعت فى اماكن شتى زمر اخرى تتحدث فى هذا الامر الخطير. على حين ان الامام عليا قد لازم فى دار النبى، وكان منهمكا باعداد الجثمان لوضعه فى مثواه الاخير يساعده نفر من اهل البيت المفجوعين، ومنهم ابوبكر [۶۲].

ومما يلفت النظر ان ابا بكر قد قدم من السنح [۶۳] بعد ان بلغه خبر وفاة الرسول،

[صفحه ۴۲]

فدخل دار النبى فى حين ان عمر بن الخطاب قد بقى خارج الدار.

وفى زحمة تلك الظروف طرق باب دار النبى رجل اوفده ابن الخطاب يدعو ابا بكر لمقابلة عمر للتشاور معه فى امر عظيم، فخرج ابوبكر والتقى بصاحبه وسارا معا الى السقيفة، حيث اجتمع الاوس والخزرج بسعد بن عبادة.

استمر الامام المفجوع منهمكا فى امر الجثمان والالم يحز نفسه على وفاة الرسول.

وساور العباس عم النبى قلق شديد يتصل بارث النبى، وبالمهة السرية التى قدم عمر متكتما من اجلها للتداول مع ابى بكر دون سواه ممن فى الدار، فهم بمبايعة الامام.

غير ان عليا رفض ذلك بشدة احتراما لجلال الموقف الرهيب..

وتقدم ابوسفيان لمبايعة الامام بالخلافة ايضا فنهره ... ثلاث مرات...

ويلوح الباحث ان اجتماع الانصار بابن عبادة فى السقيفة لم يكن فى ابتدائه راميا للاستئثار بتراث النبى بقدر ما كان راميا لتقرير منزلتهم فى العهد الجديد.

ومهما يكن الامر فقد رافق اجتماع السقيفة شىء من التأزم والامتعاض، وبخاصة عندما حضره ابوبكر وابوعبيدة بن الجراح، غير انه انتهى بمبايعة ابى بكر على الشكل المعروف.

وخلاصة ذلك [۶۴] ان الانصار من الاوس والخزرج وفيهم سعد بن عبادة الذى كان مريضا حينذاك قد اجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة بعد وفاة الرسول مباشرة للتداول فى تقرير مصيرهم فى العهد الجديد فقال سعد بن عبادة لبعض بنيه:

[صفحه ۴۳]

انه لا يستطيع ان يسمع المجتمعين صوته لمرضه، وامره ان يتلقى منه قوله ويردده على مسامع الناس، فكان سعد يتكلم ويستمع اليه ابنه، ويرفع صوته بعد ذلك.

قال سعد: يخاطب الحاضرين: «ان لكم سابقة الى الدين، وفضيلة فى الاسلام ليست لقبيلة من العرب ... ان رسول الله لبث فى قومه بضع عشرة يدعوهم الى عبادة الرحمن وخلع الاوثان. فما آمن من قومه الا قليل، حتى اراد بكم خير الفضيلة وساق اليكم الكرامة وخصكم بدينه، فكنتم اشد الناس على من تخلف عنه، واثقلهم على عدوه من غيركم. ثم توفاه الله وهو عنكم راض.. فشدوا ايديكم بهذا الامر فانكم احق الناس واولاهم به».

واتى الخبر عمر فأتى باب منزل النبى واستدعى ابا بكر كما ذكرنا وخرجا الى السقيفة، وخطب ابوبكر فى المجتمعين فقال:

«انا معاشر المسلمين المهاجرين اول الناس اسلاما. ونحن عشيرة رسول الله.. وانتم انصار الله.. واخواننا فى كتاب الله وشركاؤنا فى

الـدين، وفيمـا كنـا فيه من خير فـأنتم احب النـاس الينـا واكرمهم علينـا.. وانتم المؤثرون على انفسـهم حين الخصاصـة، واحق الناس ان لايكون انتقاض هذا واختلاطه على ايديكم، وانا ادعوكم الى ابى عبيدة: او عمر، فكلاهما قد رضـيت لهذا وكلاهما اراه له اهلا، فقال عمر وابوعبيدة: ماينبغى لاحد من الناس ان يكون فوقك.. فأنت احق الناس بهذا الامر.. فقام الحباب بن المنذر من الجموع فقال:

«يا معاشـر الانصار املكوا عليكم ايديكم.. والله ما عبدالله علانية الا عندكم، فأنتم اهل الايواء والنصـرة. واليكم كانت الهجرة.. فان ابى هؤلاء فمنا امير ومنهم امير».

فقال عمر: هيهات..

فلمـا رأى بشـير بن سـعد الخزرجى ما اجتمعت عليه الانصار من تأمير سـعد ابن عبادة، وكان حاسـدا له: وكان من سادات الخزرج قام فقال:

[صفحه ۴۴]

«ايهـا الانصـار انـا وان كنـا ذوى سابقـة فانـا لم يرد بجهادنا، واسـلامنا الا رضا الله وطاعـة نبينا.. ان محمـدا رجل من قريش وقومه احق بميراث امره.. فاتقوا الله ولاتنازعوهم».

فقام ابوبكر وقال: «هذا عمر وابوعبيدة، بايعوا ايهما شئتم، فقالا: «والله لا نتولى هذا عليك.. ابسط يدك نبايعك».

فلما بسط يده وذهبا يبايعانه.. سبقهما اليه بشير بن سعد فبايعه.. فناداه الحباب ابن المنذر:

«يابشير عقق عقاق، والله ما اضطرك الى هذا الامر الا الحسد لابن عمك».

ولما رأت الاوس ان رئيسا من رؤساء الخزرج قد بايع قام اسيد بن حضير وهو رئيس الاوس فبايع حسدا لسعد ايضا ومنافسة له ان يلى الامة فبايعت الاوس كلها لما بايع اسيد.

وحمل سعد بن عبادة وهو مريض فأدخل الى منزله فامتنع عن البيعة.

ثم خرج الى الشام فاغتيل فى اواخر خلافة ابى بكر، وقد اتهم خالد بن الوليد بتدبير مؤامرة الاغتيال.

وبعد الانتهاء من ذلك قصد البراء بن عازب دار النبى وفيها جثمان الرسول وحوله على واهل بيته فخاطبهم قائلا:

«لقـد شـهدت ابا بكر بعـد السـقيفة بعينى: الى يمينه عمر، والى يساره ابن الجراح لا يمر بهم احـد ولايمرون بأحد الا قدموا يده شاء ام ابى فمسحوها على يد ابى بكر» [۶۵].

تلك قصة السقيفة، وهى قصة لاتخلو من امور واحداث تسترعى انتباه الباحثين

[صفحه ۴۵]

فمن يتصـفح اجتمـاع السـقيفة بدقـة وامعان ويتأمل النتيجـة التى ادى اليها ذلك الاجتماع الـذى اسـفر عن ارتقاء ابى بكر منبر النبى لا يسعه ان يغفل الدور الحاسم الذى لعبه عمر بن الخطاب فى هذا الموضوع الخطير.

ولاندرى لماذا احجم ابن الخطاب عن دخول دار النبى والمساهمة فى تهيئة الجثمان ووضعه فى مثواه الاخير.

ولماذا احجم ثانية عن دخول الدار «حينما رأى اجتماع الاوس والخزرج فى السقيفة، للاتصال مباشرة بأبى بكر؟.

لماذا فضل عمر ان يمكث بباب دار النبى ويرسل شخصا غيره يدعو ابا بكر ليقابله خارج الدار؟.

ولماذا اقتصرت المشاورة على ابى بكر دون سواه من اهل البيت ومن اصحاب الرسول؟.

هـل كـان وجود ابى بكر داخـل دار النبى وبقـاء عمر خارجها طليقا يتصل ويفاوض، من الامور التى وقعت مصادفـة؟ ام كان موضوعا وفق خطة معينة اتفق عليها الرجلان؟

هل بقى ابوبكر فى دار النبى رقيبا على من فيها لضـمان عدم مفارقتها اياها ولمعرفة من يتصل بهم من الاشـخاص الموجودين خارجها لتحديد هذا الاتصال فى حالة حدوثه، او لمنع حدوثه بمجرد وجوده هناك؟

هل هناك علاقة بين هذه الحادثة، وبين جيش اسامة وقضية الدواة والقرطاس؟

ما هى الامور التى تم الاتفاق عليها بين عمر، وابن الجراح، عندما كانا يتناجيان فى مسجد المدينة قبل ان يدعى اليهما ابوبكر؟

لماذا احتج ابوبكر على الانصار بأفضلية المهاجرين؟

هل كان ابوبكر يعنى المهاجرين اطلاقا، ام الذين حضروا السقيفة هو وعمر وابوعبيدة لكسب معركة الرئاسة؟

واذا كان المهاجرين اولى بميراث النبى من غيرهم لسابقتهم فى الاسلام

[صفحه ۴۶]

ولكونهم عشيرة النبى على حد قول ابى بكر، افلا يصبح الهاشميون اولى من قريش؟ وعلى اولى من الجميع؟ لان مقياس الفضل الذى وضعه ابوبكر فى كلمته التى ذكرناها، كان ينحصر فى السابقة الى الاسلام وفى القرابة من النبى.

لماذا رشح ابوبكر صاحبيه للخلافة دون سائر المهاجرين؟ ماحقه فى ذلك الترشيح؟

ما اثر رضائه عن عمر، وابى عبيدة من الناحية الشرعية؟

الم يكن باستطاعته ان يدعو الانصار الى مبايعة من يرتضونه من المهاجرين اذا كان لابد من حصر الخلافة فى المهاجرين؟

لماذا اقتصر ترشيحه على عمر، وابى عبيدة؟

ولماذا رفض عمر وابوعبيدة هذا الترشيح؟ ورشحا ابا بكر؟

هل حدث ذلك صدفة ام انه كان جاريا وفق اتفاق سابق؟

هل لتلك الاحداث علاقة بجيش اسامة؟ وبمناجاة عمر وابى عبيدة فى مسجد المدينة؟ وباجتماعهما بأبى بكر اثناء المسير الى السقيفة؟

اين كان المهاجرون الاخرون اثناء اجتماع السقيفة.

هل حصل التنابز بين الانصار الاوس والخزرج عفوا؟ ام كانت هناك اياد خفية اثارته فى تلك اللحظة الحاسمة من التاريخ؟

هل كان باستطاعة ابى بكر او عمر عن يقترحا على الانصار تأجيل البت فى امر الخلافة الى ما بعد الانتهاء من دفن جثمان الرسول؟

هل لذلك صلة بحديث الدواة والقرطاس. وبجيش اسامة.

تلك اسئلة تسترعى انتباه الباحثين.

وعندى ان الاجابة عليها ذات صلة وثقى بشخصية عمر بن الخطاب، «ان الذى يؤخذ على ابن الخطاب حقا انه دعا ابا بكر من دار النبى ولم يدع معه احدا من آل الرسول.. وأنه وضع أبا بكر فى كفة الترجيح دون مشورة رجل واحد غير أبى عبيد ابن الجراح كأنه وكل بقلوب المسلمين يكشفها، وبألسنتهم يجرى عليها الكلام رغم

[صفحه ۴۷]

تخلفه عن كثيرين منهم وسبقهم عليه بالاسلام..

ولقد كانت فى الرجل دفعة لامراء، عرفت فيه ابان اسلامه وشركه.. استبدت به جاهليته ذات ليلة ... فأقسم ليمشين الى محمد فيقتله.. تلك كانت دفعة عمر عرفت فيه كبعض خلقه، راضها الاسلام.. ولكنه لم يأت عليها.. حتى فى حضرة الرسول كانت تملكه..

وكذلك كان يوم الحديبية.. فان عمر لم يتحر مشورة رجل واحد من المسلمين قبل ان يبعث رسوله الى دار النبى يدعوا صاحبه اليه.. لم يتحر مشورة مسلم واحد فى ترشيح الرجل الذى ستصير اليه قيادة الاسلام» [۶۶].

لقد مر بنا وصف مجمل للظروف التى احاطت بوفاة الرسول وبيعة ابى بكر.

وهناك امر آخر يتعلق اشد التعلق بموضوع تحويل الخلافة من على اشار اليه الجاحظ فيما يتصل بموقف زعماء قريش من على بعد وفاة الرسول لابد من ذكره فى هذه المناسبة.

فالامام فى حروبه مع النبى ضد قريش كان قد وترها كما يقول الجاحظ: «وسفك دماءها وكشف عن منابذها.. وليس الاسلام بمانع من بقاء الاحقاد فى النفوس.. هب انك كنت من سنتين او ثلاث جاهلياً..

وقد قتل واحد من المسلمين ابنك او اخاك ثم اسلمت، اكان اسلامك يذهب عنك ما تجده من بغض ذلك القاتل وشنآنه؟..

هذا اذا كان الاسلام صحيحا.. لا- كاسلام كثير من العرب فبعضهم تقليدا، وبعضهم للطمع والكسب، وبعضهم خوفا من السيف، وبعضهم عن طريق الحمية والانتصار لعداوة قوم آخرين من اضداد الاسلام واعدائه.

واعلم ان كل دم اراقه رسول الله بسيف على وبسيف غيره فان العرب بعد

[صفحه ۴۸]

وفاته عصبت تلك الدماء بعلى وحده لانه لم يكن فى رهطه من يستحق فى شرعتهم وعادتهم ان يعصب به تلك الدماء الا على وحده» [۶۷].

يتضح مما ذكرنا ان الذى حال بين على والخلافة بعد وفاة الرسول مباشرة، اذا استثنينا النص على وصيته الذى يقول به فريق من المسلمين، ليس هو شيئا متعلقا بأهليته لتحمل مسئولية هذا المنصب الخطير ولكنه كان، كما رأينا، نتاج ظروف اجتماعية خاصة نتجت عن انشغال الامام بجثمان الرسول وعن تنازع بعض كبار المهاجرين والانصار للاستئثار بتراث الراحل العظيم.

ولو انصف الناس حق الانصاف لارجأوا البيعة حتى يتم لهم مواراة جثمان الرسول.. كان ذلك ادنى الى الصواب ان لم يكن هو الصواب ان يترك القوم من المهاجرين والانصار لايتنازعون سلطان محمد بينهم، ومحمد ما زال مسجى على فراشه لم يغيبه عن عيونهم مثواه» [۶۸] ومهما يكن من الامر فقد نحى الامام على عن الخلافة، ولكنه مع ذلك، تعاون مع ابى بكر بقلبه ولسانه ويده فى جميع الامور التى تتصل بجوهر الاسلام والمحافظة عليه، استمع اليه يقول:

«اما بعد، فان الله بعث محمداً نذيراً للعالمين.. فلما مضى تنازع المسلمون الامر بعده، فوالله ماكان يلقى فى روعى ولايخطر ببالى ان العرب تزعج هذا الامر من بعده عن اهل بيته، ولا- انهم منحوه عنى من بعده، فما راعنى الا- انثيال الناس على فلان [۶۹] يبايعونه. فأمسكت بيدى حين رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الاسلام...

فخشيت ان لم انصر الاسلام واهله ان ارى فيه ثلما او هدما تكون المصيبة به علىّ اعظم من فوت ولايتكم التى هى متاع ايام قلائل» [۷۰].

[صفحه ۴۹]

ولم يختلف الامام مع ابى بكر او مع الذين جاءوا من بعده الا فى الامور التى ساقه اجتهاده الشخصى اليها حرصا على الاسلام كذلك. ويتجلى كبر نفس الامام فى هذا الباب اذا تذكرنا بعض المواقف الغليظة التى وقفها منه ابوبكر فى صدر خلافته، ربما بتأثير من عمر، وبخاصة فى قضية ميراث فدك:

«فقد سبقت الشائعات خطوات ابن الخطاب وهو يسير الى دار فاطمة ... لطلب البيعة لابى بكر. وهل على ألسنة الناس عقال يمنعها ان تروى قصة حطب امر به ابن الخطاب فأحاط بدار فاطمة وفيها على وصحبه!! [۷۱].

وخلاصة قصة فدك: قرية حجازية قريبة من المدينة، سكنها اليهود منذ زمن بعيد وعمروها وزرعوها.

وفى السنة السابعة للهجرة اعلن سكانها خضوعهم للرسول دون حرب فأصبحت فدك خالصة للنبى من دون المسلمين وفق منطوق الاية الكريمة: «وما افاء الله على رسوله منهم فما اوجفتم عليه من خيل ولا ركاب» [۷۲].

وقد وهب الرسول فدك فى حياته لابنته فاطمة بعد ان غرس فيها بيده الكريمة احدى عشرة نخلة. فكانت السيدة فاطمة هى التى تتصرف بفدك منذ ان وهبها لها ابوها حتى وفاته حيث انتزعها منها ابوبكر بعد توليته الخلافة مباشرة.

وقد اشار الى ذلك الامام فى احدى رسائله الى عثمان بن حنيف حين قال:

«بلى كانت فى ايدينا فدك من كل ما اظلته السماء فشحت بها نفوس قوم وسخت عنها نفوس آخرين » [... ۷۳].

[صفحه ۵۰]

فالسيدة فاطمة اذن تستحق ميراث فدك من ناحيتين. هما الميراث والنحلة.

وكان على الخليفة وقد ارتأى انتزاعها منها ان يبقيها تحت تصرفها مجاملة للرسول ولها، ويقترح فى حالة اختلافه معها انفاق بعض غلتها فى وجوه الخير التى يتفق عليها الطرفان.

هذا اذا سلمنا جدلا بأنها لاترث ابيها، وان النبى لم يهبها اياها فى حياته.

كما كان على الخليفة كذلك، من الناحية القانونية العرفية، وقد قرر ان ينتزعها من السيدة، ان يستبقيها فى يدها الى ان يثبت له عدم احقيتها بها.

ومن الطريف ان نذكر قبل التصدى للبحث فى طبيعة النزاع بين الزهراء وابى بكر فى قضية فدك، ان فدك بقيت بيد الخلفاء الراشدين.

فلما استولى معاوية على الملك قسمها مثالثة بين مروان بن الحكم، وعمرو ابن عثمان بن عفان، ويزيد ابنه وهو امر على جانب كبير من الغرابة غير انها قد اصيحت خالصة لمروان فى خلافته فوهبها لابنه عبدالعزيز الذى وهبها بدوره لابنه عمر الذى ردها عند توليته الخلافة، لاولاد فاطمة. وكان رده اياها، على ما يقول المؤرخون:

اول ظلامة ردها، فلما ولى يزيد قبضها منهم فصارت فى ايدى بنى مروان، وبقيت كذلك الى سقوط دولتهم.

فما جاء العباسيون ردها السفاح الى اهلها. ثم قبضها المنصور.

وردها ابنه المهدى، وقبضها الهادى والرشيد.

وردها المأمون بعد ان ناظره فى امرها شيخ طاعن فى السن. ثم قبضها المعتصم

وبعد ذلك ضاعت معالمها على المؤرخين.

ويلوح مما ذكرنا ان فدك كانت وسيلة بيد الخليفة ان شاء ردها لاهلها، وان شاء قبضها عنهم وفق مزاجه الخاص وحالته النفسية من جهة، وموقف الطالبيين فى زمانه من الاحداث السياسية العامة فى الدولة من جهة اخرى.

[صفحه ۵۱]

ولما كان ارجاع فدك الى ورثة السيدة فاطمة قد حصل فى عهد المأمون بشكل يدعو الى التأمل ويشير بصراحة، لا لبس فيها ولاغموض، الى حق السيدة فى فدك لذلك نرى هنا اثباته هنا بالشكل الذى ذكره البلاذرى [۷۴]:

«ولما كانت سنة عشرة ومئتين امر المأمون.. برد فدك الى ولد فاطمة وكتب بذلك الى قثم بن جعفر عامله على المدينة:

اما بعد، فان المؤمنين بمكانة من دين الله وخلافة رسوله والقرابة به، اولى من استن سنته ونفذ امره وسلم لمن منحه منحة وتصدق عليه بصدقة منحته وصدقته.

وقد كان رسول الله اعطى فاطمة بنت رسول الله فدك وتصدق بها عليها. وكان ذلك امراً ظاهرا معروفا لا اختلاف فيه..

فرأى امير المؤمنين ان يردها الى ورثتها ويسلمها اليهم تقربا الى الله باقامة حقه وعدله والى رسول الله بتنفيذ امره وصدقته.

فأمر باثبات ذلك فى دواوينه والكتابة به الى عماله:

فلئن كان ينادى فى كل موسم بعد ان قبض الله رسوله أن يذكر كل من كانت له صدقة او عدة ذلك فيقبل قوله وينفذ عدته، ان فاطمة لاولى بأن يصدق قولها فيما جعل رسول الله لها. وقد كتب امير المؤمنين الى المبارك الطبرى مولى امير المؤمنين يأمره برد فدك على ورثة فاطمة بنت رسول الله بحدودها وجميع حقوقها المنسوبة اليها وما فيها من الرقيق والغلات وغير ذلك الى: محمد بن يحيى بن الحسين ابن زيد بن على بن الحسين بن على بن ابى طالب، ومحمد بن عبدالله بن الحسن بن على بن الحسين بن على بن

ابى طالب لتولية امير المؤمنين اياهمها القيام بها لاهلها.

فأعلم ذلك من رأى امير المؤمنين وما الهمه الله من طاعته ووفقه له من التقرب اليه والى رسوله. واعلمه من قبلك.

[صفحه ۵۲]

وعامل محمد بن يحيى ومحمد بن عبدالله بما كنت تعامل به المبارك الطبرى واعنهما على ما فيه عمارتها ومصلحتها ووفور غلاتها ان شاء الله والسلام».

وقد كتب ذلك فى يوم الاربعاء لليلتين خلتا من ذى القعدة سنة ۲۱۰ ه وتصدى ابوبكر للرد على السيدة فاطمة [۷۵] فى موضوع فدك من ناحية الميراث الى حديث انفرد بذكره على مايبدو، هو:

«نحن معاشر الانبياء لا نورث. ما تركناه صدقة».

وقد انفرد ابوبكر كذلك بذكر حديث آخر عندما اختلف المسلمون فى محل دفن النبى فقال: سمعت رسول الله يقول: «ما قبض نبى الا ودفن حيث قبض» فى حين ان التاريخ على ما يذكر الطبرى يخبرنا ان الكثيرين من انبياء بنى اسرائيل قد دفنوا فى غير الاماكن التى قبضوا فيها.

وقد استغربت السيدة من ذلك اشد الاستغراب، وكانت هى دون شك اولى من غيرها بسماعه، لانه يخصها اكثر مما يخص ابى بكر.

كما ان عليا لم يسمعه كذلك بدليل ان فاطمة لم تخرج الى ابى بكر مطالبة بميراثها من فدك الا بعلم منه واذن منه كذلك.

ولاندرى لماذا همس الرسول بهذا الحديث الى ابى بكر دون سائر المسلمين.

وقبل ان يصبح ابوبكر طرفا فى النزاع على هذا الميراث الذى يتصل بفاطمة وبنيها اشد الاتصال؟.

ومما يضعف هذا الحديث بنظر فاطمة انه يتنافى هو وكثير من الآيات القرآنية الصريحة فى هذا الباب.

[صفحه ۵۳]

فقد جاء فى ذكر الميراث بشكل مطلق دون ان يستثنى الانبياء من ذلك قوله تعالى فى سورة النساء: «يوصيكم الله فى اولادكم للذكر مثل حظ الانثيين» [۷۶].

وجاء فى ذكر الميراث الذى وقع بالفعل للانبياء الذين سبقوا محمدا قوله تعالى فى سورة النمل: «وورث سليمان دواد وقال يا ايها الناس علمنا منطق الطير واوتينا من كل شىء ان هذا لهو الفضل المبين» [۷۷].

وخاطب زكريا ربه فى سورة مريم «قال رب انى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم اكن بدعائك رب شقيا، وانى خفت الموالى من ورائى وكانت امرائتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا، يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا [۷۸]».

لقد اشارت السيدة فاطمة الى ذلك كله فى مناقشتها لابى بكر بمحضر جماعة من الصحابة، ثم ختمت محاورتها مع الخليفة قائلة:

«فدونكها مخطومة مرحولة، تلقاك يوم حشرك ... فنعم الحكم الله ... والموعد القيامة، وعند الساعة يخسر المبطلون...

يابن ابى قحافة افى كتاب الله ان ترث اباك ولا ارث ابى؟ لقد جئت شيئا فريا، افعلى عمد تركتم كتاب الله ونبذتموه وراء اظهركم؟

الم تسمع قوله تعالى: «واولوا الارحام بعضهم اولى ببعض فى كتاب الله؟

اخصكم الله بآية اخرج ابى منها؟ ام تقولون: اهلى ملتين لا يتوارثان؟ اولست انا وابى من اهلى ملة واحدة؟ ام انتم اعلم بخصوص القرآن وعمومه من ابى وابن عمى؟».

ولما رأت السيدة فاطمة ان الخليفة مصر على رأيه تركت الامر واعرضت عنه. ويلوح للباحث ان السيدة فاطمة كانت عارفة منذ البداية ان الخليفة سوف

[صفحه ۵۴]

لا يعيد لها فدك، وانها ذهبت اليه لالقاء الحجة عليه، ولعل ذلك راجع الى انها لم تعرف من حيث الاساس بشرعية خلافته، فالشخص

الذى له القدرة والجرأة على سلب الخلافة من صاحبها الشرعى بنظرها لهو اقدر على سلب فدك وامثالها!؟

واذا امعن الباحث فى الحديث الذى ذكره ابوبكر فى ضوء سيرة الرسول بصورة عامة امكنه ان يقول:

ان الرسول لم يستثن نفسه من الخضوع للقواعد العامة التى جاء بها الاسلام.

فما عرف عنه انه قال: «نحن معاشر الانبياء لا نصلى او لا نصوم.. الخ» فكيف يعزل عن ميراث فدك وحده!

فهل لقضية فدك جانب سياسى؟

هل قصد بذلك اخضاع السيدة فاطمة وزوجها لاوامر الخليفة لارغامها على الاعتراف بخلافته التى قابلاها بالصدود والامتعاض؟

وهل لهذا الموضوع جانب اقتصادى؟ هل قصد بذلك حرمان على من التمتع بواردات فدك وهى مورده الوحيد، لكيلا يصبح مكتفيا من الناحية الاقتصادية وليصرفه ذلك عن المطالبة بالخلافة؟

هل لموضوع فدك جانب مالى يتصل بوضع الدولة الاسلامية آنذاك وحاجتها الى المال لمواجهة الذين اتهموا بالارتداد عن دفع الزكاة؟

هل لقضية فدك جانب معنوى يتعلق بمحاولة تضعيف موقف آل النبى عند عامة المسلمين؟ فيقال: ان النبى قد حرمهم كل شىء حتى ميراثه من فدك؟ فتضعف حجتهم بالمطالبة بالخلافة؟ هل لموضوع فدك اكثر من عامل واحد؟ ثم لماذا وضع الرسول ان صح الحديث الذى استشهد به الخليفة صيغته بهذا الشكل من الاطلاق بحيث جعله يشمل معاشر الانبياء كافة؟ ما الهدف الذى كان يرمى اليه الرسول من هذا الحديث!

هل كان يخشى ان تتصرف السيدة فاطمة بعوائد فدك فى غير اوجهها السليمة! واذا كان الامر كذلك فلماذا وضعها تحت تصرفها فى حياته!!

[صفحه ۵۵]

ويجمل بنا قبل ان نتصدى لبحث فدك من ناحية النحلة ان ننبه القارىء الى اننا عثرنا على نقاش رائع من حيث الفكرة والاسلوب حصل بين قاضى القضاة والشريف المرتضى ذكره ابن ابى الحديد [۷۹] الاول: ينفى ان يورث الانبياء، والثانى: يثبته.

يدلل الاول على رأيه بأن ما ورد فى القرآن لا يتضمن الا وراثة العلم والفضل.

ويبرهن الثانى على ان الارث يتضمن المال والعقار او لا، ومن ثم العلم والفضل من باب التجوز؛ وان كلمة ميراث فى اللغة، وما يتصل بها من المشتقات تعنى بميراث الامور المعنوية من باب التجوز والاتساع، وان الدلالة اذا دلت فى بعض الالفاظ على معنى المجاز فلا يجب ان يقتصر عليه، بل يجب ان نحمل معناها على الحقيقة التى هى الاصل اذا لم يمنع من ذلك مانع. واذا فرضنا جدلا ان الميراث يقتصر على العلم والفضل، الا يكون آل النبى، بحكم ذلك الميراث، اولى من غيرهم بالخلافة!

ذلك ما يتصل بموضوع فدك من ناحية الميراث.

اما ما يتصل به من ناحية النحلة فقد ذكرت السيدة فاطمة لابى بكر.

ان رسول الله قد وهبها فدك. فطلب الخليفة منها البينة على ذلك، فقدمت له عليا، وام ايمن مربية الرسول فلم يلتفت الى ذلك وبدا كالمتشكك فى شهادة سيدة، قمين بأبى بكر ان يسمو بها عن التشكك [۸۰].

فليس من المتوقع ان تكذب السيدة فاطمة على ابيها بعد موته بعشرة ايام فقط، وفى مسألة تافهة كفدك، او ان تكذب ام ايمن العجوز الجليلة التى رافقت الرسول من المهد الى اللحد ام ايمن التى خرجت مهاجرة الى رسول الله من مكة الى المدينة، وهى ماشية وليس معها زاد ام ايمن زوج زيد بن حارثة مولى النبى وام اسامة بن زيد!! او ان يكذب ابن ابى طالب!!

[صفحه ۵۶]

ولاندرى كيف فات ابا بكر ان يتذكر ان الله قد انزل قرآنا فى على وفاطمة واذهب عنهما الرجس [۸۱].

وقد كان المتوقع ان يكتفى الخليفة برواية فاطمة وحدها كما اكتفى ابوها قبل ذلك حين نازعه اعرابى فى ناقة ادعى كل منهما انها ناقته.

فشهد خزيمة بن ثابت للرسول فأجاز شهادته وجعلها شهادتين فسمى ذا الشهادتين، ولكن موضوع السيدة فاطمة مع هذا لا يحتاج الى شهود ذلك لانها روت رواية عن ابيها، كما روى ابوبكر رواية اخرى.

وان السيدة فاطمة لم تطلب منه البينة على ما ادعاه على الرغم من شكها فى صحته اما الشهود فموقعهم فى الدعوى.

استمع الى قوله تعالى فى سورة البقرة: «يا ايها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى اجل مسمى فاكتبوه ... واستشهدوا شهيدين من رجالكم، فان لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان» [۸۲].

والحجة التى نستند اليها فى اهمية شهادة فاطمة ان موقفها عند الرسول من حيث صدقها لا يقل، على اسوأ الفروض، عن موقع خزيمة بن ثابت.

ويصدق الشيء نفسه على ام ايمن، وابن ابى طالب الذى لم يعرف عنه قط الا اتباع الحق وقول الصدق.

فموقف ابى بكر غريب فى بابه: واغرب منه انه ترك سيف رسول الله، ونعله، وعمامته، فى يد على على سبيل النحلة بغير بينة ظهرت ولا شهادة قامت.

كما انه لم ينتزع من على الخاتم والسيف اللذين وهبهما له النبى اثناء مرضه.

ولم يطالب كذلك بثياب الرسول التى مات فيها فأخذتها فاطمة بعد موته. ولا بحجر رسول الله التى بقيت بيد نسائه.

[صفحه ۵۷]

ولم يطلب ابوبكر من جابر على رواية البخارى [۸۳] البينة على دعواه حين زعم ان رسول الله وعده باعطائه مقدارا معينا من المال، بل سلمه اياه عندما ورده مال من قبل العلاء بن الحضرمى.

كما ان ابا بكر ايضا ام يطلب البينة عندما قدم عليه مال من البحرين من ابى بشير المازنى حين ادعى ان النبى قال له اذا جاءنا شيء فائتنا، وانما دفع له حفنتين او ثلاثا من ذلك المال.

واذا كان النبى لايورث، وما تركه صدقة، فكيف يجوز ان يوارى جثمانه فى الحجرة التى كانت تسكنها زوجته عائشة بنت الخليفة؟ لان تلك الحجرة قد اصبحت صدقة بعد وفاة الرسول مباشرة بحكم ذلك الحديث».

ثم كيف نوفق بين ذلك الحديث وبين الحديث الآخر الذى انفرد بذكره ابوبكر القائل بأن الانبياء يدفنون حيث يقبضون؟ افى الحديث ناسخ ومنسوخ؟

ثم كيف نفذ الخليفة محتويات «الحديثين» على تناقضهما؟

وبقدر ما يتعلق الامر بالحديث الثانى يمكننا ان نقول: ان النبى يموت فى احد موضعين: ما كان يملكه قبل وفاته! وما كان يملكه غيره من الناس.

ولايجوز ان يدفن جثمانه فى المحل الاول لانه اصبح صدقة على رواية ابى بكر عن النبى، كما لا يجوز دفنه فى المحل الثانى لان ملكيته عائدة لغيره.

كيف السبيل الى الخروج من هذا المأزق الحرج؟

ثم كيف جاز لابى بكر نفسه ان يطلب بدفن جثمانه قرب النبى؟ فى ارض لاحق له بها من الناحية الشرعية؟.

واذا كان دفن جثمان النبى على الشكل الذى ذكرناه مستندا الى الحديث الذى ذكره ابوبكر، فالى اى حديث يستند ابوبكر فى طلب دفنه بجوار النبى؟

هل قال النبى: يدفن الخليفة الاول قريبا منى؟

[صفحه ۵۸]

كل ذلك غريب فى بابه، واغرب منه ان كثيرا من المفسرين قد تكلفوا فيما بعد تفسير آيات الميراث، فزعموا للرد على من طعن بصحة الحديث بأن الوراثة المذكور فى القرآن مقصورة على العلم والفضل، دون سائر الامور.

ولسنا نعلم كيف يورث العلم والفضل، وهو امر يخالف ما الفه الناس من قديم الزمان، ويتعارض مه ابسط مبادىء علم النفس وعلم الاجتماع؟

واغرب من ذلك كله ان الخليفة يحرم السيدة فاطمة ميراث فدك ليطبق الحديث الذى انفرد بذكره فى الوقت الذى يخالف فيه حديثا آخر اجمع الرواة على صحته باعتراف ابى بكر نفسه:

«فاطمة بضعة منى، من آذاها فقد آذانى، ومن آذانى فقد آذى الله» [۸۴].

ولاندرى، بالاضافة الى كل ماذكرنا. كيف فات ابا بكر ان يتذكر موقف الرسول من ابى العاص بن الربيع زوج زينب بنت خديجة زوج النبى حين اسر فى بدر مع المشركين.

والى القارىء تلك القصة على ماروواها ابن الاثير [۸۵].

«وكان فى الاسارى ابوالعاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبدشمس زوج زينب بنت خديجة [۸۶].

[صفحه ۵۹]

فما بعثت قريش فى فداء الاسارى بعثت زينب بفداء ابى العاص زوجها بقلادة لها كانت خديجة ادخلتها معها، فلما رآها رسول الله رق لها رقة شديدة، وقال:

ان رأيتم ان تطلقوا اسيرها وتردوا عليها الذى لها فافعلوا، فأطلقوا لها اسيرها وردوا القلادة...

فلما كان قبل الفتح خرج ابوالعاص تاجرا الى الشام بأمواله واموال رجال قريش.

فلما عاد لقيته سرية لرسول الله فأخذوا ما معه وهرب منهم، فما كان الليل اتى الى المدينة فدخل على زينب.

فلما كان الصبح خرج رسول الله الى الصلاة فنادت زينب من صفة النساء:

«ايها الناس انى قد اجرت ابا العاص.. فقال رسول الله: ان رأيتم ان تردوا عليه الذى له فانا نحب ذلك، واذا ابيتم فهو فى الله الذى افاء عليكم وانتم احق به.

قالوا: يا رسول الله نرده عليه، فردوا ماله كله حتى الشظاظ» [۸۷].

نقول: الم يكن باستطاعة ابى بكر فى حالة التسليم معه بأن السيدة فاطمة لا ترث ابيها، وان النبى لم يهب فدكا لها ان يتخذ موقفا كهذا الذى اشرنا اليه؟ مع وجود الفارق الكبير بين الحالتين، فقد وهب المسلمون حقهم لابى العاص المشرك، وكانوا دون شك على استعداد تام لوهب حقوقهم فى حالة التسليم بصحة الاجراءات التى اتخذها الخليفة الى ابنة الرسول. الم يكن تصرف الرسول مع ابى العاص فى الحالتين سنة! فهل يعتبر ترك ابى بكر لها فى هذه الحالة منسجما مع السنة!!

[صفحه ۶۰]

عمر بن الخطاب

اما والله لقد تقمصها ابن [۸۸] ابى قحافة، وانه ليعلم ان محلى منها محل القطب من الرحى.. فسدلت دونها ثوباً.. حتى اذا مضى الاول لسبيله فأدلى بها الى ابن الخطاب بعده.. فصبرت على طول المدة وشدة المحنة.. فواعجبا بينما هو يستقيلها فى حياته اذ عقدها لآخر بعد وفاته، لشد ما تشطرا ضرعيها».

وهكذا كان: انتقلت الخلافة التى تسلمها ابوبكر، بجهود عمر كما ذكرنا فى حديث السقيفة، الى عمر نفسه بعد وفاة صاحبه، وقبل ان

يوصى ابوبكر بالخلافة من بعده لعمر، استدعى قبل وفاته عبدالرحمن بن عوف، وعثمان بن عفان، لاستشارتهما فى موضوع تخليفه عمر بن الخطاب، فسألهما رأيهما فى عمر، فكان جواب الاول:

ان عمر «افضل من رأيك فيه» [۸۹] مع العلم ان عمر كان يحتل المركز الاول

[صفحه ۶۱]

عند ابى بكر، فكيف به اذا كان احسن من رأى ابى بكر فيه!!؟

وكان جواب الثانى «ان سريرته خير من علانيته، وان ليس فينا مثله» [۹۰].

ولاندرى فيما اذا كان الرجلان يؤمنان حقا بما قالاه، ام انهما عرفا اتجاه الخليفة فجاملاه!!؟

وعلى اى حال فقد امر ابوبكر عثمان ان يكتب عهده لعمر كما هو معروف.

ويذكر المؤرخون: ان ابا بكر عندما كان يملى عهده لابن الخطاب على عثمان اغمى عليه قبل ان يذكر اسم ابن الخطاب.

وان عثمان وضعه من نفسه مستدلا على ذلك من الاتجاه العام لمجرى الامور.

فلما افاق ابوبكر: قرأ العهد عثمان عليه، فأقره واستحسنه ولسنا نعلم كيف اجاز عثمان لنفسه ذلك؟ اينسجم ذلك العمل مع اوليات مبدأ الامانة؟

ولو فرضنا ان ابا بكر قد توفى اثناء تلك الاغماءة، فهل يجوز اعتبار العهد سليما من الناحية الشرعية؟

ولا ندرى لماذا استشار ابوبكر عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان دون سائر الصحابة، ولماذا فكر ابوبكر فى امر الخلافة بعده، من الناحية المبدئية العامة بغض النظر عن تولية عمر بالذات فى حين ان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم من وجهة نظر ابى بكر، لم يفكر فى هذا الامر؟

واذا كانت مصلحة المسلمين تستلزم ذلك، فهل يكون ابوبكر احرص من النبى صلى الله عليه وسلم عليها، واذا كان ترك الرسول امر الخلافة من بعده للمسلمين انفسهم حسب وجهة نظر بعض المسلمين سنة، فهل ايصاء ابى بكر لعمر يتفق مع السنة؟

ثم لماذا سأل ابوبكر: عبدالرحمن وعثمان عن رأيهما فى عمر بالذات دون سواه من المسلمين! والشىء الذى لا يرقى اليه الشك هو:

[صفحه ۶۲]

«ان ابا بكر رأى لعمر عليه حقا حين استخلفه.. ولكن الاسلوب الذى انتهجه عند الاختيار كان اسلوبا يستطاع وسمه بالهنات والاخطاء! فان الشيخ لم يتناول الامر بالصراحة الواجبة، بل بدأ كأنه اضمر التثبيت، وشاء تدبيره على غير علم من آل بيت الرسول، ووقع بهذا فى الخطأ الذى وقع فيه عمر من قبل عند وفاة الرسول..

اسقط ابوبكر من حسابه: عليا، الذى كان اولى بالرعاية وبالحساب من سواه» [۹۱].

ومما يلفت النظر فى الامر حقاً، كما سلف ان ذكرنا، ان ابا بكر الذى كان يذهب مذهب القائلين بأن النبى ترك امر الخلافة من بعده للمسلمين قد اوصى بالخلافة من بعده لعمر!؟.

«حتى اذا مضى الثانى لسبيله جعلها فى جماعة زعم انى احدهم.. فيا لله وللشورى متى اعترض الريب فىّ مع الاول منهم حتى صرت اقرن الى هذه النظائر!!» [۹۲].

قال عمر بن ميمون الاسدى، على ما يذكر ابن الاثير [۹۳]:

«لما طعن عمر بن الخطاب [۹۴] قيل له: يا امير المؤمنين لو استخلفت؟ فقال:

[صفحه ۶۳]

من استخلف؟ لو كان ابوعبيدة حيا لاستخلفته وقلت لربى ان سألنى سمعت نبيك يقول: انه امين هذه الامة.

ولو كان سالم مولى حذيفة حيا لاستخلفته وقلت لربى ان سألنى سمعت نبيك يقول: «ان سالما شديد الحب لله».

وعندى لو ان ابا عبيدة كان حيا لاستخلفه عمر، لا لكونه امين هذه الامة على حد تعبير ابن الخطاب ولكن لانه كان ثالث: اصحاب السقيفة، ولتأخر بذلك استخلاف عثمان بن عفان، ولاصبح الخلفاء الراشدون خمسة فى حالة وصول الخلافة لعلى، وجريان الاحداث فى عهد عثمان الخليفة الرابع على الشكل الذى جرت عليه فى عهده وهو: الخليفة الثالث.

ولاندرى ما الذى حال بين عمر وبين دفع الخلافة الى ابى عبيدة بعد وفاة الرسول مادام قد سمع قول النبى الآنف الذكر!! وان يقترح على الانصار فى السقيفة ان يحولوا الخلافة الى ابن الجراح، او الى سالم!! او ان يقول لابى بكر آنذاك حين طلب من الانصار ان يبايعوا عمراً وابا عبيدة اننا نبايع ابا عبيدة او سالما، لان الرسول قال فيهما: كذا وكذا!!

ولماذا بايع ابن الخطاب ابا بكر بالخلافة دون ان يقول فيه الرسول ماقاله فى ابى عبيدة او فى سالم؟؟. ولماذا لم يقترح عمر على ابى بكر ان يسلم الخلافة من بعده الى ابى عبيدة بدلا من عمر نفسه؟ [۹۵].

[صفحه ۶۴]

واذا كانت شروط الخلافة لاتخرج عن توافر حب الشخص لله او كونه امين هذه الامة بشهادة الرسول فعلى بن ابى طالب اولى من غيره؛ فكيف غاب عن ذهن عمر قول رسول الله يوم خيبر على ما ذكره الامام مسلم فى صحيحه [۹۶].

«لاعطين هذه الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله» الى آخر الحديث وتسليمه الراية لعلى؟

ومهما يكن من شىء فقد استدعى عمر بن الخطاب قبيل وفاته على بن ابى طالب وعثمان بن عفان وسعد بن ابى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، والزبير بن العوام وقال لهم: «اذا مت تشاوروا ثلاثة ايام، وليصل بالناس صهيب، ولا يأتين اليوم الرابع الا وعليكم امير منكم، وليحضر عبدالله بن عمر مشيرا.. وطلحة بن عبيد الله [۹۷] شريككم فى الامر. فان قدم الثلاثة فاحضروه امركم.

وقال لابى طلحة الانصارى: اختر خمسين رجلا من الانصار فاستحث هؤلاء الرهط حتى يختاروا رجلا منهم.

وقال للمقداد بن الاسود: اذا وضعتمونى فى حفرتى [۹۸] فاجمع هؤلاء الرهط فى بيت حتى يختاروا رجلا منهم.. فان اجتمع خمسة وابى واحد فاشرخ رأسه بالسيف.

وان اتفق اربعة وابى اثنان فاضرب رؤوسهما.

وان رضى ثلاثة رجلا وثلاثة رجلا، فحكموا عبدالله بن عمر، فان لم يرضوا فكونوا مع الذين فيهم عبدالرحمن بن عوف [۹۹].

واقتلوا الباقين ان رغبوا عما اجتمع عليه الناس

فلما مات عمر واخرجت جنازته صلى عليه صهيب، فلما دفن جمع المقداد اصحاب

[صفحه ۶۵]

الشورى ... وطلحة غائب ... فقال عبدالرحمن:

ايكم يخرج منها نفسه.. على ان يوليها افضلكم؟ فلم يجبه احد، فقال:

فأنا انخلع منها، فقال عثمان: انا اول من رضى، وقال القوم: قد رضينا، وعلى ساكت، فقال:

ما تقول يا ابا الحسن؟ قال:

اعطنى موثقا لتؤثرن الحق، ولاتتبع الهوى، ولاتخص ذا رحم، ولاتألوا الامة نصحا» [۱۰۰] فأعطاه الموثق المطلوب [۱۰۱].

وبعد نقاش طويل بين الحاضرين نظر ابن عوف الى على بن ابى طالب وقال: «ابايعك على كتاب الله وسنة رسوله وسيرة الشيخين ابى بكر وعمر، فقال على:

بل على كتاب الله وسنة رسوله واجتهاد رأيى:

فعدل عنه الى عثمان، فعرض عليه ذلك، فقال: نعم، فعاد على على.، فأعاد قوله ... فعل ذلك عبدالرحمن ثلاثا.

فلما رأى عليا غير راجع عما قاله، وان عثمان ينعم بالاجابة صفق على يد عثمان وقال: السلام عليك يا امير المؤمنين.. ويقال:

ان عليا قال: والله ما فعلتها الا لانك رجوت منه ما رجا صاحبكما من صاحبه» [۱۰۲].

[صفحه ۶۶]

فهل فعل ذلك عبدالرحمن عفوا ام انه امر مبيت قبل الاجتماع؟!

اليس القصد من وضعه شرط اتباع سيرة الشيخين يتضمن سلما اخراج على من الموضوع. على ان موضوع الشورى مع هذا يحتاج الى مناقشة وتدقيق.

وقبل ان نتصدى لمناقشته يجمل بنا ان نشير الى الامرين التاليين:

۱ ذكر الطبرى [۱۰۳] رواية تتعلق بتصريح لعمر بن الخطاب اثناء انشغاله فى قضية الشورى فحواه: ان عمر لما طعن ورفض امر الاستخلاف، وندم على وفاة ابى عبيدة وسالم، كما ذكرنا.

قال لبعض عائديه من الصحابة وفيهم على قبل تعيين رهط الشورى «انى كنت قد اجمعت قبل مقالتى لكم ان انظر فأولى رجلا امركم هو احراكم ان يحملكم على الحق واشار الى على.

ورهقتنى غشية فرأيت رجلا دخل جنة ثم غرسها. فجعل يقطف كل غضة ويانعة فيضمه اليه، ويصيره تحته. فعلمت ان الله غالب على امره، ومتوف عمر، فما اريد ان اتحملها حيا وميتا.

عليكم هؤلاء الرهط الذين قال رسول الله: انهم من اهل الجنة:

سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل منهم، ولست مدخله.. وما اظن ان يلى الامر الا احد هذين الرجلين: على وعثمان، فان ولى عثمان فرجل فيه لين.

وان ولى على ففيه دعابة واحرى به ان يحملهم على طريق الحق»

۲ وكتب مؤرخ آخر [۱۰۴] ان عمر كان قد استدعى قبل ان يبت فى امر الشورى كلا من الزبير وطلحة قبل سفره من المدينة وسعد وعبدالرحمن

[صفحه ۶۷]

وعلى وعثمان، وقال:

«ما انت يا زبير ...! يوما انسان ويوما شيطان.

وما انت ياطلحة! فقد مات رسول الله ساخطا عليك بالكلمة التى قلتها يوم انزلت آية الحجاب وفى رواية اخرى:

«الست القائل: ان قبض محمد انكح ازواجه من بعده، فما جعل الله محمداً احق ببنات اعمامنا منا! فأنزل الله فيك قوله:

«وما كان لكم ان تؤذوا رسول الله ولا ان تنكحوا ازواجه من بعده ابداً» [۱۰۵].

قال شيخنا ابوعثمان الجاحظ: لو قال لعمر قائل: انت قلت: ان رسول الله مات وهو راض عن الستة فكيف تقول لطلحة: انه مات ساخط عليك للكلمة التى قلتها، لكان قد رماه بمشاقصة..

ثم اقبل عمر على سعد فقال: اما انت فصاحب مقنب من هذه المقانب تقاتل به وصاحب قنص وقوس، ومازهرة والخلافة، وامور الناس! ثم اقبل على عبدالرحمن فقال. ليس يصلح هذا الامر لمن فيه ضعف كضعفك وما «زهرة» وهذه الامرة!

ثم اقبل على على فقال: لله انت لولا دعابة فيك!

اما والله لئن وليتهم لتحملنهم على الحق الواضح.

ثم اقبل على عثمان فقال: هيا اليك كأنى بك قد قلدتك قريش هذا الامر فحملت بنى امية وبنى ابى معيط على رقاب الناس وآثرتهم بالفىء».

واذا امعنا النظر فى قضية الشورى، على الشكل الذى ذكرناه، اتضح لنا ان عمر قد حددها تحديدا دقيقا وبين رأيه فيها فجعلها شورى

مشروطة لا مطلقة.

واول ما يتبادر الى ذهن المرء فى هـذا الاشتراط هو رغبـة عمر فى حصول الاجماع بين رجال الشورى. وهو امر دون شك على جانب كبير من الوجاهة

[صفحه ۶۸]

من الناحية المبدئية، غير ان عمر قد قيد الشـرط ايضا اى انه جعل الشـرط نفسه مشـروطا، ان جاز هذا التعبير فأمر المشـرف على شـئون الشورى ان يشـرخ رأس من يخـالف الاكثريـة، ورؤوس المخالفين فى حالـة انقسام المؤتمرين فيما بينهم الى نصـفين للرأى المخالف للنصف الذى فيه عبدالرحمن ابوعوف.

ولسنا نعرف السر الذى دفع عمر الى ايثار ابن عوف بذلك سوى علاقات شخصية بين الرجلين ذكر الطبرى [۱۰۶] طرفا منها!!

ولم يعر ابن الخطاب على مايبـدو ايـة اهمية للأسـس التى يسـتند اليها من يخالف رأى اكثرية المجتمعين، او رأى النصف الذى ينحاز اليه ابن عوف.

وهل يجيز القرآن او سنة الرسول ضرب اعناق رجال من المسلمين لمجرد انهم يجتهدون برأى يخالف الرهط الذى فيه عبدالرحمن بن عوف.

فكيف وهؤلاء المسـلمين من خيرة اصـحاب النبى بشـهادة عمر نفسه؟ فقـد اسـتباح ابن الخطاب دماءهم بعـد ثلاثـة ايام فقط من بـدء التداول فى امر الشورى الذى يتوقف عليه مصير المسلمين.

ثم الم يكن تفكير عمر فى امر خلافـة المسـلمين من بعـده، كما فعل ابوبكر، يخالف سـنة الرسول الـذى مات من وجهـة نظر عمر ولم يوص بالخلافة لاحد من بعده؟

ثم الا يجوز لنا ان نسأل عن حق هؤلاء الرهط فى تقرير مصير الخلافة دون سائر المسلمين؟ واذا كان مجرد رضا النبى عنهم، اذا فرضنا صحة ذلك، مع العلم ان بعض المؤرخين كما سـلف ان ذكرنا قد اشار الى غضب الرسول على طلحة كافيا لترشيحهم للشورى، فلماذا لم يدخل عمر آخرين ممن كان الرسول راضيا عنهم من المهاجرين والانصار؟

[صفحه ۶۹]

واذا كان سعيد بن عمرو بن نفيل حائزا على شروط الشورى، باعتراف عمر نفسه كما ذكرنا فماذا استثناه عمر وحرمه من المساهمة فى هذا الامر العظيم؟ وحرم رجال الشورى من رأيه؟

ومن الغريب ان يصف عمر عليا بالدعابـة، ولم نسـمع احـدا غير عمر وصـفه بـذلك فقـد كان على معروفا بالزكانـة والبعـد عن المزاح والدعابة.

هذا معلوم ضرورة لمن سمع اخباره.. وقد روى عن ابن عباس انه قال:

كان امير المؤمنين اذا اتى هبنا ان نبدأه بالكلام.

وهـذا لا يكون الا من شدة التزمت والتوقر، وما يخالف الدعابة والفكاهة [۱۰۷] ثم الا يوجد تفاوت كبير بين رجال الشورى من حيث موقعهم من الرسول واثرهم فى الاسلام. فلماذا اعتبرهم عمر على درجة واحدة من الاثر فى هذا الباب.

ثم اليست هناك روابط عائلية ومصلحية بين رجال الشورى.

الا تؤثر تلك الروابط على سلامة الاختيار.

الم يقل عمر للزبير: انك يوما شيطان ويوما انسان ... ولطلحة:

ما انزله الله فيه من قرآن. ولسعد «... فمن ذا يستطيع ان يقول: ان عمر لم يحدد موقفه من الشورى غاية التحديد.

ولم يقطع على على بالتلميح او التصريح الطرق الى ولاية الناس...

لقد الب عمر على على احقاد قريش. فمن لعلى برضى تيم وقد نافس شيخها ابا بكر

وهذا طلحة التميمى!، ومن له بمحو الاحقاد الاموية من بنى هاشم.

وهـذا عثمان! وقـد ضـمت الشورى ايضا سـعد بن ابى وقاص، وعبدالرحمن بن عوف، وكلا الرجلين من زهرة ولكليهما نسب موصول ببنى اميۀ.

اتى الاول من ناحيۀ امه حمنۀ بنت سفيان.

[صفحه ۷۰]

واتى الثانى من ناحيۀ زوجه ام كلثوم بنت عقبۀ اخت عثمان [۱۰۸].

ولنعد ثانيۀ الى نص عبارۀ ابن الخطاب لرجل الشورى.

اليست صيغتها توحى بترشيح عمر عثمان لولايۀ المسلمين.

وهل الدعابـۀ المزعومـۀ فى على على فرض وجودها جـدلا عامل حاسم فى ابعاد على عن الخلافـۀ على الرغم من انه يحملهم بشـهادۀ عمر نفسه، على الحق الواضح.

ثم اذا كـان عمر على مـايروى الطبرى قـد ارتأى ان يولى امور المسـلمين رجلا هو احراهم ان يحملهم على الحق واشار الى على فماذا اقلع عن ذلك لالشىء وجيه سوى طيف الم به على ما ذكر هو حسب روايۀ الطبرى.

والخلاصـۀ «ان قصـۀ الشورى جـديرۀ بأن يتلكأ عنـدها برهـۀ ذهن المتـدبر، لان فيها ... خروجا على مبـدأ الشورى.. وتحكم الفرد فى الجماعۀ ... وفى نفر اختاره وفق تقديره ان لم يكن وفق هواه...

وفيها تعسف التسويۀ بين ستۀ تجاهر المزايا والفوارق بأنهم ليسوا سواء ... وفيها تكتل القوى العصبيۀ» [۱۰۹].

ذلك ما يتصل بأمر الشورى بشكل عام.

اما ما يتصل بتفاصـيل اجتماع رجالها بعـد وفاۀ الخليفـۀ، فان اول شـىء «مكر به عبدالرحمن انه ابتدأ فأخرج نفسه من الامر ليتمكن من صرفه الى من يريد ليقال: انه لولا ايثاره للحق، وزهده فى الولايۀ، لما اخرج نفسه منها» [۱۱۰].

ولاندرى فيما اذا كان تصرف ابن عوف قد حصل عفوا، ومن وحى الساعۀ ام انه امر متفق عليه قبل وفاۀ الخليفۀ!

[صفحه ۷۱]

ثم ان عبـدالرحمن باخراجه نفسه من الموضوع قـد حصل على امتياز خاص جعل امر الخلافـۀ منوطا به، وقد حصل على ذلك الامتياز دون ان يخسر شيئا فى الواقع، ذلك لانه اخرج نفسه من امر الخلافۀ ما زال الى وقت خروجه منه غير مبتوت فيه.

فلماذا اذن وقف ابن عوف موقفه المعروف فخلع نفسه من الخلافۀ وهو امر لا يملكه قبل عمليۀ الشورى وفى حالۀ انتخابه للخلافۀ.

ثم الم تؤثر صلۀ نسبه بعثمان فى موقفه من على.

ولماذا اشترط عبدالرحمن ان يسير على على ما سماه «سيرۀ الشيخين» بالاضافۀ الى القرآن وسنۀ الرسول.

هل سار الشيخان على القرآن وسنۀ النبى وسيرۀ الشيخين. ام على القرآن والسنۀ حسب اجتهاد كل منهما كما اراد على ان يسير.

ثم هل هناك شىء محدد اسمه «سيرۀ الشيخين».

الم يختلف الشـيخان اختلافات كثيرۀ فيما بينهما. وبقـدر ما يتعلق الامر باختلاف سـيرۀ ابى بكر فى الخلافۀ عن سـيرۀ عمر فى كثير من القضايا يمكننا ان نذكر بعض الامثلۀ على سبيل التمثيل لا الحصر.

ويجمل بنا قبل ذلك ان نشـير الى ان عمر نفسه كثيرا ما تختلف سيرته عن سيرۀ النبى فى بعض التصرفات العامۀ من ذلك مثلا طريقته فى تقسيم العطاء بين المسلمين: اذ لابد ان حضرته آنذاك عوامل رجحت لديه رأيه.

ولكن مما لا ريب فيه ان عوامل اخرى اقوى من السالفـۀ قد غابت عنه، وكان اجدى به.. ان يعدل عما حزم عليه امره.. ولكنه رأى رأيا

فالتزمه ... وان رسول الله صاحب خير الآراء كان يسير على نقيضه.

وكذلك نحا نحوه الخاص فلم يجعل الناس سواسية عند التقسيم، فبينما نسمع

[صفحه ۷۲]

الصديق يأبى ان يفضل اهل السابقة الى الاسلام على غيرهم.. اذ بابن الخطاب من بعده يخالفه» [۱۱۱].

«ولعل آفة عمر كانت دفعته تلك التى اوقفته دائما مواقف انكرها من نفسه كلما فاتت آونتها واتسع امامه مجال التفكير...

وقد طالما افتى بالحكم ثم عاد فنقضه اذ يتروى.

وقد طالما دفعته الرغبة فى الاصلاح الى سن الشرعة.. فاذا بها لا تلبث ان تتقوض امام شرعة اعلى جرت على لسان غيره» [۱۱۲].

وطالما عمل عملا بالاستناد الى قناعته الشخصية ثم عاد فأقلع عنه اذا تغيرت قناعته من ذلك، مثلا:

أ اتاه رجل فقال: «يا امير المؤمنين ان فلانا ظلمنى فأعدنى عليه، فرفع فى السماء درته وضرب رأسه، وقال: تدعون عمر وهو معرض لكم، وحتى اذا شغل بأمر المسلمين اتيتموه: اعدنى!! فانصرف الرجل يتذمر.

فقال عمر: علىّ بالرجل، فجىء به. فألقى اليه المخفقة فقال: اقتص، قال:

بل ادعه لله ولك، قال: ليس كذلك، بل تدعه اما لله وارادة ما عنده، واما تدعه لى، قال: ادعه لله، قال. انصرف.

ثم جاء حتى دخل منزله.. فصلى ركعتين خفيفتين، ثم جلس فقال:

يا ابن الخطاب، كنت وضيعا فرفعك الله، وكنت ضالا فهداك ... ثم حملك على رقاب الناس، فجاء رجل ليستعديك على من ظلمه فضربته، ماذا تقول لربك غدا» [۱۱۳].

[صفحه ۷۳]

ب «استعمل عمر: النعمان بن عدى بن نفيلة على ميسان. فبلغه عنه الشعر الذى قال فيه:

ومن مبلغ الحسناء ان خيلها

بميسان يسقى من زجاج وحنتم

اذا شئت غنتنى دهاقين قرية

وصناجة تحد على كل منسم

فان كنت ندمانى فبالاكبر اسقنى

ولا تسقنى بالاصغر المتثلم

لعل امير المؤمنين يسوؤه

تنادمنا بالجوسق المتهدم

فكتب اليه:

اما بعد.. فقد بلغنى قولك.. وايم الله انه يسوؤنى، فأقدم فقد عزلتك.

فلما قدم عليه قال: يا امير المؤمنين ما شربتها قط، وانما هو شعر طفح على لسانى، وانى لشاعر!

فقال عمر: اظن ذاك، ولكن لاتعمل لى عملا ابداً» [۱۱۴].

ج استعمل عمر رجلا من قريش على عمل، فبلغه عنه انه قال:

اسقنى شربة تروى عظامى

واسق بالله مثلها ابن هشام

فأشخصه اليه، وفطن القرشى فضم اليه بيتا آخر، فلما مثل بين يديه قال:

انت القائل: اسقنى...

قال: نعم يا امير المؤمنين، فهلا ابلغك الواشى ما بعده.

قال: ما الذى بعده؟ قال:

عسلا بارداً بماء غمام

اننى لا احب شرب المدام

فقال: ارجع الى عملك» [۱۱۵].

[صفحه ۷۴]

د سأل عمر احد امراء الشام عن سيرته وما يصنعه بالقرآن والاحكام؟ فأجابه بما يرضيه، فاستحسن ذلك منه واقره على عمله، وامره بالالتحاق به، «فلما ولى رجع فقال: يا امير المؤمنين انى رأيت البارحة رؤيا اقصها عليك.

رأيت الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما جنود من الكواكب؟

فقال: فمع أيهما كنت؟ قال: مع القمر.

فقال عزلتك، لان الله قال: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» [۱۱۶].

ه لما كتب النبى كتاب الصلح فى الحديبية بينه وبين سهيل بن عمرو كان فى الكتاب: ان من خرج من المسلمين الى قريش لا يرد.

ومن يخرج من المشركين الى النبى يرد اليهم، غضب عمر وقال لابى بكر:

ماهذا ...؟ ثم جاء الى النبى فجلس بين يديه ... وقال:

علام نعطى الدنية فى ديننا! فقال رسول الله: افعل ما يأمرنى به ربى...

فقام عمر مغضبا «وقال: والله لو اجد اعوانا لما اعطيت الدنية ابدا» [۱۱۷].

و «خرج عمر بن الخطاب ... وعبدالرحمن بن عوف ليلا يطوفان فى المدينة، فرفع لهما مصباح، فقال عمر: الم انه عن المصابيح بعد النوم؟ فانطلقنا فاذا قوم على شراب لهم، قال: انطلق فقد عرفته، فلما اصبح ارسل اليه. قال:

يا فلان كنت واصحابك البارحة على شراب؟ قال: وما اعلمك يا امير المؤمنين؟ قال:

شىء شهدته: قال او لم ينهك الله عن التجسس؟ فتجاوز عنه» [۱۱۸].

[صفحه ۷۵]

ذلك ما يتعلق باختلاف سيرة عمر نفسه حسب اختلاف وضعه النفسى.

اما ما يتعلق باختلاف سيرته عن الرسول فيمكننا ان نذكر الامثلة التالية، بالاضافة الى طريقته فى تقسيم الغنائم التى مر بنا ذكرها:

۱ «غزا رسول الله خيبر فى سنة سبع، فطاوله اهلها وما كثوه وقتلوا: المسلمين. فحاصرهم رسول الله قريبا من شهر، ثم انهم صالحوه على حقن دمائهم ... ثم قالوا لرسول الله: ان لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فأقرنا، فأقرهم رسول الله وعاملهم على الشطر من الثمر...

فلما كانت خلافة عمر بن الخطاب ... اجلاهم وقسم خيبر بين من كان له فيها سهم من المسلمين» [۱۱۹].

۲ «حدثنا عمر الناقد، حدثنا يزيد بن هارون، اخبرنا يحيى بن سعيد عن بشير ابن يسار: ان النبى ... دفع خيبر الى اليهود يعملونها على نصف [ما] خرج منها، فلم يزل على ذلك حياة رسول الله، وابى بكر.

فلما كان عمر وكثر المال فى ايدى المسلمين وقووا على عمارة الارض اجلى اليهود الى الشام وقسم الاموال بين المسلمين» [۱۲۰].

۳ «اتى رسول الله وادى القرى، فدعى اهلها الى الاسلام، فامتنعوا عن ذلك وقاتلوا، ففتحها رسول الله عنوة.. وترك النخيل والارض فى ايدى اليهود، وعاملهم على نحو ما عامل عليه اهل خيبر، فقيل:

ان عمر اجلى يهودها وقسمها بين من قاتل عليها» [۱۲۱].

واما ما يتعلق باختلاف سيرة عمر عن سيرة ابى بكر فنذكر منها، بالاضافة الى ما ذكرناه، الحوادث التالية:

[صفحه ۷۶]

أ «جاء عيينة بن حصين والاقرع بن حابس الى ابى بكر فقال:

يا خليفة رسول الله ان عندنا ارضا سبخة ليس فيها كلأ ولامنفعة، فان رأيت ان تقطعناها لعلنا نحرثها ونزرعها، ولعل الله ان ينفع بها بعد اليوم؟

فقال ابوبكر لمن حوله من المسلمين: ما ترون؟ قالوا:

لا بأس، فكتب لهما كتابا، واشهد فيه شهودا، ولم يكن عمر حاضرا...

فلما سمع عمر ما فى الكتاب اخذه منهما ... فمحاه، فتذمرا.. فقال:

ان رسول الله كان يتألفكما والاسلام يومئذ ذليل ... وان الله قد اعز الاسلام فاذهبا ... فذهبا الى ابى بكر يتذمران.

وجاء عمر وهو مغضب، حتى وقف على ابى بكر فقال:

اخبرنى عن هذه الارض التى اقطعتها هذين، اهى لك خالصة، ام بين المسلمين عامة؟ قال: بين المسلمين عامة، قال: من حملك على ان تخص بها هذين دون جماعة المسلمين؟ قال: استشرت الذين حولى، فأشاروا بذلك؟

فقال: افكل المسلمين اوسعهم مشورة ورضا؟» [۱۲۲].

ب ذكر بعض الرواة فى حديث فدك:

ان ابا بكر حينما قابلته السيدة فاطمة وذكرت له ان فدك لها نحلة من الرسول، اقتنع بذلك بعد تردد، فكتب لها كتابا بذلك، غير ان عمر على ما يذكر اولئك الرواة قد صادفها فى الطريق عائدة الى دارها من عند ابى بكر، فذكرت له الكتاب، فطلبه منها ومزقه، ولام ابا بكر على ذلك؟

ج ويبدو اختلاف السيرتين واضحا فى قضية خالد بن الوليد مع مالك ابن نويرة، وهى قضية مهمة؛ ونرى وجوب ذكرها بشىء من التفصيل. فقد ارتكب خالد على ما نرى سلسلة من الاخطاء الاجتماعية والدينية فى هذه القضية:

[صفحه ۷۷]

فقد سار الى مالك وصحبه دون امر من الخليفة، وقاتلهم دون ان يكون هناك مبرر للقتال من الناحية الدينية، وامر بقتل مالك بشكل من الغدر لا يجيزه الاسلام.

ونكح زوج مالك بشكل يتنافى هو والعفة والشرف وكبر النفس ... فاستحق بذلك اكثر من عقوبة، غير ان ابا بكر عفا عنه فامتعض عمر من ذلك وعزله اثناء خلافته والى القارىء ملخص القصة المذكورة:

ذكر ابن الاثير [۱۲۳]: «سار خالد بعد ان فرغ من فزارة، واسد، وطىء، يريد البطاح [۱۲۴] وبها مالك بن نويرة قد تردد عليه امره. وتخلف الانصار عن خالد، وقالوا:

ما هذا بعهد الخليفة الينا، ان الخليفة عهد الينا ان نحن فرغنا من بزاخة [۱۲۵] واسبرنا بلاد القوم ان نقيم حتى يكتب الينا، فقال خالد:

انا الامير.. هذا مالك بن نويرة بحيالنا، فانا قاصد اليه ومن معى من المهاجرين..

وكان قد اوصاهم ابوبكر [۱۲۶] ان يؤذنوا اذا نزلوا منزلا.

فاذا اذن القوم، فكفوا عنهم، وان لم يؤذنوا فقاتلوهم.

[صفحه ۷۸]

وان اجابوا الى داعية الاسلام فسألوهم عن الزكاة، فان اقروا فاقبلوا منهم.

وان ابوا فقاتلوهم، فجاءت خالدا الخيل بمالك بن نويرة فى نفر معه من بنى ثعلبة ابن يربوع، فاختلفت السرية فيهم.

وكان فيهم ابوقتادة فكان فيمن شهد انهم قد اذنوا وصلوا.

فلما اختلفوا امر بهم خالـد فحبسوا فى ليلـة باردة لا يقوم لها شـىء، فأمر خالد مناديا فنادى ادفئوا اسـراكم وهى فى لغة كنانة القتل... فقتلوهم ... فتزوج خالدا ام تميم، امرأة مالك.

فقال عمر لابى بكر: ان سيف خالد فيه رهق، واكثر عليه فى ذلك، فقال:

هيه ياعمر!! تأول فأخطأ فارفع لسانك عن خالد.

فدخل خالد على ابى بكر فأخبره الخبر واعتذر اليه، فعذره وتجاوز عنه، وعنفه فى التزويج.

وقدم متمم بن نويرة على ابى بكر يطلب بدم اخيه ويسأله ان يرد عليهم سبيهم؟ فأمر ابوبكر برد السبى، وودى مالكا من بيت المال».

وقد روى على ما يقول البلاذرى [۱۲۷] «ان متمم بن نويرة دخل على عمر ابن الخطاب [۱۲۸]

فقال له عمر: ما بلغ وجدك على اخيك مالك.

قال: بكيته حولا حتى اسعدت عينى الذاهبة [۱۲۹] عينى الصحيحة، وما رأيت نارا

[صفحه ۷۹]

الا كدت انقطع لها اسفا عليه، لانه كان يوقد ناره الى الصبح، مخافة ان يأتيه ضعيف فلا يعرف مكانه».

لابد ان القارىء قد لاحظ معنا، فى رواية ابن الاثير، جملة مخالفات قام بها خالد بن الوليد:

۱ فقد سار، كما ذكرنا، الى قتال مالك دون ان يتلقى بذلك امرا من الخليفة.

۲ اهمل المبـدأ العام الذى وضـعه ابوبكر لمعالجة مشـكلة المسـلمين الذين اتهموا بالامتناع عن دفع الزكاة ذلك المبدأ الذى يتلخص، كما ذكرنا، بأن يؤذن فى وقت الصـلاة مؤذن من جيش المسـلمين، فان اذن المتهمون بالامتناع عن دفع الزكاة فلا يجوز قتالهم ابتـداء. ثم يسألون عن امر الزكاة. فان اقروا اى اعترفوا بوجوبها حرمت على خالد وصحبه دماؤهم واموالهم.

اى ان الخليفة لم يشترط اخذ الزكاة من القوم وانما اشترط اقرارهم بها. فاذا اقروا بذلك، صانوا ارواحهم واموالهم من عبث العابثين، وقد شـهد ابوقتادة كما ذكرنا بأن اصـحاب مالك بن نويرة قد اذنوا واقاموا وصـلوا اى انهم ذهبوا الى ابعد من مجرد الاذان الذى جعله الخليفة كافيا لتحريم قتالهم.

۳ ان خالدا امر بقتلهم غدرا بذلك الشـكل الشنيع فأدفأهم على لغة كنانة [۱۳۰] وكان باستطاعته وقد اصبحوا فى اسره، وتحت رحمته ان يرسلهم الخليفة بعد ان يتأكد من خروجهم على مبادىء الاسلام، واصرارهم على ذلك الخروج ليفعل الخليفة بهم ما يشاء.

۴ وتزوج خالـد ام تميم امرأة مالك فى الوقت الـذى قتل فيها زوجها وفى هذا ما فيه من خروج على مبادىء الدين الحنيف وتدن عن المستويات الخلقية الرفيعة.

[صفحه ۸۰]

على اننا اذا نظرنا الى مأساة مالك من زاوية اخرى امكننا ان نلاحظ فيها الامور التالية:

(أ) لقد تردد امر الزكاة على مالك كما يقول ابن الاثير.

والتردد غير الامتناع، لانه يتضـمن التريث والاحجام وهى فترة وسطى بين الامتناع والانصياع. فاذا حصل الامتناع، فانه مع ذلك لايجوز قتاله برأينا، الا اذا كان الامتناع مشروطا لا مطلقا اى ان يكون حصوله نتيجة للانتقاض على العقيدة الاسلامية.

ومما يؤيـد وجاهـة ما ذهب اليه ابن الاثير: ان مالكا الـذى كان واليا على صـدقات قومه بنى يربوع من قبل النبى، لما بلغته وفاة الرسول امسك عن اخذ الصدقة من قومه وقال لهم: تربصوا بها حتى يقوم قائم بعد النبى وننظر ما يكون من امره، وقد صرح بذلك فى شعر:

وقال رجال: سدد اليوم مالك

وقال رجال: مالك لم يسدد

فان قام بالامر المجدد قائم

اطعنا وقلنا: الدين دين محمد

فصرح مالك اذن انه استبقى الصدقة فى ايدى قومه رفقا بهم، وتقربا اليهم، الى ان يقوم بالامر من يدفع له ذلك» [۱۳۱].

(ب) لقد تجاوز ابوبكر عن خالد رغم اصرار عمر على ضرورة معاقبته بدافع الرأفة به والشفقة عليه، ولكن ذلك التجاوز قد حصل على حساب اقامة الحدود الدينية على ابن الوليد.

فقد اخطأ خالد باعتراف ابى بكر، واخطأ خالد واقر بخطئه واعتذر عنه.

ولاندرى ايجوز الصفح عن المجرم اذا ندم واعتذر؟

[صفحه ۸۱]

وهل يجوز الاجتهاد فى معرض النص؟

ولعل هذه الحادثة وامثالها هى التى جعلت عليا يمتنع عن الزام نفسه بالسير وفق سيرة الشيخين حين عرض عليه ذلك عبدالرحمن بن عوف اثناء الشورى.

(ج) ومما يؤيد عدم قناعة ابى بكر ببراءة خالد انه امر برد السبى وودى مالكا من بيت المال عندما قدم عليه متمم بن نويرة يطالبه بدم اخيه ويسأله ان يرد عليهم سبيهم. على اننا لانعلم فيما اذا جاز لابى بكر من الناحية الدينية ان يدفع من بيت مال المسلمين تعويضا عن جريمة شخصية ارتكبها ابن الوليد!!

اما كيفية وقوع مالك وبعض صحبه اسرى بيد خالد بن الوليد، وما جرى لهم بعد الاسر، وموقف عم من ذلك، فقد لخصه احد الرواة [۱۳۲] بقوله:

«ان السرية التى بعث بها خالدا لما غشيت القوم تحت الليل راعوهم، فأخذ القوم السلاح.

فقال اصحاب خالد: نحن المسلمون.

فقال اصحاب مالك: ونحن المسلمون. فقال اصحاب خالد: مابال السلاح معكم!! فلما وضعوا السلاح ربطوا اسارى، فأتوا بهم خالدا، فحدث ابوقتادة خالد بن الوليد: ان القوم نادوا بالاسلام، وان لهم امانا.

فلم يلتفت خالد الى قوله، وامر بقتلهم وتقسيم سبيهم.

وحلف ابوقتادة ان لايسير تحت لواء خالد فى جيش ابدا. وركب فرسه شاذا الى ابى بكر، فأخبره الخبر، وقال:

انى نهيت خالدا عن قتل مالك فلم يقبل قولى، واخذ بشهادة الاعراب الذين غرضهم الغنائم، وان عمر لما سمع ذلك تكلم فيه عند ابى بكر فاكثر، وقال:

ان القصاص وجب عليه.

[صفحه ۸۲]

فلما دخل خالد المسجد قام اليه عمر ... وقال: ياعدو نفسه عدوت على امرىء مسلم فقتلته، ونزوت على امرأته ... والله لنرجمنك بأحجارك.

وقد روى ايضا ان عمر لما ولى جمع من عشيرة مالك بن نويرة من وجد منهم واسترجع ما وجد عند المسلمين من اموالهم واولادهم ونسائهم، فرد ذلك عليهم جميعا.

وقيل: انه ارتجع بعض نسائهم من نواحى دمشق وبعضهن حوامل فردهن على ازواجهن، فالامر ظاهر فى خطأ خالد، وخطأ من تجاوز عنه».

وكانت حجة مالك واصحابه فى تأجيل دفع الزكاة على ما يحدثنا بعض الرواة [۱۳۳] انهم فسروا الاية التى وردت فى سورة التوبة:

«خذ من اموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم ان صلاتك سكن لهم» [۱۳۴].

بأنها تتضمن ضرورة صلاة النبى عليهم صلاة تكون سكنا لهم، ليأخذ صدقة من اموالهم يزكيهم بها وتلك الصفات، برأيهم، لاتتحقق فى غير النبى، لان غير النبى بنظرهم لايطهر الناس، ولايزكيهم بأخذ الصدقة منهم، ولاتكون صلاته سكنا لهم اى انهم بعبارة اخرى، ترددوا فى اعطاء الزكاة الى غير النبى الى ان يثبت لهم وجود من يمثله، وهو امر دون شك، لا يعنى عدم اعترافهم بالزكاة كأساس من اسس الدين لانهم لم يجحدوا وجوبها، ولكنهم قالوا:

انه وجوب مشروط. فتأولوا، وربما اخطأوا، كما تأول خالد فأخطأ برأى ابى بكر.

واذا كان ابوبكر قد تجاوز عن خالد لانه تأول الخطأ، افلا يجوز ان يقال عن اولئك، على اسوأ الفروض: انهم تأولوا فأخطأوا!!

[صفحه ۸۳]

يتضح من كل ما ذكرنا ان خالد بن الوليد واصحابه قد غرروا بضحاياهم وخدعوهم تحت ستار الدين، فجردوهم عن السلاح اولا وقتلوهم بعد ذلك على الشكل الذى ذكرناه ويلوح للباحث فى شهادة ابى قتادة ان خالدا لمرض فى نفسه ربما كان له صلة بأم تميم زوج مالك، قد اخذ بشهادة الاعراب الذين غرضهم الغنائم والسلب والنهب، وهى امور ابعد ما تكون عن جوهر الدين.

وقد وصفهم الله فى كتابه بالغلظة والنفاق.

هذا الى المؤرخين كما سلف ان ذكرناها:

لم يؤيدوا خروج مالك وصحبه على مبادىء الدين، او منعهم الزكاة او جحودهم وجوبها، فهم اذن لا يستحقون القتل اطلاقا، فكيف به وقد وقع بذلك الشكل من الغدر!!

ان الشىء الذى كانوا بحاجة اليه هو التنبيه والارشاد، هذا اذا كانوا مخطئين فى تفسير الاية التى ذكرنا فى قضية الزكاة.

اما مالك نفسه فقد كان مسلما، بشهادة عمر بن الخطاب؛

وان خالدا بشهادة عمر كذلك؛ قد اعتدى عليه ونزى على زوجه.

وهناك امر آخر لابد من ذكره فى هذه المناسبة لتعلقه بمبدأ عام يتصل بموضوع المتهمين بالامتناع عن دفع الزكاة، لا بموضوع مالك بن نويرة حسب ما ذكره البخارى حين قال [۱۳۵]:

«حدثنا يحيى بن بكير؛ حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب، اخبرنى عبيد الله ابن عتبة ان ابا هريرة قال: لما توفى النبى واستخلف ابوبكر، وكفر من كفر من العرب، قال عمر:

يا ابا بكر كيف تقاتل الناس. وقد قال رسول الله امرت ان اقاتل الناس حتى يقولوا: لا اله الا الله؛ فمن قال ذلك فقد عصم منى ماله ونفسه الا بحقه وحسابه على الله». وهناك امور اخرى اقترفها خالد بن الوليد لا تقل شناعة عما

[صفحه ۸۴]

ذكرنا منها: اغتياله سعد بن عبادة وهو فى محل اقامته فى الشام فى اواخر خلافة ابى بكر، او مساهمته بذلك الاغتيال.

ومنها ما رواه الطبرى [۱۳۶] حين قال:

«حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد بن اسحق قال: حدثنى بعض اهل العلم عن رجل من جزيمة قال: لما امرنا خالد بوضع السلاح قال رجل منا يقال له جحدم: ويلكم يا بنى جذيمة.

ما بعد وضع السلاح الا الاسار ثم ما بعد الاسار الا ضرب الاعناق.

والله لا اضع سلاحى ابدا. قال: فأخذه رجال من قومه، فقالوا: يا جحدم؛ اتريد ان تسفك دماءنا! ان الناس قد اسلموا.. فلم يزالوا به حتى نزعوا سلاحه، ووضع القوم السلاح لقول خالد؛ فلما وضعوه امر بهم خالد عند ذلك فكتفوا، ثم عرضهم على السيف، فقتل منهم من قتل.

فلما انتهى الخبر الى رسول الله رفع يديه الى السماء وقال: اللهم انى ابرأ اليك مما صنع خالد بن الوليد. ثم دعا على بن ابى طالب، فقال: ياعلى اخرج الى هؤلاء القوم فانظر فى امرهم، واجعل امر الجاهلية تحت قدميك، فخرج على ومعه مال قد بعثه رسول الله به، فودى لهم الدماء وما اصيب من الاموال.

حتى اذا لم يبق شىء من دم ولا مال إلا وداه بقيت معه بقية من المال. فقال لهم على حين فرغ منهم: ابقى لكم دم او مال لم يرد؟ قالوا: لا، قال:

فانى اعطيكم هذا البقية من هذا المال احتياطا لرسول الله مما لايعلم ولا تعلمون ففعل، ثم رجع الى رسول الله فأخبره الخبر. فقال: اصبت واحسنت».

فاذا كان هذا عمل خالد فى زمن النبى، فكيف به وقد انتقل الرسول الى الرفيق الاعلى!!

[صفحه ۸۵]

ومع ذلك كله، فقد تجاوز عنه ابوبكر، لانه تأول فأخطأ «على حد تعبيره» فاختلفت سيرة ابى بكر، فى هذه القضية الخطيرة، عن سيرة عمر الذى عزل خالدا. فقد كان اول كتاب كتبه عمر على ما يقول ابن الاثير [۱۳۷] موجها «الى ابى عبيدة ابن الجراح بتولية جند خالد، وبعزل خالد، لانه كان عليه ساخطا فى خلافة ابى بكر كلها، لوقيعته بابن نويرة ... وقال عمر: لا يلى خالد لى عملا ابدا.

وكتب الى ابى عبيدة.. ان انزع عمامته عن رأسه وقاسمه ماله».

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول:

ان ليس هناك شىء يصح ان يدعى «سيرة الشيخين» من حيث التوافق التام فى جميع التصرفات العامة الدينية والزمنية ولعل ذلك احد الاسباب التى ادت بالامام حين عرض عليه ابن عوف الخلافة وقت الشورى الى عدم الموافقة على الشرط الثالث «سيرة الشيخين». وعلى بموقفه هذا، قد استبعد «سيرة الشيخين» من ان تصبح بحد ذاتها سنة تتبع، لعدم وجود ما يبرر اتباعها من الناحية الدينية ما دام القرآن وسنة الرسول هما دستور الاسلام بنظره.

وهناك امر آخر لابد من ذكره فى هذه المناسبة، هو ان جواب الامام، بالصيغة التى ورد فيها، كان يدل دلالة قاطعة وصريحة على التيهؤ لتحمل المسئولية، وعدم نثر الوعود التى لا يمكن الالتزام بها اثناء تسلم المنصب الخطير.

فعلى لا يريد ان يلزم نفسه مقدما بشىء يستحيل عليه ان يعمل وفق مستلزماته بعد تسلمه الخلافة للاسباب التى ذكرناها. ولعل الشىء الذى يبدو غريبا فى امر الشورى هو قبول على الاشتراك فيها مع علمه بِأفضليته واحقيته بالخلافة. غير ان ذلك الاستغراب يزول عندما نتذكر ان عليا صرح بأنه يدخل الشورى،

[صفحه ۸۶]

لان ابن الخطاب قد اهله الان للخلافة «وكان من قبل يقول: ان النبوة والخلافة فى بيت واحد لاتجتمعان» [۱۳۸].

اما موقفه من شرط ابن عوف فأمر كان متوقعا ذلك، لان الامام كان على يقين من ان كلا من الشيخين قد سار فى حدود اجتهاده الشخصى، وانه من غير الممكن ان يلتزم هو بالكتاب والسنة وبسيرة الشيخين وتتجلى روعة موقفه هذا اذا ما تذكرنا موقف زميله عثمان الذى كان ينعم بالاجابة لابن عوف حتى كسب الخلافة، ولكنه لم يسر كما سنرى على الكتاب والسنة، بله سيرة الشيخين؟؟

[صفحه ۸۷]

عثمان بن عفان

«فقام ثالوث القوم، وقام بنو امية يخضمون مال الله خضم الابل نبتة الربيع.. إلى أن انتكث فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به بطنته... فما راعنى إلا والناس كعرف الضبع إلىّ، ينثالون على من جانب حتى لقد وطئ الحسنان، وشق عطفاى مجتمعين حولى كربيضة الغنم،

فلما نهضت بالامر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط آخرون» [۱۳۹].

إرتقى عثمان بن عفان منبر النبى بعد وفاة عمر وبالشكل الذى وصفناه فى قصة

[صفحه ۸۸]

«الشورى». واول عمل قام به الخليفة الجديد هو: تعيين ذويه واقربائه من الاموبين وآل ابى معيط مستشارين، وامراء على الامصار، وبخاصة اولئك الذين كانت لهم إو لآبائهم سيرة غليظة معروفة فى محاربة الاسلام ونبيه، الامر الذى اورثهم احقادا من الجاهلية على الرسول واهل بيته وتعاليمه، زرعها اميـة بن عبدشمس ونجله حرب، وتعهدها من بعدهما: ابوسفيان، وزوجه هند بنت عقبة، ونجلهما معاوية الذى حارب النبى فى بدر مع ابيه فهرب بعد ان قتل اخ له، واسر آخر كما سنرى.

وقد ادى اعتماد عثمان على اولئك النفر وعلى مروان بن الحكم الى تقويض دعائم الخلافة الاسلامية، وطوح بحياة عثمان وعلى مروان بن الحكم الى تقويض الخلافة الاسلامية، وطوح بحياة عثمان وعلى من بعده، وبالتالى الى اندحار مبادىء العدالة الاجتماعية التى تبناها الاسلام، واراد الرسول الكريم بثها بين الناس على اختلاف اجناسهم ومواقعهم الجغرافية.

وقد زرعت تصرفات الامويين الذين اعتمد عليهم عثمان فى تدوير شئون المسلمين، كما سنرى، فأصبح الحكام بعد مصرع الخليفة الثالث كما سنرى، بذور الفسلد والتفسخ فى الخلق العربى عند الحكام والمحكومين على السواء، فأصبح الحكام بعد مصرع الخليفة الثالث كما سنرى يستعملون شتى اساليب الغدر والموارية، والكذب، والدس واضرابها من الرذائل السياسية والخلقية لكسب ولاء الجماهير لحكمهم الفاسد من جهة، وللايقاع بخصومهم من جهة اخرى. والف المحكومون الا ما ندر هذه التصرفات الملتوية، مع توالى الايام، واستحسنوها وكيفوا سلوكهم وفقا لها.

وبما اننا لانؤرخ فى هذه الدراسة اثر الامويين [۱۴۰] فى الخلق العربى والاسلامى، وانما نحن بصدد البحث فى الدور الذى لعبوه فى خلافة عثمان، فسوف

[صفحه ۸۹]

نحصر بحثنا فى هذه النقطة المعينة، ولكى تفهم ذلك الاثر على الوجه الاكمل نرى لزاما علينا ان نستعرض مواقفهم من الاسلام فى عهد الرسول:

لقد الب الامويون كفار قريش على حرب النبى صلى الله عليه وسلم فوقعت بدر وقتل منهم حنظلة بن ابى سفيان بن حرب بن اميـة بن عبدشمس.

والعاص بن سعيد بن العاص بن اميـة بن عبدشمس، وعبيدة بن سعيد بن العاص ابن اميـة بن عبدشمس.

والوليد بن عقبة بن ربيعة بن عبدشمس «صهره اخو هند زوج ابى سفيان» وشيبة بن ربيعة بن عبدشمس، وعقبة بن ابى معيط «والد الوليد اخى عثمان لامه»

واسر من الامويين يوم بدر ابوالعاص بن الربيع بن عبدالعزى بن عبدشمس،

والحرث بن وجزة بن ابى عمر بن اميـة بن عبدشمس.

وكان عمرو بن ابى سفيان زوج بنت عقبة بن ابى معيط من اسرى بدر كما ذكرنا فاقترح بعض المقربين الى ابى سفيان ان يفدى عمرواً؟ فأجاب: «ايجمع علىّ مالى ودمى؟ قتلوا حنظلة وافدى عمروا!! دعوه فى ايديهم.. وبينما هو اى عمرو كذلك محبوس فى المدينة اذ خرج سعد بن النعمان بن اكال اخو بنى عمرو بن عوف ... معتمرا ... وكان شيخا مسلما ... فعدا [۱۴۱] عليه ابوسفيان بمكة فحبسه بابنه عمرو، ثم قال مفتخرا:

ارهط ابن اكال اجيبوا دعاءه

تعاقدتموا لاتسلموا السيد الكهلا

فان بنى عمرو لئام اذلة

لئن لم يفكوا عن اسيرهم الكبلا [۱۴۲].

وقالت هند بنت عتبة زوج ابى سفيان، وام معاوية تبكى اباها يوم بدر:

[صفحه ۹۰]

يريب علينا دهرنا فيسوؤنا

ويأبى فما نأتى بشىء نغالبه

فأبلغ ابا سفيان عنى مالكا

فان القه يوما فسوف اعاتبه

فقد كان حرب يسعر الحرب انه

لكل امرىء فى الناس مولى يطالبه [۱۴۳].

وفى ضوء ماذكرنا نستطيع ان نقول ان الاموين قد اصيبوا بنكسة مريعة فى بدر، فتحركت حفائظهم، واثيرت ضغائهم القديمة، واحقادهم الجديدة، فالبوا من جديد كفار قريش، والبهم الكفار، على حرب النبى.

وكان ابوسفيان «رأس المؤلبين والحاقدين» قد هيا كفار قريش وهيئوه لاعلان حرب جديدة على النبى!!؟ وتجهز الناس وارسلوا اربعة نفر منهم عمرو بن العاص.. فساروا فى العرب يستنفرونهم.

وكان ابوسفيان قائد الناس، فخرج بزوجه هند.. وخرج غيرهم بنسائهم.. الحرث بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد اخت خالد ... وعمرو بن العاص بريطة بنت منبه.. وكان مع النساء الدفوف يبكين على قتلى بدر ويحرضن بذلك المشركين» [۱۴۴].

فخرجت قريش «بحدها واحابيشها ومن معها من بنى كنانة واهل تهامة وخروجوا معهم بالظعن إلتماس الحفيظة، ولئلا يفروا.

فخرج ابوسفيان بن حرب قائد الناس ومعه هند.. وكانت هند كلما مرت بوحشى او مر بها قالت ايه ابا دسمة! استف واشتف.

واقبل خالد بن الوليد على خيل المشركين.. واقبل ابوسفيان يحمل اللات والعزى، [۱۴۵] وقامت هند فى النسوة اللاتى معها واخذن الدفوف يضربن بها خلف الرجال ويحرضنهم وانشدت هند:

[صفحه ۹۱]

ويهاً بنى عبد الدار

ويهاً حماة الادبار

ضربا بكل بتار

ان تقبلوا نعانق

ونفرش النمارق

او تدبروا نفارق

فراق غير وامق [۱۴۶].

وانشد عمرو بن العاص يوم احد يصف خروجهم لقتال النبى:

خرجنا من الفيفا عليهم كأننا

مع الصبح رضوى الحبيك المنطق

فما راعهم بالشر الا نجاءة

كراديس خيل فى الازقة تمرق [۱۴۷].

ووقفت هند والنسوة اللاتى معها يمثلن بالقتلى من اصحاب الرسول.

«يجدعن الاذان والانف حتى اتخذت هند من آذان الرجال خدما» «جمع خدمة وهى الخلخال» وقلائد.

وبقرت عن كبد حمزة فلاكتها.. ثم علت صخرة مشرفة فصرخت بأعلى صوتها:

نحن جزيناكم بيوم بدر

والحرب بعد الحرب ذات سعر

ما كان عن عتبة لى صبر

ولا اخى وعمه وبكر [۱۴۸].

وكان الحليس بن زبان «على مايروى ابن هشام فى سيرة النبى محمد ۲ / ۴۴ و ۴۵» قد «مر بأبى سفيان وهو يضرب فى شدق حمزة بن عبدالمطلب وهو جثة هامدة ويقول: ذق عقق.

ولما انصرف ابوسفيان ومن معه نادى: ان موعدكم بدرا للعام القادم» ثم التفت الى زوجه هند وانشد مفتخرا [۱۴۹]:

اباك واخوانا له قد تتابعوا

وحق لهم من عبرة بنصيب

[صفحه ۹۲]

وسلى الذى قد كان فى النفس اننى

قتلت من النجار كل نجيب

ومن هاشم قرما كريما ومصعبا

وكان لدى الهيجاء غير هيوب

وكانت هند حين انصرف المشركون منتصرين من احد تنشد:

رجعت وفى نفسى بلابل جمه

وقد فاتنى بعض الذى كان مطلبى

ولكننى قد نلت شيئا ولم يكن

كما كنت اجو فى مسيرى ومركبى [۱۵۰].

اما اسلام هند فى الظاهر فقد حصل بالشكل التالى:

«لما فتح النبى مكة حضرت اليه هند مع نساء مكة ليبايعنه.

فلما تقدمت هند لمبايعته اشترط شروط الاسلام عليها.. فأجابته بأجوبة قوية

فما قاله لها: تبايعيننى على ان لاتقتلى اولادك؟! فقالت هند:

اما نحن فقد ربيناهم صغارا وقتلتهم كبارا يوم بدر.. فقال: وعلى الا تزنين!؟ فقالت هند: وهل تزنى الحرة؟ قالوا: فالتفت رسول الله الى العباس وتبسم» [۱۵۱].

يتضح مما ذكرنا جانب من جوانب تعبير الامويين عن مقتهم للدين الحنيف ولصاحبه، فقد شنوها كما رأينا حربا شعواء لاهوادة فيها على النبى، غير انهم اندحروا فى بدر كما رأينا وكادوا ينالون من النبى فى موقعة احد.

فقتلو عمه حمزة ومثلوا به على شكل من الوضاعة والبشاعة قل ان يعثر المرء على مثلهما فى التاريخ. ولولا انه خيل اليهم ان الرسول قد قتل لما رجعوا من المعركة.

غير انهم سرعان ما اجمعوا امرهم على الرجوع الى النبى فى احد حينما بلغهم انه نجا من سيوفهم الظالمة فلقى «معبد الخزاعى، ابا

سفيان بن حرب ومن معه بالروحاء.

[صفحه ۹۳]

وقد اجمعوا الرجعة الى رسول الله واصحابه، وقالوا:

اصبنا جل اصحابه وقادتهم واشرافهم ثم رجعنا قبل ان نستأصلهم، لنكرّنّ على بقيتهم فلنفرغن منهم فلما رأى ابوسفيان معبدا قال: ماوراءك يا معبد؟

قال: محمد، قد مرج فى اصحاب يطلبكم فى جمع لم ار مثله قط، يتحرقون عليكم تحرقا ... قال: فوالله لقد اجمعنا الكر عليهم لنستأصل بقيتهم.

قال: فانى انهاك عن ذلك ... قال: فثنى ذلك ابا سفيان ومن معه» [۱۵۲].

ولكن اخفاق ابى سفيان «فى مؤامرته المسلحة لوَأدِ الاسلام والمسلمين فى احد» لم يثنه عن مواصلة الكفاح المرير لاثارة وقائع اخرى ضد النبى.

وقد نذر ابوسفيان «ان لا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمداً [۱۵۳] فى كل فرصة ملائمة للاجهاز عليه، وعلى الدين الحنيف.

فألب الاـحزاب فى حرب الخندق ... ومابعدها ... ولم يعلن اسلامه فى الظاهر الاـ حين رأى ان ذلك اجدى من السيف لتحطيم الاسلام.

وهكذا كان ابوسفيان يثيرها حروبا متصلة الحلقات للايقاع بالنبى وبدينه وبصحبه، فأثار حرب بدر، وأحد، والاحزاب فى الخندق، وتآمر مع اليهود للوصول الى تحقيق غرضه الدنىء.

لقد مر بنا طرف من حوادث ايذاء قريش وفى مقدمتهم بنو امية من النساء والرجال للنبى، وللمسلمين، وللعقيدة الاسلامية طوال مكوث النبى فى مكة «وقد ظهر ذلك الايذاء بشكل فردى مبعثر احيانا، وبشكل جماعى منظم احيانا اخرى.

وتفنن المشركون من الامويين خاصة فى ابتداع الوسائل المختلفة لايذاء الرسول

[صفحه ۹۴]

فبعثوا النضر بن الحرث وعقبة بن ابى معيط [۱۵۴] الى احبار اليهود لتأليبهم على النبى وتسفيه رسالته، وارسلوا عبدالله بن ابى ربيعة، وعمرو بن العاص [۱۵۵] الى الحبشة لاقناع النجاشى بطرد المسلمين الذين هاجروا الى الحبشة، تخلصا من ايذاء المشركين.

وقد نزل قرآن فى ذم كثير من اولئك الذين بالغوا فى الاعتداء على الرسول، كأم جميل بنت حرب بن امية حمالة الحطب [۱۵۶].

وكان ذلك كله يجرى بمكة طوال مكوث النبى فيها.

فلما هاجر النبى الى المدينة واصل كفار قريش تحت زعامة الامويين من النساء والرجال ايذاء الرسول، هذه المرة عن طريق الحرب، فامتشق [۱۵۷] الامويون الحسام والبوا قريشا، وحاربوا النبى فى سلسلة من الحروب الفاشلة التى ذكرناها.

ولما رأى المشركون من بنى امية واتباعهم فشلهم المتواصل لجأوا الى اتّباع اسلوب جديد للايقاع بالاسلام وكان هذا الاسلوب فى واقعه اكثر الاساليب ايجاعا للعقيدة الاسلامية.

فتقمص قادتهم الاسلام والتزموا ببعض مظاهره ليتمكنوا من اعلانها حربا شعواء على الدين من داخله؛ بعد ان اعياهم امره فى حربهم اياه من الخارج.

فأسلم ابوسفيان قائدهم فى الظاهر يوم فتح مكة بعد ان لجأ الى العباس عم النبى مضطرا والتمسه ان يأخذه الى الرسول، فلما اتى به العباس قال له رسوله الله: الم يأن لك ان تعلم ان لا اله الا الله؟ فقال: بأبى انت وامى ما احلمك واكرمك واوصلك

والله لقد علمت لو كان معه اله غيره اغنى عنا! فقال:

[صفحه ۹۵]

ويحك الم يأن لك ان تعلم انى رسول الله؟ قال: بأبى انت وامى ما احلمك واكرمك واوصلك!! اما هذه ففى النفس منها شيء.

فقال العباس: ويحك اسلم قبل ان يضرب عنقك! فأسلم» [۱۵۸].

وقد حاول ابوسفيان ان يضبط اعصابه التى نشأت على الكفر وتشربت ببغض الاسلام فتظاهر بنبذ عبادة الاوثان والاعتراف بالدين الجديد.

ولكن ذلك لم يعصمه فى مناسبات كثيرة من غمز الدين الجديد، من ذلك، مثلا: ما ذكره ابن هشام [۱۵۹] حينما خاطب الحرث بن هشام ابا سفيان بعد فتح مكة بقوله: «اما والله لو اعلم ان محمداً نبى لاتبعته!! فقال ابوسفيان: لا اقول شيئا، لو تكلمت لاخبرت عنى الحصا!» فلو كان ابوسفيان مسلما صحيح الاسلام لانبرى لتنفيذ زعم ذلك المشرك البغيض.

اما اقراره لرأى الحرث ضمنيا كما يبدو من عبارته فدليل قاطع على وثنيته.

ذلك ما يتصل بأبى سفيان، اما ما يتصل بغيره من شيوخ الامويين الذين اعتمد عليهم عثمان فى تدوير شئون المسلمين فمعروف لدى من لهم ادنى المام بالتاريخ الاسلامى فى عهد الرسول، فالحكم ابومروان وزير عثمان قد خاض من فحش القول مع الرسول ما يندى من ذكره جبين المسلم الامر الذى اضطر النبى الى نفيه من المدينة الى الطائف، قال البلاذرى [۱۶۰]:

«حدثنى محمد بن سعد الواقدى عن محمد بن عبدالله الزهرى، وحدثنى عباس ابن هشام الكلبى عن ابيه عن جده، ان الحكم بن العاص بن امية عم عثمان ابن عفان كان جارا للنبى فى الجاهلية، وكان اشد جيرانه اذى له فى الاسلام.

فكان يمر خلف النبى فيغمز به ويحكيه ويخلج بأنفه وفمه، واذا صلى قام خلفه فأشار بأصابعه ... واطلع على ذلك رسول الله ذات يوم فى بعض حجر

[صفحه ۹۶]

نسائه فعرفه وخرج اليه ... ثم قال: لا يساكنى هو ولا ولده فغربهم جميعا الى الطائف، فلما استخلف عثمان ادخلهم المدينة».

وابن ابى سرح الذى اختبره النبى فى كتابة الوحى فحرف وبدل فى التنزيل، فأهدر النبى دمه.

والوليد بن عقبة بن ابى معيط الذى نزل فيه قرآن يصفه بالنفاق فى قضية بنى المصطلق المعروفة قال تعالى: «يا ايها الذين آمنو ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة [۱۶۱]».

وكان المسلمون فى عهد الرسول «يسمون ابا سفيان وامثاله من الذين اسلموا بأخرة، ومن الذين عفا النبى عنهم يوم الفتح بالطلقاء.

ومهما يقال عن معاوية فهو ابن ابى سفيان قائد المشركين ... وابن هند التى اغرت بحمزة حتى قتل ثم بقرت بطنه ولاكت كبده» [۱۶۲].

وقد ذكر الزبير بن بكار فى الموفقيات «عن المغيرة بن شعبة قال: قال لى عمر يوما: يا مغيرة هل ابصرت بعينك العوراء منذ اصيبت؟ قلت: لا.

قال: اما والله ليعورن بنو امية الاسلام كما اعورت عينك هذه، ثم ليعمينه حتى لايدرى اين يذهب ولا اين يجيء» [۱۶۳].

وذكرالبخارى فى صحيحه ۸ / ۴۹» «حدثنا خلاد بن يحيى، حدثنا سفيان عن منصور، والاعمش عن ابى واتل عن ابن مسعود قال: قال رجل يا رسول الله اتؤاخذنا بما عملنا فى الجاهلية «قال: من احسن فى الاسلام لم يؤاخذ بما عمل فى الجاهلية.

ومن اساء فى الاسلام اخذ بالاول والاخر».

[صفحه ۹۷]

لقد ظهر من تقريب عثمان للأمر بين خلافته وايثارهم دون غيرهم على سائر المسلمين اشكالا مختلفة: اوضحها الجانب المالى، والجانب السياسى الادارى وبقدر ما يتعلق الامر بالجانب المالى يمكننا ان نقول: ان عثمان اغدق العطايا على اقربائه من بيت مال المسلمين دون حساب، من ذلك، مثلا: ان عثمان قد منح مروان بن الحكم زوج ابنته ام ابان، كما منح ابنته عائشة التى زوجها من

الحرث بن الحكم اخى مروان يوم العرس «مئتى الف من بيت المـال، سوى ما كان قـد اقطعه من قطائع، فلما اصـبح الصـباح جاءه زيد بن ارقم خازنه حزينا.. يرجو ان يقيله.

على ان هذه الواقعة لم تكن الا حلقة من حلقات سخاء عثمان.

وذات اليوم الاول لخلافته منح ابا سفيان شيخ بنى اميه مئة الف درهم [۱۶۴]،

واعطى عثمان كذلك «رجلا من ذوى قرابته مقدارا ضخما من بيت المال.

واسـتكثر عـامله على بيت المـال هـذا المقـدار فلم يخرجه، فألـح عثمـان. فأبى الخازن. فلامه عثمان ... وقال: ما انت وذاك؟ انما انت خازن! قال له صاحب بيت المال: ما ارانى خازنا لك..

لقد كنت ارانى خازنا للمسلمين، ثم اقبل بمفاتيح بيت المال فعلقها على منبر النبى وجلس فى داره» [۱۶۵] وتفصيل ذلك على ما رواه البلاذرى «انساب الاشـراف ۵ / ۵۸، ۵۹» انه: «كـان على بيت مال عثمان عبـدالله بن الارقم.. فاستسـلف عثمان من بيت المال مئـة الف درهم.

ثم قـدم عليه عبـدالله بن اسـيد بن ابى العيص من مكـة، وناس معه غزاة، فأمر لعبـدالله بثلاثمائـة الف درهم؛ ولكل رجل من القوم بمئة الف درهم وصك بذلك الى ابن الارقم فاستكثره ورد الصك له.

فقال عثمان: انما انت خازن لنا فما حملك على ما فعلت؟ فقال ابن الارقم: كنت ارانى خازنا للمسلمين؛ وانما خازنك غلامك والله لا الى لك بيت المال ابداً

[صفحه ۹۸]

وجاء بالمفاتيح فعلقها على المنبر..

وبعث عثمان الى عبدالله بن الارقم ثلاثمائة الف درهم فلم يقبلها».

وقد اسـتمر عثمان على هذا المنوال من ايثار بنى عمومته والمقربين اليه من بيت المال على حساب المسلمين، حتى تحدث الناس ذات يوم بأن عثمان اخـذ من جوهر كان فى بيت المال فخلى به بعض اهله فغضب الناس لـذلك، ولاموا عثمان فيه حتى اغضـبوه، فخطب، فقال: لنأخذ حاجتنا من هذا الفيء وان رغمت انوف اقوام؟

فقال عمار بن ياسر: اشهد الله ان انفى اول راغم من ذلك.

فقال عثمان: أعلى يا ابن المتكأ تجترىء!! خذوه؟ فأخذ.

ودخل عثمان فـدعا به فضـربه حتى غشـى عليه، ثم اخرج محمولا حتى اتى به منزل ام سـلمة زوج النبى، وظل مغشـيا عليه سائر النهار. ففاته الظهر والعصر والمغرب. فلما افاق توضأ وصلى وقال.

الحمد لله، هذه ليست اول مرة اوذينا فيها فى الله، ويقال: ان ام سلمة او عائشة اخرجت شيئا من شعر النبى وثوبا من ثيابه ونعلا من نعاله وقالت:

هذا شعر النبى وثوبه، ونعله لم يبل وانتم تعطلون سنته!!.

وضج الناس، وخرج عثمان عن طوره حتى لا يدرى مايقول» [۱۶۶].

واذا صـحت الروايـة المـذكورة فـان عثمـان قـد ارتكب خطئين فى آن واحـد: تبـذير اموال المسـلمين، والاعتـداء على رجل من خيرة الصحابة.

«ولسـنا بحاجـة الى ان نناقش فى صـحة ما جاءت به الرواية من ان عثمان اعطى مروان بن الحكم خمس الغنيمة التى غنمها المسـلمون فى افريقية.. ومن أنه اعطى الحكم عمه.

واعطى ابنه الحارث ثلثمائة الف.

[صفحه ۹۹]

واعطى عبدالله بن خالد بن اسيد الاموى ثلثمائة الف.

واعطى كل واحد من الذين وفدوا مع عبدالله بن خالد مائة الف.

واعطى الزبير بن العوام ستمائة الف، واعطى طلحة بن عبيد الله مائة الف.

واعطى سعيد بن العاص مائة الف، وزوج ثلاثا او اربعا من بناته لنفر من قريش، فأعطى كل واحد منهم مائة الف دينار» [۱۶۷].

ويقول البلاذرى فى هذا الصدد [۱۶۸] «حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن اسامة بن زيد بن اسلم، عن نافع مولى الزبير عن عبدالله بن الزبير قال:

اغزانا عثمان سنة ۲۷ افريقية، فأصاب عبدالله بن سعيد بن ابى سرح غنائم جليلة. فأعطى عثمان مروان بن الحكم خمس الغنائم...

وحدثنى عباس بن هشان الكلبى عن ابيه.. عمن حدثه قال:

كان عبدالله بن سعد بن ابى سرح اخا عثمان من الرضاعة، وعامله على المغرب، فغزا افريقية سنة ۲۷ ه فافتتحها فابتاع خمس الغنيمة بمئة الف او مئتى الف.

فكلم عثمان فوهبها له، فأنكر الناس ذلك على عثمان...

وحدثنى، محمد بن سعد عن الواقدى عن عبدالله بن جعفر، عن ام بكر عن ابيها قالت: قدمت ابل الصدقة على عثمان فوهبها للحارث بن الحكم بن ابى العاص.

وحدثنى محمد بن حاتم بن ميمون، حدثنا الحجاج الاعور عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال: كان مما انكروا على عثمان انه ولى الحكم بن ابى العاص صدقات قضاعة فبلغت ثلثمائة الف درهم فوهبها له حين اتاه بها..

ولما اعطى عثمان مروان بن الحكم ما اعطاه.

[صفحه ۱۰۰]

واعطى الحارث بن الحكم بن ابى العاص ثلثمائة الف درهم..

واعطى زيد بن ثابت الانصارى مائة الف درهم جعل ابوذر يتلو قول الله:

«والذين يكنزون الذهب، [۱۶۹] فرفع ذلك مروان بن الحكم الى عثمان..

فأرسل الى ابى ذر نائلا مولاه: ان انته عما بلغنى عنك فقال:

اينهانى عثمان عن قراءة كتاب الله وعيب من ترك امر الله فوالله لسخط عثمان احب الى وخير لى من سخط الله».

ولعل تصرف عثمان فى بيت المال على الشكل الذى وصفناه، وايقاعه بالصحابة الذين اعترضوا على ذلك، يبدو بشكل اوضح مما ذكرناه اذا قارناه حسب قاعدة: وبضدها تتميز الاشياء بتصرف على اثناء خلافته فى بيت المال وبموقفه ممن لامه على اتباعه الحق، بله الباطل الذى هو اسمى من ان يهبط اليه.

«نزل بالحسين ابنه ضيف، فاستسلف درهما اشترى به خبزا، واحتاج الى الإدام فطلب من قنبر خادمهم ان يفتح لهم زقا من زقاق عسل جاءتهم من اليمن.

فأخذ منها رطلا، فلما طلبها على ليقسمها، قال: ياقنبر، اظن انه حدث بهذا الزق حدث!، فأخبره، فغضب، وقال: علىّ بحسين. فقال له: ما حملك ان اخذت من قبل القسمة؟ قال: ان لنا فيه حقا فاذا اعطينا رددناه، قال:

وان كان لك حق فليس ان تنفتح بحقك قبل ان ينفتح المسلمون بحقوقهم.. ثم دفع ال قنبر درهما كان مصروا فى ردائه، وقال:

اشتر به خير عسل تقدر عليه» [۱۷۰].

وذكر عقيل بن ابى طالب لمعاوية بن ابى سفيان عندما التحق به فارا من عدل الامام «اصابتنى مخمصة شديدة. فجمعت صبيانى وجئت

عليا بهم، والبؤس والضر

[صفحه ۱۰۱]

ظاهران عليهم! فقال ائتنى عشية لادفع اليك شيئا، فجئته يقودنى احد ولدى، فأمره بالتنحى، ثم قال: الا دونك، فأهويت حريصا قد غلبنى الجشع اظنها صرة فوضعت يدى عل حديدة تلتهب نارا، فلما قبضتها نبذتها وخرت كما يخور الثور تحت يد جزار [۱۷۱].

والى هذه الحادثة يشير الامام فى احدى خطبه:

«رأيت عقيلا- وقد املق حتى استماحنى من بركم صاعا. ورأيت صبيانه شعث الشعور، غبر الالوان من فقرهم، عاودنى مؤكدا وكرر على القول مرددا، فأصغيت اليه سمعى، فظن انى ابيعه دينى واتبع قياده مفارقا طريقى، فأحميت له حديدة، ثم ادنيتها من جسمه ليعتبر من جسمه ليعتبر بها، فضج ضجيج ذى دنف من المها..

فقلت له: ثكلتك الثواكل ياعقيل.. اتئن من حديدة احماها انسانها للعبه، وتجرنى الى نار سجرها جبارها لغضبه!!» [۱۷۲].

ويتجلى اروع مواقف الامام فى ضبط النفس فى معاملته للخوارج الذين هم على باطل، من وجهة نظره على كل حال فلم نشهد له موقفا معهم على باطلهم يشبه موقف عثمان مع عمار على حقه يقول الدكتور طه حسين [۱۷۳].

«جاء عليا احد الخوارج «وهو الحريث بن راشد السامى فقال له: والله لا اطعت امرك، ولا صليت خلفك.. فلم يغضب على لذلك، ولم يبطش به انما دعاه الى ان يناظره ويبين له وجه الحق لعله ان يثوب اليه، فقال الحريث: اعود غدا، فقبل منه على.».

ولم يقف تمزيق عثمان لاموال المسلمين عند حد تفريقه اياها على الاصهار وذوى القرابة؛ انما تعداه الى الاصدقاء والمقربين والاتباع.

[صفحه ۱۰۲]

فقد وصل عثمان «الزبير بن العوام بستمائة الف.

ووصل طلحة بمائة الف ونزل عن دين كان له عنده» [۱۷۴].

وبقدر ما يتعلق الامر بهذا الجانب من جوانب سياسة ابن عفان يمكننا ان نقول بنشوء هوة سحيقة بين المقربين اليه من الاقرباء والاصهار والاصدقاء من جهة وبين سائر المسلمين من جهة اخرى.

فبينما نجد اكثرية المسلمين تعيش على الطوى ويحرم القسم الكبير منها حقه فى بيت المال نرى المقربين الى الخليفة بالاضافة الى ذوى قرابته الذين استأثروا بحصة الاسد من غنيمة اموال المسلمين، يبلغ ترفهم وثراؤهم الى الاذقان.

ففى ايام عثمان على ما يروى المسعودى [۱۷۵].

«اقتنى جماعة من اصحابه الضياع والدور، منهم: الزبير بن العوام، بنى داره بالبصرة وهى المعروفة فى هذا الوقت وهو سنة ۳۳۲ ه اثنتين وثلاثين وثلثمائة تنزلها التجار وارباب المال..

وابتنى ايضا دورا بمصر والكوفة والاسكندرية، وما ذكر من دوره وضياعه فمعلوم..

وبلغ مال الزبير بعد وفاته خمسين الف دينار، وخلف الزبير الف فرس. والف امة..

وكذلك طلحة بن عبيدالله التميمى ابتنى داره المشهورة فى الكوفة.

وكان غلته من العراق كل يوم الف دينار وقبل اكثر من الف.

وبناحية سراة اكثر مما ذكرنا وشيد داره بالمدينة وبناها بالآجر والجص والساج.

وكذلك عبدالرحمن بن عوف الزهرى ابتنى داره ووسعها، وكان على مربطه الف فرس، وله الف بعير وعشرة الاف من الغنم

[صفحه ۱۰۳]

وبلغ بعد وفاته ربع ثمن ماله اربعة وثمانين الفا».

يتضح مما ذكرنا «ان السياسة المالية التى اصطنعها عثمان منذ ان نهض بالخلافة كانت كلها موضع نقمة وانكار من اكثر الذين

عاصروه ومن اكثر الرواة والمؤرخين.

كان عثمان قبل ان يلى الخلافة كثير المال.

فلما تولى الخلافة شغلته عن التجارة.. ولم يكن له بد من ان ينفق على نفسه واهله وذوى قرابته بعد الخلافة كما كان ينفق قبلها، فكان يرى فيما يظهر ان الخلافة يجب الا تغير من سيرته فى المال شيئا، فاذا لم يسعفه ماله الخاص وجب ان تسعفه الاموال العامة» [۱۷۶].

واذا استباح الخليفة لنفسه ان ينفتع ببيت المال لاغراضه الآنفة الذكر.

فان ذلك قد شجع عماله على السير فى مال المسلمين سيرة امامهم، فأعطوا واقرضوا والتوى بعضهم بالدين، فاستقال عبدالله بن مسعود فى الكوفة.

كما استقال عبدالله بن الارقم فى المدينة.

واذا اطلق الامام يده واطلق العمال ايديهم فى الاموال العامة على هذا النحو لم يمكن غريبا ان يحتاج الجند الى المال فلا يجدون، وان اضطر الامام ان ينفق على الحرب من اموال الصدقة فيعرض نفسه لما تعرض اليه من الانكار..

واذا اطلق يده فى الاموال العامة على هذا النحو لم يكن غريبا ان تمتد هذه الايدى الى اموال الصدقة للانفاق على الحرب بل للعطاء وصلة الرحم.

كما يروى ان عثمان ارسل الحارث بن الحكم مصدقا على قضاعة. فلما جاء بصدقاتهم وهبها له ... على ان عثمان لم يقتصر على السائل من المال بل تجاوز الى الجامد ايضا.

فقد نقم الناس من عثمان انه كان يقطع القطائع الكثيرة فى الامصار لبنى امية.

[صفحه ۱۰۴]

وقد دافع اهل السنة والمعتزلة عن هذا الاقطاع بأن عثمان انما اقدم عليه استصلاحا لهذه الارض..

ويرد الشيعة عليهم بأن عثمان نفسه لم يدافع عن نفسه هذا الدفاع، وكان من الممكن ان يرد الشيعة ايضا بأن بنى امية لم يكونوا اخصائين من دون قريش فى استصلاح الارض» [۱۷۷].

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مع الدكتور طه حسين [۱۷۸] «ان السياسة المالية لعثمان كانت تنتهى الى نتيجتين كلتاهما شر: الاولى انفاق الاموال العامة فى غير حقها..

والاخرى انشاء هذه الطبقة الغنية المسرفة فى الغنى التى تستجيب لطمع لاحد له، فتتوسع فى ملك الارض واستغلال الطبقة العاملة، ثم ترى لنفسها من الامتياز ما ليس لها، ثم تتنافس فى التسلط».

وقد حدث ذلك بالفعل واستفحل فى خلافة الامام على كما سنرى.

ذلك: ما يتعلق بأسلوب عثمان فى صرف المال وبسياسته العامة فى هذه الناحية.. اما ما يتعلق بسياسته الادارية فمن الممكن ان يقال عنه:

بأن عثمان كان يعتمد بالدرجة الاولى من حيث الولاة والمتنفذين، على مروان بن الحكم مستشاره ووزيره وعلى ولاة آخرين من اصهاره وذوى قرابته مر بنا ذكر اسمائهم وقد اخذ هؤلاء الولاة القساة الفجرة، بدورهم كما سنرى.

يعبثون بشئون المسلمين والاسلام بشكل لم يألفه الناس من قبل.

وعثمان من ورائهم يسندهم ويختلق لهم المعاذير التبرير افعالهم الناشزة.

[صفحه ۱۰۵]

وانكى من ذلك ان عثمان نفسه كان على الرغم مما عرف فيه من وداعة ولين على جانب كبير من القسوة فى معاملة اجلة الصحابة، بله عامة الناس..

وموقفه الغليظ من عبدالله بن مسعود، وابى ذر الغفارى، وعمار بن ياسر، معروف لدى الكثيرين.

والانكى من ذلك كله:

ان هؤلاء الرجال الصالحين بشهادة الرسول قد امتهنهم الخليفة واعتدى عليهم بالضرب المبرح والنفى والكلام الجارح، دون ان يقوموا بعمل يستحقون عليه العقاب.

اللهم الا اذا اعتبرنا عتابهم لعثمان على بعض تصرفاته الناشزة شيئا يستحقون عليه العقاب. قال البلاذرى [۱۷۹] «حدثنا محمد بن عيسى بن سميع عن محمد بن ابى ذئب عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال:

ولما ولى عثمان كره ولايته نفر من اصحاب رسولالله.. وكان كثيرا ما يولى من بنى اميهٔ من لم يكن له مع النبى صحبهٔ. وكان يستعتب فيهم فلا يعزلهم فلما كان فى الست الاواخر استأثر ببنى عمه فولاهم.

وولى عبدالله بن سعد بن ابى سرح مصر فمكث فيها سنين، فجاءه اهل مصر يشكونه ويتظلمون منه ... فكتب اليه كتابا يتهدده فيه، فأبى ان ينزع عما نهاه عثمان عنه.

وضرب بعض من كان شكاه الى عثمان من اهل مصر حتى قتله.

فخرج من اهل مصر وفد الى المدينهٔ فنزلوا المسجد وشكوا ما صنع بهم ابن ابى سرح فى مواقيت الصلاهٔ الى اصحاب محمد، فقام طلحهٔ الى عثمان فكلمه بكلام شديد.

وارسلت اليه عائشهٔ تسأله ان ينصفهم من عامله».

[صفحه ۱۰۶]

وقد كتب الى عثمان جماعهٔ من الصحابهٔ فيهم: المقداد، وعمار، وطلحهٔ، والزبير، على مايقول البلاذرى: [۱۸۰] «كتابا عدوا فيه احداث عثمان وخوفوه ربه واعلموه انهم موائبوه ان لم يقلع، فأخذ عمار الكتاب واتياه به، فقرأ سطرا منه.

فقال له عثمان: اعلى تقدم من بينهم؟ فقال عمار: لانى انصحهم لك.

فقال: كذبت يا ابن سميهٔ، فقال: انا والله ابن سميهٔ وابن ياسر.

فأمر غلمانه فمدوا بيديه ورجليه، ثم ضربه عثمان برجليه وهى فى الخفين على مذاكيره فاصابه الفتق، وكان ضعيفا كبيرا، فغشى عليه».

ويلوح للباحث فى ضوء ما ذكرناه ان السياسهٔ العامهٔ للدولهٔ كانت مبنيهٔ فى جوانبها الماليهٔ والاداريه على العبث بمقدرات المسلمين، وعلى الخروج على روح الاسلام لكسب ولاء الناس للامويين من جههٔ، وللتنكيل بمن يناوئونهم او ينتصرون للدين الحنيف وحتى «لسيرهٔ الشيخين» تلك السيرهٔ التى تسلم عثمان الخلافهٔ على اساس السير وفق مستلزماتها كما ذكرنا عند البحث فى الشورى من جههٔ اخرى قال الواقدى [۱۸۱]:

«انكر الناس على عثمان اعطاءه سعيد بن العاص منه الف درهم، فكلمه علىّ وآخرون فى ذلك، فقال:

ان له قرابهٔ ورحما، قالوا: افما كان لابى بكر وعمر قرابهٔ وذو رحم؟ فقال:

ان ابا بكر وعمر كانا يحتسبان فى منع قرابتهما، وانا احتسب فى اعطاء قرابتى».

فهل هذه السياسهٔ تتفق مع «سيرهٔ الشيخين»؟ ويبدو الباحث كذلك.. ان سيرهٔ عثمان فى رعيته لم تكن فى كثير من وجوهها غير منسجمهٔ مع «سيرهٔ الشيخين» فحسب، بل كانت «فى كثير من الاحيان» غير متفقهٔ كل الاتفاق مع نصوص القرآن وسنهٔ الرسول وجملهٔ القول:

ان عثمان فى كثير من تصرفاته بالاضافهٔ الى سياسته الماليهٔ التى ذكرناها «وبالاضافهٔ الى سياسته الاداريهٔ التى سنذكرها، كان مجافيا لروح الاسلام

[صفحه ۱۰۷]

ذلك ما يتصل بالسياسة المالية لابن عفان:

اما ما يتصل بالسياسة الادارية «والسياسية» فقد اعتمد عثمان فى ادارته على ذوى قرابته بالدرجة الاولى وليس فى ذلك ضير، وان كان الناس منذ قديم الزمان ينكرون على حكامهم ايثار ذوى قرباهم بشئون الحكم والادارة وما ينتج عنهما. هذا اذا كان ذوو القرابة من اصحاب الكفاءة والسيرة الحسنة، فكيف بهم اذا كانوا من النوع الذى اعتمد عليه عثمان!؟ فبعضهم نزل بهم قرآن فى نفاقهم وكذبهم.

وهانحن نقص على القارىء جانبا من سيرتهم على سبيل التمثيل لا الحصر.

لنبدأ بالوليد بن عقبة بن ابى معيط والى الكوفة، متتبعين تاريخه منذ عهد الرسول. ذكر ابن هشام [۱۸۲] ان النبى بعث «الى بنى المصطلق، بعد اسلامهم، الوليد بن عقبة بن أبى معيط ... يطالبهم بالصدقة.. فرجع الى الرسول فأخبره ان القوم قد هموا بقتله، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ... فبيناهم على ذلك قدم وفدهم الى رسول الله، فقالوا:

يارسول الله سمعنا برسولك فخرجنا اليه لنكرمه ونؤدى ما قبلنا من الصدقة، فانشمر راجعا، فبلغنا انه زعم انا خرجنا لنقتله.

فانزل الله فيه: «يا ايها الذين آمنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا ان تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين [۱۸۳]».

وذكر بعض الرواة [۱۸۴] ان امرأة الوليد بن عقبة جاءت الى النبى تشتكى اليه الوليد لانه كان يضربها، فأمرها النبى بالرجوع اليه واخباره بأن الرسول قد اجارها، فانطلقت

[صفحه ۱۰۸]

ثم رجعت «فقالت: انه ما اقلع عنى، فقطع الرسول هدبة من ثوبه، وقال:

اذهبى بها اليه وقولى: ان رسول الله قد اجارنى، فانطلقت، فمكثت ساعة ثم رجعت، فقالت: مازادنى الا ضربا».

وذكر المسعودى [۱۸۵] فى معرض التحدث عن هذا المنافق اثناء توليته «من قبل عثمان» امرة الكوفة:

ان الوليد بن عقبة كان يشرب مع ندمائه ومغنيه من اول الليل الى الصباح، فلما اذن المؤذن للصلاة خرج منفصلا فى غلائله، فتقدم الى المحراب فى صلاة الصبح، فصلى بهم اربعا، وقال: تريدون ان ازيدكم؟ وقيل: انه قال فى سجوده وقد اطال: اشرب واسقنى؟ فقال له بعض من كان خلفه فى الصف الاول:

والله لا اعجب الا ممن بعثك الينا والياً وعلينا اميراً.

وخطب الناس الوليد: فحصبه الناس بحصباء المسجد، فدخل قصره يترنح ويتمثل بأبيات تأبط شراً:

ولست بعيداً عن مدام وقينة

ولا بصفا صلد عن الخير معزل

ولكننى اروى من الخمر هامتى

وامشى الملا بالساحب المتسلسل [۱۸۶].

وكان الوليد زانيا يشرب الخمر، فشرب بالكوفة وقام ليصلى.. فتقيأ فى المحراب بعد ان قرأ بهم رافعا صوته:

علق القلب الربابا

بعد ما شابت وشابا

فشخص اهل الكوفة الى عثمان فأخبروه بخبره وشهدوا عليه بشرب الخمر، فأتى به، فأمر رجلا من المسلمين ان يضربه الحد، فلما دنا منه قال:

نشدتك الله وقرابتى ... فتركه، فخاف على ان يعطل الحد فقام اليه فحده بيده ... فخرج رهط من اهل الكوفة الى عثمان فى امر الوليد، فقال؛

[صفحه ۱۰۹]

اكلما غضب رجل على اميره رماه بالباطل!!.. فاستجاروا بعائشة، واصبح عثمان فسمع من حجرتها صوتا وكلاما فيه بعض الغلظة.

فقال: اما يجد فساق العراق ومراقها ملجأ الا بيت عائشة!! فسمعت عائشة، فرفعت نعل رسول الله وقالت: تركت سنة صاحب هذا النعل [۱۸۷]؟».

ويذكر بعض الرواة ان سبب امارة الوليد بن عقبة الكوفة من قبل عثمان «انه لم يكن يجلس مع عثمان على سريره الا العباس بن عبد المطلب، وابو سفيان بن حرب، والحكم بن ابى العاص، والوليد بن عقبة.

ولم يكن سريره يسع الا عثمان وواحدا منهم، فأقبل الوليد يوما فجلس فجاء الحكم بن ابى العاص، فأومأ عثمان الى الوليد فرحل له عن مجلسه، فلما قام الحكم قال الوليد:

لقد تلجلج فى صدرى بيتان قلتهما حين رأيتك آثرت عمك على ابن عمك.

وكان الحكم عم عثمان، والوليد اخاه لامه، فقام عثمان:

ان الحكم شيخ قريش، فما البيتان؟ قال الوليد:

رأيت لعم المرء زلفى قرابة

دوين اخيه حادثا لم يكن قدما

فأملت عمرا ان يشب [۱۸۸] وخالدا

لكى يدعوانى يوم نائبة عما

فرق له عثمان، وقال: قد وليتك الكوفة [۱۸۹]».

ذلك ما يتصل بالوليد بن عقبة كيفية توليته امارة الكوفة وموقفه من الرسول والاسلام فى عهد النبى، وعبثه بالشريعة السمحاء فى تصرفاته التى وصفنا طرفا منها،

[صفحه ۱۱۰]

حتى ليقال ان الوليد بن عقبة ... « حين دخل الكوفة واليا عليها مكان سعد قال له سعد: ازائرا ياابا وهب؟ ام اميرا؟

قال الوليد: بل اميرا يا ابا اسحاق، قال سعد:

والله ما ادرى، احمقت بعدك، ام كست بعدى؟؟ قال الوليد ما حمقت بعدى، ولا كست بعدك؟ وانما ولى القوم الامر فاستأثروا، قال سعد: ما اراك الا صادقا [۱۹۰]».

اما ما يتصل بالولاة الاخرين فمعروف نذكر منهم: عبد الله بن عامر الذى ولاه عثمان البصرة، وكان شابا حدثا «لم يتجاوز سنه الخامسة والعشرين بعد، وان فى المهاجرين والانصار وغيرهم من العرب من هم اكبر منه سنا واكثر تجربة واقدم منه سابقا فى الدين [۱۹۱]».

اما عبد الله بن سعد بن ابى سرح الذى ولاه عثمان مصر فكان عثمان نفسه يعلم ان الله انزل فى دمه قرآنا ... وان النبى كان قد اهدر دمه يوم الفتح [۱۹۲]».

تلك جوانب من تصرفات ولاة عثمان.

اما تصرفات عثمان نفسه تجاه بعض كبار الصحابة الذين انكروا عليه بعض اعماله او اعمال ولاته لعدم انسجامها مع مبادىء الدين الحنيف، فهى الاخرى كانت على جانب كبير من الغلظة: فقد خالف عبدالله بن مسعود عثمان بن عفان رأيه فى جمع القرآن، فلم يعالجه عثمان بالاقناع او يصرفه بالمعروف.

بل امر به ان يؤدب لاجترائه. فصر به بعض عبيده وضربوا به الارض امعانا منهم فى الشدة عليه حتى كسروا اضلاعه. ثم لم تقر عين الخليفة حتى اتبع هذا التعذيب بقطع العطاء عنه.».

[صفحه ۱۱۱]

وراع ابا ذر اسراف عثمان وتبديده اموال المسلمين على ذوى قرباه فأنكر ذلك عليه واستكثره واستشهد بآيات من القرآن.

«وقد شكا مروان بن الحكم الى عثمان مقالة ابى ذر هذه، فأرسل عثمان اليه مولاه ينهاه. فقال ابو ذر: لئن ارضى الله بسخط عثمان احب الى من ان ارضى عثمان بسخط الله. فنفاه عثمان الى الربذة فمات هناك.» [۱۹۳].

وعندما بلغ عثمان موت أبى ذر بالربذة قال رحمه الله على ما يحدثنا البلاذرى [۱۹۴] فقال: عمار بن ياسر نعم.. فرحمة الله من كل انفسنا. فقال له عثمان:

يا عاض ایر ابيه اترانى ندمت على تسييره!

وامر فدفع فى قفاه وقال: الحق بمكانه، فلما تهيأ للخروج جاء بنو مخزوم الى على فسألوه ان يكلم عثمان فيه.

فقال له على: ياعثمان اتق الله فانك سيرت رجلا صالحا من المسلمين فمات فى تسييرك. ثم انت الان تريد ان تنفى نظيره.

وجرى بينهما كلام حتى قال عثمان لعلى: انت احق بالنفى منه.

فقال على: رم ذلك ان شئت.

واجتمع المهاجرون فقالوا:

ان كنت كلما كلمك رجل سيرته ونفيته فان هذا شيء لايسوغ. فكف عن عمار.».

وتداول الزبير بن العوام الرأى كما ذكرنا، مع نفر من الصحابة، فى سوء الاوضاع العامة فانتهى بهم الامر الى كتاب رفعوه الى عثمان فحمله عمار بن ياسر اليه

فلما دخل عمار على عثمان ومعه مروان، قال مروان لعثمان:

[صفحه ۱۱۲]

ان هذا العبدالاسود قد جرأ عليك الناس، وانك ان قتلته نكلت به من وراءه..

فما اسرع ان قره عثمان على رأيه العجيب البغيض.

وتناول عصاه فضرب بها الشاكى واعانه على الضرب اهل بيته، ومن حضر مجلسه من بنى امية. حتى فتقوا بطن الرجل والقوه على جانب الطريق فى ذلك اليوم البارد الممطر [۱۹۵].

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مع الدكتور طه حسين:

ان عثمان مهما يكن اعتذار اهل السنة والمعتزلة عنه فانه قد اسرف وترك عماله يسرفون فى العنف بالرعية ضربا ونفيا وحبسا. وهو نفسه قد ضرب او بضرب رجلين من اعلام صحابة النبى.

ضرب عمار بن ياسر حتى اصابه الفتق، وامر من اخرج عبدالله بن مسعود من مسجد النبى اخراجا عنيفا حتى كسر بعض اضلاعه.

ومهما يكن من امر هذين الرجلين الجليلين.. فما نعلم انه حاكمهما واقام عليهما الحجة واباح لاحد منهما الدفاع عن النفس وانما سمع فيهما قول عماله او قول حاشيته. ثم عاقبهما دون ان يقيم البينة.

وليس له من هذا كله شيء.. وهو نفسه شق على أبى ذر حتى نفاه لا لشيء، الا لانه انكر سياسته العامة فى الاموال..

ثم هو أذن لعماله ان يخرجوا الناس من ديارهم كلما آنسوا منهم بعض ما يكرهون. فجعل عماله يتقاذفون فريقا من اهل الكوفة يرسلهم سعيد الى معاوية ثم يردهم معاوية الى سعيد، ثم يرسلهم سعيد الى عبدالرحمن بن خالد دون ان يحاكموا او تقوم عليهم البينة، ويسمع منهم دفاعهم عن انفسهم [۱۹۶]».

[صفحه ۱۱۳]

وقد روى لنا البلاذرى [۱۹۷] قصة عزل عثمان عبدالله بن مسعود عن بيت المال فى الكوفة واسباب ذلك العزل ونتائجه. اما التعليق على ذلك فنتركه للقارىء:

«لما قدم الوليد بن عقبة واليا على الكوفة الفى ابن مسعود على بيت المال» فاستقرضه مالا ... سس فأقرضه.. ثم انه اقتضاه اياه، فكتب الوليد فى ذلك الى عثمان فكتب عثمان الى عبدالله بن مسعود: انما انت خازن لنا فلا تعرض للوليد فى اخذ المال. فطرح ابن مسعود المفاتيح وقال:

كنت اظن انى خازن للمسلمين. فأما اذا كنت خازنا لكم فلا حاجة لى فى ذلك

واقام بالكوفة بعد القائه مفاتيح بيت المال» فكتب الوليد بذلك الى عثمان «فكتب اليه عثمان يأمره باشخاصه وشيعته اهل الكوفة فأوصاهم بتقوى الله ولزوم القرآن. فقالوا له:

جزيت خيرا. فلقد علمت جاهلنا، وثبت عالمنا، واقرأتنا القرآن، وفقهتنا فى الدين...

وقدم أبن مسعود المدينة وعثمان يخطب على منبر الرسول. فلما رآه قال:

انه قدمت عليكم دويبة سوء..

فقال ابن مسعود: لست كذلك ولكننى صاحب رسول الله:

ثم أمر عثمان به فأخرج من المسجد اخراجا عنيفا وضرب به عبدالله بن زمعة الارض [۱۹۸].

فأقام عبدالله بن مسعود بالمدينة «لا يأذن له عثمان فى الخروج منها الى ناحية من النواحى ... حتى توفى قبل مقتل عثمان بسنتين..

ولما مرض ابن مسعود مرضه الذى مات فيه اتاه عثمان عائدا.

فقال: ما تشتكى؟ قال: ذنوبى.

[صفحه ۱۱۴]

قال فما تشتهى؟ قال: رحمة ربى. قال: افلا آمر لك بعطائك؟ قال:

منعتنيه وانا محتاج اليه، وتعطنيه وانا مستغن عنه.

قال: يكون لولدك. قال: رزقهم على الله. فقال عثمان: استغفر الله لى يا ابا عبدالرحمن.

قال: اسأل ان يأخذ لى منك بحقى. واوصى ان لايصلى عليه عثمان» [۱۹۹].

لقد أنكر المسلمون على عثمان تصرفاته التى ذكرنا جانبا منها، لخروجها على روح الاسلام، وسنة الرسول و «سيرة الشيخين».

كما انكروا تصرفات اخرى كثيرة.. كان بعضها خروجا سافرا على القرآن وسنة النبى.

وقد لخصها الدكتور طه حسين بقوله: «لقد انكر خصوم عثمان عليه انه لم يكن يبدأ خلافته حتى عطل حداً من حدود الله. وخالف نصا من نصوص القرآن خلافا خطيرا. وذلك حين عفا عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب ولم يقتص منه للهرمزان وجفينة، وبنت ابى لؤلؤة.

فقد كان الهرمزان اميرا فارسا مسلما وكان الاخران ذميين. والله قد عصم دماء المسلمين ودماء الذميين وبين الحدود التى تقام حين يعتدى أحد على بعض أولئك او هؤلاء.. فقال المعارضون: ان اقامة الحد على عبيد الله واجبة بنص القرآن [۲۰۰].

وقال عثمان: قتل ابوه امس واقتله اليوم [۲۰۱] والمهم هو ان عثمان عفا عن

[صفحه ۱۱۵]

عبيد الله ثم عاب المسلمون المعاصرون لعثمان عليه بعد هذه القصة مخالفته للسنة المعروفة المستفيضة عن النبى وعن الشيخين وعن عثمان نفسه فى صدر من خلافته، وذلك حين اتم الصلاة فى منى وقد قصرها النبى، والشيخان وقصرها عثمان نفسه اعواما..

وقد ينبغى ان تعلم ان مصدر هذا الذى اصاب اصحاب النبى حين رأوا عثمان يتم الصلاة بمنى هو مخالفة السنة الموروثة اولا. وشىء آخر عظيم الخطر جدا فى نفوس المهاجرين، وهو:

ان النبى بعد الهجرة قد اتخذ المدينة له ولاصحابه دار اقامة، واتخذ مكة وما حولها دار غربة، وكره لنفسه واصحابه ان يصلوا الاقامة

بمكة حتى لايظن انهم يرجعون او يهمون بالرجوع اليها بعد ان هاجروا منها، وكره ان يموت بعض اصحابه المهاجرين فى مكة.

وانكر خصوم عثمان عليه شيئا آخر يتصل بركن آخر من اركان الدين. فقالوا:

انه اخذ الزكاة على الخيل، وكان النبى قد اعفى من زكاة الخيل وسار الشيخان سيرته.

وعاب المسلمون على عثمان انه حمى الحمى، والله ورسوله قد اباحا الماء والهواء والكلأ للناس جميعا..

وهناك اعتراض آخر وجهه خصوم عثمان اليه وهو انه اخذ من اموال الصدقة فأنفق منها فى الحرب وفى غير الحرب من المرافق العامة. [۲۰۲].

قال المعترضون: ان لاموال الصدقة مصارف معينة بينها الله فى قوله:

«انما الصدقات للفقراء، والمساكين، والعاملين عليها، والمؤلفة قلوبهم، وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم [۲۰۳]»

وعاب خصوم عثمان عليه: انه حمل الناس على مصحف واحد.. فحرق ما عدا هذا المصحف من الصحف التى كتب فيها القرآن..

فليس على عثمان بأس

[صفحه ۱۱۶]

فى دينه من هذه الناحية. وقد يمكن ان تعترض عليه فى انه كلف كتابة المصحف نفرا قليلا ـ من اصحاب النبى وترك جماعة من القراء الذين سمعوا من النبى وحفظوا عنه وعلموا الناس فى الامصار.. وهنا نفهم غضب ابن مسعود. فقد كان ابن مسعود من احفظ الناس للقرآن ... اخذ من فم النبى سبعين سورة من القرآن ولم يكن زيد بن ثابت قد بلغ الحلم بعد. فايثار عثمان لزيد بن ثابت واصحابه وتركه لابن مسعود وغيره من الذين سبقوا الى استماع القرآن عن النبى وحفظه عنه قد اثار عليه بعض الاعتراض..

وربما تحرج المسلمون من تحريق ما حرق عثمان من الصحف..

واذا لم يكن على عثمان جناح فيما فعل من جهة الدين ولا من جهة السياسة فقد يكون لنا ان نأسف لتحريق تلك الصحف، لانه ان لم يكن قد اضاع على الاسلام شيئا من دينهم فقد اضاع على العلماء والباحثين كثيرا من العلم بلغات العرب ولهجاتها على ان الامر اعظم خطرا وارفع شأنا من علم العلماء وبحث الباحثين عن اللغات واللهجات..

وانكر المنكرون على عثمان خصلة اخرى ما نعرف ان العذر يمكن ان يقوم له فيها. ذلك انه رد عمه الحكم بن أبى العاص واهله الى المدينة وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد اخرجهم منها اخراجا عنيفا.

وكان بيت الحكم بن أبى العاص فى الجاهلية مجاورا لبيت النبى. فكان الحكم يؤذى جاره الكريم اشد الاذى واقبحه..

وقد اقبل الحكم بعد فتح مكة مسلما ولكن اسلامه لم يكن الا جنة يتقى بها الموت. وآية ذلك أنه استمر يؤذى النبى بقوله وفعله، فكان يسعى وراءه ويغمزه ويقلد حركاته ساخرا منه..

فقد كان أيسر الرعاية لحرمة النبى يقتضى الا يرده عثمان الى المدينة، ليساكن النبى فيها ميتا بعد أن أبى النبى أن يساكنه فيها حيا.

وقد دلت سيرة عثمان مع الحكم وبنيه بعد ذلك على انه انما ردهم الى المدينة

[صفحه ۱۱۷]

ايثارا لهم بالخير وتكاثرا بهم على غيره من المسلمين واستعانة بهم على امور السياسة.

وقد ولى عثمان الحارث بن الحكم شئون المدينة فأسرف على الناس وعلى نفسه وسار سيرة لاتلائم الامانة، ولا التورع ... ثم لا يقف عثمان عند هذا الحد.

وانما اعطى الحارث مالا كثيرا.

ثم اختص عثمان بمروان بن الحكم فأعطاه، وحباه، واتخذه لنفسه وزيرا ومشيرا.. ولم يكن عثمان ليقف بأحداثه عند هذا الحد وانما

تجاوزه، هو وعماله الى اشياء كثيرة تمس حقوق الناس ومصالحهم وحرياتهم» [۲۰۴].

ومما زاد الوضع الحرج حراجة ان قسما من اهل بيت عثمان ومن المقربين اليه وممن ساعد على جعله خليفة قد بدأ يؤلب الناس عليه.

«فهذا محمد بن ابى حذيفة.. آذاه ان يؤثر الخليفة عليه سواه من اهله.. فكان يلقى الرجل عائدا من غزوة الروم فيتخابث ويسأل:

امن الجهاد؟ فيجيبه الرجل بنعم، فيشير بابهامه الى ناحية الحجاز ويقول:

لقد تركنا خلفنا الجهاد.. جهاد عثمان.. حتى مضى وحقده رائده الى مصر يلوذ بجماعات المخالفين، [۲۰۵].

والى هذه الحادثة يشير البلاذرى [۲۰۶] بقوله:

«وكانت غزاة ذات الصوارى فى المحرم سنة ۳۴ وعليها عبدالله بن سعد، فصلى بالناس، فكبر ابن ابى حذيفة تكبيرة افزعه بها.. وجعل ابن ابى حذيفة يقول:

يا اهل مصر انا خلفنا الغزو وراءنا يعنى غزو عثمان.

وبعث عثمان الى ابن ابى حذيفة بثلاثين الف درهم ويحمل عليه كسوة.

[صفحه ۱۱۸]

فأمر به فوضع فى المسجد وقال: يامعشر المسلمين الا ترون الى عثمان يخادعنى عن دينى ويرشدنى عليه فازداد اهل مصر عيبا لعثمان وطعنا عليه».

وذاك عبدالرحمن بن عوف يقول للناس: «لو استقبلت من امرى ما استدبرت لما وليت عثمان شسع نعلى.

وقال: وهو على فراش الموت: عاجلوه.. عاجلوه قبل ان يتمادى فى ملكه» [۲۰۷].

وذكر البلاذرى [۲۰۸]:

«حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن ابراهيم بن سعد ان ابيه قال:

لما توفى ابو ذر بالربذة، تذكر على وعبدالرحمن بن عوف فعل عثمان فقال على:

هذا عملك.

فقال عبدالرحمن: اذا شئت فخذ سيفك وآخذ سيفى. انه قد خالف ما اعطانى

وحدثنى مصعب بن عبدالله الزبيرى عن ابراهيم بن سعد عن ابيه ان عبدالرحمن اوصى ان لا يصلى عليه عثمان» [۲۰۹] وذلك عمرو بن العاص، الذى وجد على عثمان حين عزله عن مصر..

فكان يؤلب الناس ويحرضهم عليه ما وسعه ذلك سرا. على انه لم يتردد اذ قال لعثمان جهرة فى المسجد: انك ركبت بالناس امورا، وركبناها معك فتب الى الله فنتب. وتلقى عثمان ذلك اسوأ لقاء فلما اشتدت الفتنة، وعرف عمرو انها منتهية الى غايتها آثر ان يعتزلها فى طورها ذاك. فخرج الى ارض كان يملكها بفلسطين فأقام فيها وجعل يتنسم الاخبار.

وكان عمرو وابناه على ماهم عليه بفلسطين حتى جاءهم النبأ بقتل عثمان. فقال

[صفحه ۱۱۹]

عمرو: انا ابوك عبدالله ما حككت قرحة الا ادميتها. يريد انه مهد للفتنة والثورة لعثمان فأحكم التمهيد وانتهى الامر الى غايته» [۲۱۰].

ويحدثنا عمرو نفسه عن بعض ما فعله فى التأليب على عثمان وهو فى طريقه الى فلسطين فيقول: والله انى كنت لالقى الراعى فأحرضه على عثمان!» [۲۱۱] وقد هدد عمرو بن العاص عثمان، حين حضر الحصار الاول قائلا: انك ياعثمان ركبت بالناس النهابير.

فاتق الله وتب اليه. فقال:

يا ابن النابغة وانك ممن يؤلب على الطغام لانى عزلتك عن مصر. فخرج الى فلسطين فأقام بها فى ماله هناك، وجعل يحرض الناس على عثمان حتى رعاة الغنم. فلما بلغه مقتله قال:

أنا أبو عبدالله، انى اذا حككت قرحة نكأتها،» [۲۱۲].

وتلك عائشة ام المؤمنين خرجت بقميص النبى، فقالت للناس:

للناس «هذا قميص رسول الله لم يبل وعثمان قد ابلى سنته. ثم تقول: اقتلوا نعثلا. قتل الله نعثلا» [۲۱۳].

ولقد كانت عائشة «اشد نساء النبى انكارا على عثمان. ولم تتحرج ان تصيح به من وراء سترها على المنبر حين عاب عبدالله بن مسعود فأسرف فى عيبه.

ولم تكن تتحفظ من الاعتراض على كثير من أعمال عثمان، ومن سيرة عماله حتى ظن كثير من الناس انها كانت من المحرضين على الثورة به» [۲۱۴].

وكانت عائشة تؤلب الناس على عثمان «وتدعوا الى قتله بكل مكان.. ولم تبق بالمدينة لتكف عنه أذى الناس حين حصروه بداره.. وتمضى على الاثر الى مكة فلا يمنعها خروجها لاداء واجب دينى مقدس من محاولة التخذيل عن الشيخ، وبث كراهيته فى نفوس الحجيج القادمين من كافة الاقطار..

[صفحه ۱۲۰]

ثم راحت، وهى بموطن الاحرام لاتنى تستنبىء كل قادم، وتتنسم اخبار المدينة بلهفة.

فلما القى اليها ذات يوم بنبأ مكذوب نم عن انتصار الشيخ على خصومه، وقتله المصريين، صاحت بغضب واستنكار:

ايقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الظلم؟ «[۲۱۵] وكانت عائشة، قبل خروجها الى مكة، كما ذكرنا كثيرة النقد لعثمان. وقد اغلظت له ذات يوم على مايحدثنا البلاذرى [۲۱۶] «واغلظ لها. وقال:

وما أنت وهذا؟ أنما أمرك الله أن تقرى فى بيتك.. فغضبت واخرجت شعرا من شعر رسول الله وثوبا من ثيابه ونعلا من نعاله. ثم قالت: ما أسرع ما تركتم سنة نبيكم! وهذا شعره، وثوبه، ونعله، لم يبلى!!».

فنشأ عن ذلك كله تذمر عام انتشر فى ارجاء بلاد الاسلام وبخاصة فى الحجاز ومصر والعراق. والغريب فى الامر هو: ان عثمان لم يصغ لنصح الناصحين من اعلام الصحابة.. بل استمر خاضعا لتوجيهات مروان بن الحكم، وتصرفات عماله وامرائه الذين كانوا فى الواقع مصدر القلق وموضع الشكوى فى بلاد الاسلام.

ولما اخذ الامر يتفاقم على عثمان، وبدأ الميزان السياسى بالاختلال، جمع عثمان ۳۴ ه على ما يقول الرواة كبار امرائه:

معاوية بن أبى سفيان، وعبدالله بن أبى سرح، وعبدالله بن عامر، وسعيد ابن العاص ليستشيرهم فيما يجب عليه ان يتخذه من الاجراءات لتطليف حدة التوتر بينه وبين رعيته.

«فلما التأمت جماعتهم قال عثمان: أن لكل امام وزراء، وانكم وزرائى..

فاما معاوية فلم يزد على أن طلب اليه أن يرد العمال الى امصارهم..

وان يعتمد عليهم فى ان يضبط كل واحد مصره ويحزم امره..

واما سعيد بن العاص فأشار عليه ان يقتل قادة المعارضة وزعماء الفتنة.

[صفحه ۱۲۱]

واما عبدالله بن سعد بن أبى سرح: فأشار عليه ان يترضى الناس ويعطيهم من بيت المال ويأخذهم عن طريق اطماعهم.

واما عبدالله بن عامر: فأشار عليه بأن يرسل الناس الى الجهاد ويشغلهم بالحرب ويطيل اقامتهم بالثغور» [۲۱۷].

ويلاحظ القارىء أن هذا المؤتمر بالاضافة الى أن اعضاءه هم مصدر الشكوى والتذمر لم ينجح فى الاتفاق على حل للمشكلة التى واجهها عثمان.

وسبب ذلك على مايبدو هو: ان اعضاءه لم يتفهموا طبيعة المشكلة التى كانت تهدد خلافة عثمان وحياته على السواء.

وقد شغل اعضاؤه انفسهم كما رأينا فى ابتداع اساليب فاسدة جديدة لالهاء الناس فى أمور خارجية وصرفهم عن التحدث بمشكلات الساعة اى ان المؤتمرين واجهوا المشكلة بالهروب عنها وعدم التعرض لها.

ومما يلفت النظر: ان عثمان نفسه لم يبد رأيه فى المشكلة اطلاقا، ولم يتخذ اى اجراء وقائى او علاجى لمواجهة الموقف المتأزم، بله محاولة التغلب عليه.

وخطب عثمان فى المتذمرين: ولكنه بدلا من ان يعالج الموقف المتأزم قد ساعد على جعله اكثر تأزما وحراجة حين قال: «اما بعد: فان لكل امة آفة وان لكل نعمة عاهة.

وان آفة هذه الامة وعاهة هذه الملة قوم عيابون طعانون..

اما والله يا معشر المهاجرين والانصار لقد عبتم على اشياء ونقمتم فى امور قد اقررتم لابن الخطاب بمثلها. ولكنه وقمكم وقما..

اما والله لانا اكثر من ابن الخطاب عدداً»..

فعثمان، كما يبدو، من خطابه هذا، يشجب الذين انتقدوا سياسته لعدم

[صفحه ۱۲۲]

انسجامها مع القرآن والسنة وسيرة الشيخين كما رأينا ويصفهم بأنهم عيابون طعانون، دون ان يشير الى الامور التى يعيبونها عليه ويطعنون بها على سياسته العامة، ودون ان يناقش تصرفاته، وتصرفات عماله وذوى قرابته فى ضوء الاحداث القائمة آنذاك.

وانكى من ذلك ان عثمان حاول تبرير ما اخذه المسلمون عليه بقوله:

ان عمر بن الخطاب كان قد فعل مثله دون ان ينقم المسلمون عليه.

والانكى من كل ذلك انه ختم خطبته بالتهديد والوعيد.

وكان الاولى به ان يختمها بذكره وجوه الاصلاح الذى كان الناس يتوقون اليه، والوعد بالابتعاد عما اعتبره المسلمون المعاصرون لعثمان خروجا على الدين.

ومهما يكن من الامر فقد ازداد التذمر، وانتشر بين صفوف الجيش فى الثغور.

وعاد عبدالله بن سعد ظافراً بقهر اسطول الروم فى موقعة ذات الصوارى.

ولكنه عاد وقد افسد عليه أبن أبى حذيفة جيشه بما اظهر من النكير عليه وعلى خليفته، وبما كان يقوله للمحاربين:

انكم تسعون الى الجهاد والجهاد وراءكم فى المدينة حيث يقيم عثمان فيسوس الامة على غير كتاب الله، وسنة رسوله، وسياسة صاحبيه.

ويعزل اصحاب رسول الله من العمل، ويولى أمور المسلمين جماعة من الفساق واصحاب المجون.

انظروا الى واليكم وقائدكم الى الجهاد انه نزل القرآن بكفره واهدر النبى دمه.

ولكن عثمان يوليه امركم على ذلك لانه اخوه فى الرضاعة» [۲۱۸].

وقد نتجت عن ذلك كله بالاضافة الى ماذكرنا معارضة شعبية خفية تجرى بها الالسنة ولا يعرف صاحبها. كالذى كان حين وسع عثمان مسجد النبى فقال الناس:

[صفحه ۱۲۳]

يوسع مسجد النبى ويترك سنته، وكالذى كان حين كثر الحمام فى المدينة واقبل الشباب على الرمى فتقدم عثمان الى الناس فى ذبح الحمام.

وولى رجلا يمنع الرمى بالبندق، فقال الناس: يأمر بذبح الحمام، ويؤوى طريد رسول الله!! يشيرون بذلك الى ايواء عثمان للحكم بن أبى العاص وبنيه» [۲۱۹].

قال البلاذرى [۲۲۰] «حدثنى محمد بن سعد عن الواقدى عن محمد بن عبدالله عن الزهرى عن سعيد بن المسيب قال: خطب عثمان فأمر بذبح الحمام.. فقال الناس: يأمر بذبح الحمام وقد آوى طرداء رسول الله».

والسؤال الذى لابد من طرحه وتلمس الاجابة عليه هو:

«اين نشأت المعارضة لسياسة عثمان؟ انشأت فى المدينة مستقر الخلافة؟ ام نشأت فى الامصار؟ وبعبارة ادق..

هل نشأت المعارضة بين أصحاب النبى من المهاجرين والانصار ثم انتقلت عنهم الى الجند المرابطين فى الامصار؟

ام نشأت فى الجند ثم انتقلت الى اصحاب النبى فى المدينة؟

وواضح جداً ان للاجابة على هذا السؤال خطراً وأى خطر.

فان نشأة المعارضة فى المدينة معناها: ان اصحاب النبى قد كانوا اول من انكر على عثمان بعض سياسته فتبعهم الناس.

ونشأة المعارضة فى الامصار معناها: ان الجند هم الذين سبقوا الى الخلاف ثم اقحموا فيه وفى نتائجه اصحاب النبى.. ونرى ان المعارضة لم تنشأ فى المدينة وحدها، وانما نشأت فيها وفى الاقاليم، بل لعلها نشأت فى المدينة ثم فى اطراف الاقاليم» [۲۲۱].

[صفحه ۱۲۴]

ومن الادلة على ذلك ما سلف ان ذكرناه من مواقف كبار الصحابة من تصرفات ابن عفان. فقد مر بنا ذكر جانب من موقف ابى ذر، وعبدالله ابن مسعود، وعمار بن ياسر.

وفى التاريخ الاسلامى امثلة كثيرة اخرى من هذا القبيل، ويلوح للباحث ان النقمة على عثمان قد انتقلت فى عاصمة النبى من طبقات كبار الصحابة الى من يأتون بعدهم مباشرة فى المركز الاجتماعى والدينى.

وموقف جبلة بن عمرو الساعدى وامثاله معروف لدى الكثيرين.

وقد ذكر البلاذرى [۲۲۲] موقف جبلة هذا حين قال: «مر عثمان بن عفان على جبلة بن عمرو الساعدى وهو على باب داره وقد انكر الناس عليه ما انكروه. فقال: يا نعثل والله لاقتلك ولاحملنك على قلوص جرباء.. اطمعت الحارث ابن الحكم السوق وفعلت ما فعلت!! وكان عثمان ولى الحارث بن الحكم السوق. فكان يشترى الحليب بحكمه ويبيعه بسومه ويجبى مقاعد المتسوقين، ويصنع صنيعا منكراً.

فكلم فى اخراج السوق من يده فلم يفعل. وقيل لجبلة فى امر عثمان وسئل الكف عنه فقال: والله لا القى الله غداً فأقول: انا اطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا» [۲۲۳].

وقد دفع ذلك الامتعاض والاضطراب الذى حدث فى بعض الاقاليم الاسلامية اصحاب الرأى فيها الى ان يرسلوا بعض وجوههم وفوداً الى عاصمة الخلافة لمقابلة عثمان والتداول معه فى الامر لايجاد مخرج من هذه الازمة الحادة والفتنة الغليظة المظلمة.

غير أن تصرفات مروان بن الحكم وزير الخليفة وموضع سره ومصدر توجيهه قد أفسدت الامر. ومع ذلك فقد رجعت الوفود الى امصارها يحدوها اليأس الذى لا يخلو من أمل فى الاصلاح، وتساورها الرهبة من البطش ممزوجة بالرغبة فى التريث وانتظار مجريات الامور.

[صفحه ۱۲۵]

ولكن مؤامرات مروان لم تقف عند حد فاختلق على لسان الخليفة كتابه المعروف للايقاع بأهل مصر.

واطلع هؤلاء على المؤامرة قبل أن تطأ اقدامهم أرض الكنانة فانقلبوا راجعين.. فثار الناس على عثمان فقتلوه.. [۲۲۴].

لقد مر بنا التحدث عن مقتل عثمان ويجمل بنا قبل أن نتطرق الى ذكر انتقال الخلافة الى على بن ابى طالب أن ننبه القارىء الى أن مروان بن الحكم، ومعاوية بن أبى سفيان قد بدءا منذ ان سمعا بمقتل عثمان، وبيعة المسلمين لعلى بالتهيؤ للخروج على امام زمانهما متذرعين بالمطالبة بدم الخليفة القتيل.

وكانت باكورة اعمالهما ارسال جملة كتب الى من آنسا فيهم القدرة على مشاركتهما اساليبهما واهدافهما تمهيداً للقيام بعصيان مسلح ضد الخليفة الجديد.

والى القارىء نبذاً من تلك الرسائل:

كتب مروان الى معاوية.. «انى كتبت اليك هذا الكتاب بعد مقتل عثمان.

[صفحه ۱۲۶]

بعد أن وثبوا عليه وسفكوا دمه وانقشعوا عنه انقشاع سحابة قد افرغت ماءها منكفئين قبل ابن ابى طالب انكفاء الجراد ابصر المرعى.

فأخلق ببنى أمية أن يكونوا من هذا الامر بمجرى العيوق فان لم يثأره ثائر فان شئت أبا عبدالرحمن أن تكونه فكنه».

فلما ورد الكتاب على معاوية امر بجمع الناس ثم خطبهم خطبة ابكى منها العيون وقلقل القلوب حتى علت الرنة وارتفع الضجيج وهم النساء ان يتسلحن.

ثم كتب الى طلحة بن عبيد الله، والزبير بن والعوام، وسعيد بن العاص، وعبدالله ابن عامر، والوليد بن عقبة، ويعلى بن امية. فكان كتاب طلحة:

«أما بعد فانك اقل قريش فى قريش وتراً مع صباح وجهك، وسماحة كفك، وفصاحة لسانك، فأنت بازاء من تقدمك فى السابقة، وخامس المبشرين بالجنة، ولك يوم أحد وشرفه، وفضله، فسارع الى ما تقلدك الرعية من أمرها مما لا يسعفك التخلف عنه ولا يرضى الله منك الا بالقيام به. فقد احكمت لك الامر من قبلى، والزبير غير متقدم عليك بفضل. وايكما قدم صاحبه فالمقدم الامام وامر من بعده للمقدم له».

وكتب الى الزبير: أما بعد فانك الزبير ابن عمة رسول الله وحواريه وسلفه وصهر ابى بكر وفارس المسلمين.

اعلم ان الرعية اصبحت كالغنم المتفرقة لغيبة الراعى. فسارع الى حقن الدماء.

فقد احكمت لك الامر من قبلى ولصاحبك، على ان الامر المتقدم ثم لصاحبه من بعده..

ثم كتب معاوية الى مروان بن الحكم: أما بعد.. فقد وصل الى كتابك بشرح خبر أمير المؤمنين.. فاذا قرأت كتابى هذا فكن كالفهد لايصطاد الا غيلة ولا يتشازر الا عن حيلة، وكالثعلب لا يفلت الا روغاناً.

[صفحه ۱۲۷]

واخف نفسك منهم اخفاء القنفذ رأسه عند لمس الاكف. وامتهن نفسك امتهان من ييأس القوم من نصره وانتصاره ... وانفل الحجاز فانى منفل الشام..

وكتب الى سعيد بن العاص.. يابنى امية عما قليل تسألون ادنى العيش من ابعد المسافة فينكركم من كان بكم عارفا ويصد عنكم من كان لكم واصلا، متفرقين فى الشعاب تتمنون لمظة المعاش. ان امير المؤمنين عتب عليه فيكم وقتل فى سبيلكم. ففيم القعود عن نصرته والطلب بدمه؟!

وانتم بنو ابيه ذوو رحمة واقربوه وطلاب ثأره اصبحتم مستمسكين بشظف معاش زهيد عما قليل ينزع منكم عند التخاذل.. وكتب الى عبدالله بن عامر..

كأنى بكم يابنى امية شعار يرك كالاوراك تقودها الحدأة.. فثب الآن قبل أن يستشرى الفساد..

واجعل اكبر عدتك الحذر، وأحد سلاحك التحريض، واغضض عن العوراء وسامح اللجوج، واستعطف الشارد، ولاين الاشوس، وقو عزم المريد..

وكتب الى الوليد به عقبة.. فلو قد استتب هذا الأمر لمريده ألفيت كشريد النعام يفزع من ظل الطائر. وعن قليل تشرب الرنق وتستشعر الخوف.

وكتب الى يعلى بن اميـة.. فكـان اعظم مـا نقموا على عثمـان وعـابوه عليه ولايتـك على اليمن وطول مـدتك عليها.. حتى ذبحوه ذبح النطيحة.. وهو صائم معانق المصحف.. على غير جرم.. وأنت تعلم ان بيعته فى اعناقنا وطلب ثأره لازم لنا.. فشمر لدخول العراق.

فأما الشام فقد كفيتك أهلها، واحكمت امرها.

وقد كتبت الى طلحة بن عبيد الله ان يلقاك بمكة حتى يجتمع رأيكما على اظهار الدعوة والطلب بدم عثمان المظلوم.

[صفحه ۱۲۸]

وكتبت الى عبدالله بن عامر يمهد لكم العراق..

واعلم يا ابن اميـة ان القوم قاصدوك بادىء بدء لاستنزاف ما حوته يداك من المال.

وكتب اليه مروان جوابا على كتابه.. زعيم العشيرة وحامى الذمار.. أنا على صحة نيتى، وقوة عزيمتى، وتحريك الرحم لى، وغليان الدم منى غير سابقك يقول ولا متقدمك بفعل.

وأنت ابن حرب طلاب التراث وابى الضين. وكتابى اليك.

وانا كحرباء السبسب الهجير يرقب عين الغزالة، وكالسبع المفلت من الشرك يفرق من صوت نفسه.

منتظرا لما تصح به عزيمتك، ويرد به أمرك فيكون العمل به والمحتذى عليه..

وكتب اليه عبدالله بن عامر.. فان امير المؤمنين كان الجناح الحاضـنة تأوى اليها فراخها. فلما اقصده للسهم صرنا كالنعام الشارد.. والذى اخبرك به ان الناس فى هذا الامر تسعة لك وواحد عليك.

ووالله للموت فى طلب العز احسن من الحياة فى الذلة. وانت ابن حرب فتى الحروب، ونصار بنى عبد شمس، والهمم بك منوطة وانت منهضها.. ولنعم مؤدب العشيرة انت، وانا لنرجوك بعد عثمان.

وها انا اتوقع ما يكون منك لامتثله واعمل عليه.

وكتب الوليـد بن عقبة.. فانك اسد قريش عقلا، واحسـنهم فهما واصوبهم رأيا. معك حسن السيرة وانت موضع الرئاسة، تورد بمعرفة وتصدر عن منهل.

واما اللين فهيهات.. والعار منقصة، والضعف ذل.. قد عقلت نفسى على الموت عقل البعير، واحتسبت انى ثانى عثمان او أقتل قاتله.

[صفحه ۱۲۹]

فعملى على ما يكون من رأيك فانا منوطون بك متبعون عقبك...

وكتب اليه يعلى بن اميـة: انا وانتم يابنى امية كالحجر؛ لا يبنى بغير مدر، وكالسـيف لايقطع؛ الا بضاربه ... ثكلتنى من انا ابنها ان تمت عن طلب وتر عثمان..

ارى العيش بعد قتل عثمان مراً..

اما سعيد بن العاص فانه كتب بخلاف ماكتب هؤلاء» [۲۲۵].

[صفحه ۱۳۰]

خلافة الامام

«لقد كان على موفقا كل التوفيق، ناصحا للاسلام كل النصح..

صبر نفسه على ما كانت تكره.

وطابت نفسه للمسلمين بما كان يراه حقا..

بايع على ثانى الخلفاء كما بايع اولهم كراهية للفتنة.. ونصحا للمسلمين.

ولم يظهر مطالبته بما كان يراه حقا له. ونصح لعمر كما نصح لابى بكر..

وقد بايع عثمان كما بايع الشيخين. وهو يرى انه مغلوب على حقه. ولكنه على ذلك لم يتردد فى البيعة، ولم يقصر فى النصح للخليفة الثالث، كما لم يقصر فى النصح للشيخين من قبله.. فكان طبيعيا اذن حين قتل عثمان ان يفكر على فى نفسه، وفيم غلب عليه من حقه. ولكنه مع ذلك لم يطلب الخلافة، ولم ينصب نفسه للبيعة حين استكره على ذلك استكراها.

وحين هدده بعض الذين ثاروا بعثمان بأن يبدوا به فيلحقوه بصاحبه المقتول» [۲۲۶].

أما كيفية مبايعة المسلمين لعلى بالخلافة فيصفها الطبرى [۲۲۷] بقوله:

«حين قتل عثمان واجتمع المهاجرون والانصار ومنهم طلحة والزبير، فأتوا علياً وقالوا: يا أبا الحسن هل نبايعك؟ فقال: لاحاجة لى فى امركم، فمن اخترتم فقد رضيت به..

[صفحه ۱۳۱]

فقالوا: مانختار غيرك.. فاختلفوا اليه بعد ما قتل عثمان مراراً..

وخرج على الى السوق فى يوم السبت لثمانى عشرة ليلة خلت من ذى الحجة فاتبعه الناس وبشوا فى وجهه. فدخل حائط بنى عمرو بن مبذول وقال لابى عمرة ابن عمر بن محصن: اغلق الباب. فجاء الناس فقرعوا فدخلوا وفيهم طلحة والزبير فقالا: ياعلى ابسط يدك فبايعه طلحة والزبير.

فنظر حبيب بن ذئب الى طلحة حين بايعه فقال: اول من بدأ بالبيعة يد شلاء»

وقد اوجز الامام سياسته العامة فى اول خطبة خطبها حين استخلف فقال:

«ان الله انزل كتابا هاديا يبين فيه الخير والشر. فخذوا الخير ودعوا الشر.

والفرائض ادوها.. اتقوا الله عباد الله فى عباده وبلاده..

وانكم مسئولون حتى عن البقاع والبهائم» [۲۲۸].

كلمات قصار ولكنها تتضمن اجراء تغيير واسع المدى، وعميق الغور فى علاقات المسلمين ببعضهم وبالخليفة.

ومما تجدر الاشارة اليه فى هذا الصدد ان الامام كما يحدثنا مؤرخوه قد اعتذر مرارا عن قبول الخلافة على الرغم من الحاح المسلمين عليه.

وقد مر بنا طرف من ذلك.

ولقد اشار الامام نفسه الى ذلك فى مواطن شتى من «نهج البلاغة» قال يصف تزاحم المسلمين عليه والحاحهم الشديد على مبايعته:

«دعونى والتمسوا غيرى. فانا مستقبلون امرا له وجوه والوان، لاتقوم له القلوب ولا تثبت عليه العقول، وان الآفات قد اغامت، والمحجة قد تنكرت.

واعلموا انى ان اجبتكم ركبت بكم ما اعلم، ولم اصغ الى قول القائل، وعتب العاتب» [۲۲۹] فلما اصر القوم على مبايعته، ورأى ان واجبه الدينى يدعوه الى

[صفحه ۱۳۲]

تلبية الدعوة كشف لهم عن حقيقة نفسه فراعهم والب الكثيرين منهم عليه حين قال: «ذمتى بما اقول رهينة وانا به زعيم. ان من صرحت له العبر عما بين يديه من المثلات احجزته التقوى عن تقحم الشبهات.

الا وان بليتكم قد عادت لهيئتها يوم بعث الله نبيكم..

والذى بعثه بالحق لتبلبلن بلبلة ولتغربلن غربلة. ولتسلطن سوط القدر حتى يعود اسفلكم اعلاكم، واعلاكم اسفلكم. وليسبقن سباقون كانوا قصروا، وليقصرن قاصرون كانوا سبقوا [۲۳۰]»

فالامام اذن يرى انهم سوف يضيقون به ذرعا لعدالته وشدته فى التزام الحق فيعصون امره، ولا يستطيعون ان يثنوه عن خطته.

ثم يصف الامام: «فى خطبة اخرى» اقبال المسلمين على مبايعته فيقول:

«وبسطتم يدى فكففتها. ومددتموها فقبضتها. ثم تداككتم علىّ تداك الابل الهيم على حياضها يوم وردها، حتى انقطع النعل وسقط الرداء ووطىء الضعيف» [۲۳۱].

واشار الامام «فى خطبة اخرى» الى المعنى نفسه حين قال: «فما راعنى الا والناس كعرف الضبع ينثالون الى من كل جانب.

ولقد وطىء الحسنان وشق عطفاى مجتمعين حولى كربيضة الغنم.

فلما نهضت بالامر نكثت طائفة، ومرقت اخرى، وقسط آخرون» [۲۳۲].

[صفحه ۱۳۴]

قميص عثمان

اشاره

=۱ الفصل الرابع: الناكثون أصحاب الجمل ۳۶ ه

۲ الفصل الخامس: القاسطون أصحاب صفين ۳۷ ه

۳ الفصل السادس: التحكيم، المارقون، ومصرع الإمام: ۳۸ ۴۰ ه

[صفحه ۱۳۵]

الناكثون

اشترك طلحة، والزبير، وعائشة فى تأليب المسلمين على عثمان، كما ساهم كل منهم بقلبه ولسانه فى قتل الخليفة على الشكل الذى وصفناه.

وكان اشد الثلاثه وطأة على عثمان الزبير بن العوام، واخفهم طلحة بن عبيد الله. هذا مع العلم بأن عثمان كان يقول عن طلحة وهو اخفهم وطأة عليه كما ذكرنا:

«ويلى من طلحة! اعطيته كذا ذهبا وهو يروم دمى ... اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه» [۲۳۳].

ويلوح للباحث ان طلحة قد تظاهر بالمطالبة بدم عثمان فى اوائل خلافة الامام وهو ادرى من غيره بقتلة الرجل وبالدور الذى لعبه هو والزبير وعائشة فى هذا الشأن ليغالط الناس ويوهمهم «انه برىء من دمه. فلقد قال على لطلحة وعثمان محصور:

انشدك الله الا رددت الناس عن عثمان؟ قال طلحة:

لا والله حتى تعطى بنو امية الحق من انفسها.

ويروى الطبرى: ان عثمان كان له على طلحة خمسون الفاً. فخرج عثمان يوماً الى المسجد فقال له طلحة: قد تهيأ مالك فأقبضه» فقال: هو لك يا ابا محمد معونة لك على مروءتك.

قال: فكان عثمان يقول وهو محصور: جزاء سنمار.

وروى المدائنى فى كتاب «مقتل عثمان»: أن طلحة منع من دفنه ثلاثة ايام. وان حكيم بن حزام ... وجبير بن مطعم. استنجدوا بعلى على دفنه، فأقعد طلحة

[صفحه ۱۳۶]

لهما فى الطريق ناساً بالحجارة» [۲۳۴] ولم يكن طلحة على مايقول الدكتور طه حسين: «ليخفى ميله مع الثائرين ولا تحريضه لهم ولا

اطماع فريق منهم فى نفسه. وكثيرا ماشكا منه عثمان فى السر والجهر.

والرواة يتحدثون بأنه استعان عليه بعلى نفسه، وبأن عليا استجاب له فذهب الى طلحة ورأى عنده جماعة ضخمة من الثائرين. وحاول ان يرده عن خطته تلك فلم يستجب له طلحة» [۲۳۵].

واما عائشة فقد مر بنا ذكر موقفها من عثمان، فقد خرجت مرارا كما ذكرنا بقميص النبى مؤلبة على عثمان وقائلة.

اقتلوا نعثلا. وكثيرا ما كانت تصيح به من وراء سترها وهو على المنبر؛ كما ذكرنا، تلومه على بعض فعاله.

فقد كانت عائشة والحق يقال من اعظم المؤلبين على الخليفة الثالث والمخذلين عن نصرته حتى انه حين بلغها وهى فى بيت الله الحرام:

ان عثمان قد انتصر على اعدائه صرخت بأعلى صوتها.

ايقتل قوما جاءوا يطلبون الحق وينكرون الباطل.

وقد سأل سعيد بن العاص ام المؤمنين، قبل سفرها الى البصرة.

«أين تريدين يا ام المؤمنين؟ فقالت: اريد البصرة. وماذا تصنعين؟

اطلب بدم عثمان. فأجابها سعيد: ان قتلة عثمان معك يا ام المؤمنين» [۲۳۶].

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول: ان ابطال حركة الجمل كانوا قادة الثورة على عثمان ورءوس الفتنة التى انتهت بمصرع ثالث الخلفاء الراشدين.

[صفحه ۱۳۷]

وقد كان هؤلاء دون شك عارفين حق المعرفة كغيرهم من المسلمين آنذاك من هم قتلة عثمان؟

ترى لماذا البوا الناس على على؟!

وهل هناك عوامل خفية قريبة وبعيدة ساقتهم الى القيام بعصيانهم المسلح ضد النظام القائم متخذين من قميص عثمان ذريعة لذلك؟

ولماذا بايع طلحة، والزبير عليا بالخلافة؟

هل المطالبة بدم عثمان ان صحت تستلزم الثورة على النظام القائم ام تتم على اساس تقديم شكوى، من قبل اولياء عثمان الذين عينهم القرآن بصراحة فى سورة الاسراء [۲۳۷] الى الحكومة لتجرى التحقيق فى ذلك وتتخذ الاجراءات القانونية بحق الذين تثبت ادانتهم؟

وما حق عائشة وطلحة والزبير من الناحية الشرعية بالمطالبة بدم عثمان؟ ان ولى عثمان هو ابنه عمرو؟!

وما شأن البصرة الثورة على عثمان؟

لماذا لم يتجهوا الى مصر المؤلبة؟ وبقدر مايتعلق الامر بالسيدة عائشة نستطيع ان نقول: ان جفاء حصل بين عائشة وعلى منذ عهد الرسول ايام غزوة بنى المصطلق التى سنذكرها..

وهناك عامل آخر اشار اليه بعض الباحثين المحدثين [۲۳۸] ملخصه:

ان السيدة عائشة وجدت على الامام من الناحية النفسية فحسدته لعقمها، ولان عقب الرسول قد انحصروا فى بنيه من فاطمة زوج على، ولكى نعرض على

[صفحه ۱۳۸]

القارىء عوامل الجفاء بين السيدة عائشة وعلى بن ابى طالب نرى لزاما علينا ان نترك السيدة عائشة نفسها تقص على القارىء ملابسات الموضوع.

قالت السيدة عائشة [۲۳۹] «كان رسول الله اذا اراد سفرا اقرع بين نسائه فأيتهن خرج سهمها خرج بها معه. فلما كانت غزوة بنى المصطلق (۶ ه) اقرع بين نسائه كما كان يصنع فخرج سهمى عليهن. فخرج بى رسول الله.. فلما انتهى من سفر؟؟؟ وجه قافلاً حتى اذا

كان قريباً من المدينة نزل منزلا فبات فيه بعض الليل ثم اذن فى الناس بالرحيل.

فلما ارتحل الناس خرجت لبعض حاجتى وفى عنقى عقد لى.. فلما فرغت انسل عقدى ولا ادرى.

فلما رجعت الى الرحيل ذهبت التمسه فى عنقى فلم اجده.

وقد اخذ الناس فى الرحيل فرجعت.. الى المكان الذى ذهبت اليه، فالتمسته حتى وجدته.. ورجعت الى المعسكر وما فيه داع ولا مجيب؛ قد انطلق الناس. فلفلفت بجلبابى ثم اضطجعت فى مكانى، فوالله انى لمضطجعة اذ مر بى صفوان بن المعطل السلمى وقد كان تخلف عن المعسكر لبعض حاجته فلم يبت مع الناس فى المعسكر فلما رأى سوادى اقبل حتى وقف على فعرفنى.. ثم قرب البعير فقال: اركبى.. فركبت.

فانطلق سريعا يطلب الناس.. ثم قدمنا المدينة فلم امكث ان اشتكيت شكاية شديدة.. وقد انتهى الحديث الى رسول الله والى ابوى.

فأنكرت من رسول الله بعض لطفه بى. حتى وجدت فى نفسى مما رأيت من جفائه عنى. فقلت:

يا رسول الله لو اذنت لى فانتقلت الى امى فمرضتنى، قال:

لا عليك، فانتقلت الى امى.

وجاء رسول الله فدخل على: ودعا على بن ابى طالب.

[صفحه ۱۳۹]

فقال على: يا رسول الله ان النساء لكثير، وانك لقادر على ان تستخلف؛ وسل الجارية فانها تصدقك.

فدعا رسول الله بريرة يسألها.. فقام اليها على فضربها ضربا شديداً وهو يقول:

اصدقى رسول الله ... فوالله ما برح رسول الله مجلسه حتى تغشاه من الله ما يتغشاه. فسجى بثوبه ووضعت وسادة من ادم تحت رأسه.. ثم جلس فجعل يمسح العرق عن جبينه ويقول: ابشرى يا عائشة فقد انزل الله براءتك.

ثم امر بمسطح بن اثاثة، وحسان بن ثابت، وحمنة بن جحش وكانوا ممن افصح بالفاحشة فضربوا حدهم».

يتضح من رواية السيدة عائشة انها خرجت مع النبى فى مسيرة مع جيشه الى بنى المصطلق، وانها اثناء رجوع القوم الى المدينة شذت عن الركب لبعض حاجتها دون ان يعلم بها احد من الناس، ثم عادت الى الركب. ولكنها تفقدت عقدها اثناء عودتها فلم تجده فى جيدها. فعادت الى المكان الذى جاءت من عنده دون ان يراها احد من الناس فعثرت على العقد. ثم عادت الى الركب فلم تجده. فمكثت فى مكانها بعد ان سار الركب دون ان يتفقدها احد.

فمر بها صفوان الذى هو الاخر كما تحدثنا السيدة عائشة نفسها قد شذ عن الركب لبعض حاجته، وقد مر صفوان على رسله صدفة بالمكان الذى كانت السيدة عائشة جاثمة فيه. فأركبها على ناقته واتجه بها نحو المدينة كى يلحق بالركب.

وقد ارتاب بعض القوم، بما فيهم حسان بن ثابت فى موضوع عائشة وصفوان فرموهما بالفاحشة ... واشار على على النبى عندما استشاره بأمرها فى حضورها ان يطلقها.

ومن الجدير بالذكر فى هذه المناسبة ان البخارى فى صحيحه قد نقل رواية السيدة عائشة مفصلة. والى القارىء رواية البخارى [۲۴۰].

[صفحه ۱۴۰]

«قالت عائشة: كان رسول الله اذا اراد سفرا اقرع بين ازواجه فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. قالت عائشة:

فأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى. فخرجت مع رسول الله.. فسرنا حتى اذا فرغ رسول الله من غزوته تلك ودنونا من المدينة قافلين آذن ليلة بالرحيل. فقمت حين آذنوا بالرحيل فمشيت حتى جاوزت الجيش، فلما قضيت شأنى أقبلت الى رحلى فلمست صدرى فاذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع، فرجعت فالتمست عقدى فحبسنى ابتغاؤه. قالت:

واقبل الرهط الذين كانوا يرحلوننى فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت اركب عليه وهم يحسبون انى فيه.

وكـان النسـاء آنـذاك خفافا لم يهبلن ولم يغشـهن اللحم، انمـا يأكـل الملعقـة من الطعـام فلم يسـتنكر القوم خفـة الهودج حين رفعوه وحملوه.

وكنت جارية حديثة السن.. ووجدت عقدى بعدما استمر الجيش.

فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولامجيب. فتيممت منزلى الذى كنت به.

فبينما انا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت

وكان صـفوان بن المعطل السـلمى ثم الـذكوانى من وراء الجيش. فأصـبح عند منزلى. فرأى سواد انسان نائم فعرفنى، وكان رآنى قبل نزول آية الحجاب. فاستيقظت باسترجاعه.. وهوى حتى اناخ راحلته فوطىء على يدها.

فقمت اليها فركبتها. فانطلق يقودها». اى ان السـيدة عائشـة حسب روايـة البخارى شذت عن الجيش لبعض شأنها فى اللحظة التى آذنوا بالرحيل ليلا، دون ان تخبر أحـداً منهم بذلك او تطلب منهم انتظارها. وان الاشـخاص الموكلين يحمل هودجها لم يشـعروا بخلوه منها لان النساء آنذاك جميعهن لا السيدة عائشة وحدها كن نحيفات الاجسام لقلة ما يتناولنه من الطعام.

[صفحه ۱۴۱]

ولأن السـيدة عائشـة بالذات كانت صـغيرة اللسن، بالاضافة الى خفة وزن جسـمها فلم يسـتنكروا خفة الهودج حين رفعوه وحملوه وهو خلو منها.. ثم انها نامت بعد ان يئست من القوم، وكان صـفوان من وراء الجيش، فأدركها نائمة فعرفها وهو سائر فى الصـحراء ليلا لانه كـان قـد رآهـا قبـل الحجاب، اى حينما كانت سافرة قبل ان يأمرها الله بالتحجب من الرجال، فحملها صـفوان على بعيره واوصـلها الى مكان امنها.

ذلك مايتصل ببعض عوامل الجفوة بين ام المؤمنين وعلى بن ابى طالب.

وهنالك عوامل اخرى، غير مباشـرة، تتعلق بالجفاء الذى كان بين السـيدة فاطمة «بنت النبى من خديجة» وبين السـيدة ام المؤمنين بنت ابى بكر.

فقـد كانت السـيدة عائشة تريد الاستئثار بحب النبى وتحويل ما تبقى من ذلك الحب الى ابيها بدلا من على زوج فاطمة. ويذكر بعض الرواة [۲۴۱]: ان للسيدة عائشة والسيدة حفصة بنت عمر زوج النبى ضلعا فى تأخير جيش اسامة فى عهد الرسول.

هذا بالاضافة الى العامل النفسـى المتصل بحرمان السـيدة عائشة من النسل كما اشار الى ذلك الدكتور طه حسـين، والاستاذ عبدالفتاح عبدالمقصود.

اما مايتصل بموقف الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله تجاه امام زمانهما فيمكننا ان نكشف عوامله القريبة والبعيدة بسهولة ويسر.

فقـد كـان كـل من طلحـة والزبير راغبا فى الخلافـة منـذ زمن ليس بالقصـير وقـد مر بنا ترشـيح عمر لها فى رهط الشورى. فلما انتقلت الخلافة الى عثمان حاول الرجلان فى صدر خلافته ان ينتفعا به الى اقصى حدود الانتفاع.

وعندما رأى الرجلان تأزم الاحوال العامة على الخليفة ساهما فى ذلك الى حد كبير على الشـكل الذى وصفناه ظنا منهما ان الامر بعد اندحار عثمان سوف

[صفحه ۱۴۲]

لاينتقل لعلى غير ان انتقال الخلافة للامام قد راعهما. فبايعاه على مضض. ثم سألاه عن ولايتى الكوفة والبصرة فلم يجبهما.

يضاف الى ذلك ان موقف الامام الشديد فى تطبيق مبادىء الدين كان هو الآخر من اقوى عوامل انتقاض الرجلين على الخليفة. فلكل منهما مصالح مركزة فى جسم الدولة.

ويلوح للباحث ان طلحة والزبير كانا قد اعتادا على الاستئثار ببعض الموارد العامة بعد وفاة الرسول.

وقد مر بنا ذكر بعض ما وصلهما به عثمان.

اما ماحصلا عليه فى عهد الشيخين فنذكر منه المثالين التاليين:

قال البلاذرى [۲۴۲]: «حدثنى الحسين بن على الاسود العجلى قال: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا ابو معاوية عن هشام بن عروة عن عروة قال: اقطع ابو بكر: الزبير، بين الجرف الى قناة. واخبرنى المدائنى قال:

قناة واد يأتى من الطائف ويصب الى الارحضية وقرقرة الكدر ثم يأتى سد معاوية ثم يمر على طرف القدوم ويصب فى اصل قيدر الشهداء بأحد.

وحدثنى الحسين بن على العجلى قال: حدثنا حفص بن عتاب عن هشام بن عروة قال: خرج عمر يقطع الناس، وخرج معه الزبير، فجعل عمر يقطع حتى مر بالعقيق. فقال اين المستقطعون؟.. ما مررت بقطعة اجود منها.

فقال الزبير: اقطعنيها. فأقطعه اياها «.

فلا عجب ان رأى الزبير وطلحة فى قميص عثمان ضالتهما المنشودة للانقضاض على الامام.

وقد روى احد المؤرخين [۲۴۳] ملابسات الموقف بين على من جهة وطلحة والزبير

[صفحه ۱۴۳]

من جهة اخرى حين قال: «ارسل طلحة والزبير الى على قبل خروجهما الى مكة محمد بن طلحة يقولان: اننا اصلحنا لك الامر ووطدنا لك الامرة، واجلبنا على عثمان حتى قتل. فلما طلبك الناس لامرهم جئنا واسرعنا اليك وبايعناك وقدنا اليك اعناق العرب، ووطىء المهاجرون والانصار اعقابنا فى بيعتك. حتى اذا ملكت عنانك استبددت برأيك عنا ورفضتنا رفض التريكة واذللتنا ذل الاماء.

فلما جاء محمد بن طلحة ابلغه ذلك. فقال: اذهب اليهما فقل لهما: فما الذى يرضيكما، فذهب وجاء فقال: انهما يقولان: ول احدنا البصرة، والآخر الكوفة. فقال:

لها الله!! اذن يحكم الاديم ويستشرى الفساد، وتنتقض على البلاد من اقطارها.

والله انى لا آمنهما وهما عندى بالمدينة فكيف آمنهما وقد وليتهما العراقين!. فاستأذناه فى الخروج الى مكة للعمرة. فأذن لهما بعد ان احلفهما الا ينقضا بيعته ولايغدرا به، ولا يشقا عصا المسلمين ولايوقعا الفرقة بينهم، وان يعودا بعد العمرة الى بيوتهما فحلفا على ذلك كله. ثم خرجا ففعلا ما فعلا.

وكان الامام قد خاطبهما قبل خروجهما الى مكة فقال:

الا- تخبرانى اى شىء كان لكما فيه حق حتى دفعتكما عنه؟ ام اى قسم استأثرت عليكما به؟ ام اى حق رفعه الى احد من المسلمين ضعفت عنه ام جهلته ام اخطأت بابه؟ والله ما كانت لى فى الخلافة رغبة، ولافى الولاية اربة. ولكنكم دعوتمونى وجملتمونى عليها. فلما افضت الى نظرت الى كتاب الله وما وضع لنا وامرنا بالحكم به فاتبعته. وما استن النبى فاقتديته.

فلم احتج فى ذلك الى رأيكما ولا رأى غيركما.

ولو وقع حكم جهلته فأستشيركما».

وقد وصف الامام فتنة طلحة والزبير واعوانهما بقوله:

[صفحه ۱۴۴]

«والله ما انكروا على منكرا، ولا جعلوا بينى وبينه نصفا، وانهم ليطلبون حقا هم تركوه ... ودما هم سفكوه، [۲۴۴].

خرج الزبير وطلحة وعائشة يريدون البصرة مدعين بأنهم يطالبون بدم عثمان. وقد ارتكبوا بعملهم هذا. كما سلف ان ذكرنا جملة اخطاء من الناحية الدينية والزمنية، فليس من حقهم ان يطالبوا بدم عثمان لانهم ليسوا اولياءه الذين اجازت لهم الشريعة الاسلامية ان يطالبوا بذلك.

ان وليه كما ذكرنا ابنه عمرو. وانهم اتبعوا اسلوبا فظا للتوصل الى مازعموا انهم يسعون اليه بدلا من ان يرفعوا اذا جاز لهم ذلك طلبهم

الى الخليفة الذى له وحده الحق بحكم كونه خليفة المسلمين فى اجراء التحقيق وانزال العقوبة بالجناة.

وانهم ارتكبوا من الافعال البشعة ومن القتل، والنهب والاعتداء كما سنرى ما يتضاءل دونه بمراحل مصرع الخليفة الذبيح على اهميته، ومالا تجيزه الشريعة السمحاء ومبادىء الشرف والاخلاق.

وانهم قصدوا البصرة دون مصر للبحث عن القاتلين.

وان السيدة عائشة بالذات لايجوز لها ان تساهم فى مثل هذه الامور، وقد اوصاها الله ان تقر فى بيتها [۲۴۵].

[صفحه ۱۴۵]

ثم هل يجوز شرعا ان تعالج فتنة باثارة فتنة اغلظ منها؟ وقد حصل ذلك كله مع علم الثائرين ان الامام نفسه برىء من دم عثمان براءة الذئب من دم ابن يعقوب. [۲۴۶].

يضاف الى ذلك ان الامام فى سياسته العامة لم يتجه اطلاقا الى الاستعانة بالذين ثاروا على عثمان او تقريبهم او الاعتماد عليهم فى الادارة او المال. [۲۴۷].

فلا غرو ان رأينا اولئك الثوار قد نقموا عليه، كما نقموا على عثمان من قبله «مع فرق كبير فى عوامل تلك النقمة فى الحالتين». فقد نقموا على عثمان: خروجه فى سياسته العامة على مبادىء الدين، ونقموا على على: تقيده فى سياسته العامة بمبادىء الدين.

لذلك نجد الامام لم يقربهم اليه او يعين بعضهم فى القضاء اوالامارة او الادارة

وقد اصبح الوضع الجديد اشد وطأة عليهم منه فى عهد عثمان.

اى ان الامام، بعبارة اخرى، قد ارتقى منبر النبى بعد ثورة لم يساهم فيها.

اى انه اقتطف ثمار ثورة لم يقتطفها الذين قاموا بها. يضاف الى ذلك ان الثوار اخذوا يشعرون بأن الامام سوف يقتص من قتلة عثمان بعد حصول البينة عنده.

وطلحة، والزبير، وعائشة يعرفون ذلك حق المعرفة. وعلى نفسه عارف بأنهم عارفون به.

ومهما يكن من شىء فقد خرج الناكثون وعلى رأسهم طلحة وابن الزبير وبنت ابى بكر من مكة يريدون البصرة. ومرت ابلهم فى طريقها على ماء الحوأب [۲۴۸]» فنبحتهم كلابه. فنفرت صعاب ابلهم.

فقال قائل منهم: لعن الله الحوأب فما اكثر كلابها!!

فلما سمعت عائشة قالت:

ردونى ... انى سمعت رسول الله يقول:

كأنى بكلاب الحوأب قد نبحت بعض نسائى ثم قال: اياك ياحميراء ان تكونيها...

[صفحه ۱۴۶]

فقال الزبير لعائشة: مهلا فانا قد جزنا ماء الحوأب.. فلفق لها الزبير وطلحة خمسين اعرابيا شهدوا بذلك. فكانت هذه اول شهادة زور فى الاسلام.. وكتب على عثمان بن حنيف واليه فى البصرة: اما بعد فان البغاة عاهدوا الله ثم نكثوا [۲۴۹].

فاذا قدموا عليك فادعهم الى الطاعة ... فان اجابوا فأحسن جوارهم.

فلما وصل الكتاب ارسل عثمان بن حنيف ابا الاسود الدؤلى وعمران بن الحصين الخزاعى، فانطلقا. فدخلا على عائشة ووعظاها.. فقالت: القيا طلحة والزبير ... فقاما من عندها ولقيا: الزبير فكلماه، فقال لهما: اننا جئنا للطلب بدم عثمان ... فقالا له: ان عثمان لم يقتل بالبصرة ليطلب بدمه فيها، وانت تعلم من هم قتلته واين هم، وانك وصاحبك وعائشة كنتم اشد الناس عليه واعظمهم اغراء بدمه... وقد بايعتم عليا طائعين.. فقال لهما.. اذهبا فالقيا طلحة.

فقاما الى طلحة فوجداه خشن الملمس.. فى اثارة الفتنة واضرام نار الحرب.

وأتى طلحة والزبير عبدالله بن حكيم التميمى فأتى بكتب كان كتباها اليه، فقال لطلحة: أما هذه كتبك الينا؟ قال: بلى.

قال: فكتبت امس تدعونا الى خلع عثمان وقتله، حتى اذا قتلته اتيتنا ثائراً بدمه.

وخرج عثمان بن حنيف الى طلحة والزبير فى اصحابه فناشدهما الله والاسلام وذكرهما بيعتها لعلى ... فقالا نطلب بدم عثمان، فقال لهما: ما انتما وذاك؟ أين بنوه ... الذين احق منكم؟ فشتماه شتما قبيحا..

ثم كتب الطرفان كتاباً للصلح ... الى ان يقدم الخليفة ... فمكثوا كذلك اياما.

ثم ان طلحة والزبير ... اجتمعا على مراسلة القبائل واستمالة العرب ... فبايعهم على ذلك الازد، وضبة، وقيس بن غيلان ... وبنو عمرو بن تميم، وبنو حنظلة ... وبنو دارم كلهم الا نفرا من بنى مجاشع ذووى دين وفضل.

[صفحه ۱۴۷]

فلما استوثق لطلحة والزبير امرهما، خرجا فى ليلة مظلمة ذات ريح ومطر ومعهما اصحابهما قد البسوهم الدروع وظاهروا فوقها بالثياب. فانتهوا الى المسجد وقت صلاة الفجر وقد سبقهم عثمان بن حنيف اليه واقيمت الصلاة فتقدم عثمان ليصلى بهم فأخره اصحاب طلحة والزبير، وقدموا الزبير، فجاءت السيابجة [۲۵۰] فأخروا الزبير وقدموا عثمان بن محنيف، فغلبهم أصحاب الزبير فقدموا الزبير وأخروا عثمان، فلم يزالوا كذلك حتى كادت الشمس تطلع، وصاح بهم: المسجد.. فغلب الزبير فصلى بالناس.

فلما انصرف من صلاته صاح بأصحابه المسلمين: ان خذوا عثمان بن حنيف، فأخذوا وضربوه ضرب الموت، ونتف حاجباه واشفار عينيه وشعر رأسه ووجهه واخذوا السيابجة ... فانطلقوا بهم وبعثمان بن حنيف الى عائشة.. فأمرت بذبح السيابجة، فكان غدر طلحة والزبير بعثمان بن حنيف اول غدر كان فى الاسلام» [۲۵۱].

ويجمل بنا اكمالا للبحث فى هذه النقطة أن ننقل للقارىء قصة الناكثين كما رواها ابن الاثير [۲۵۲]:

«خرجت عائشة الى مكة وعثمان محصور، ثم خرجت من مكة تريد المدينة، فلما كانت بسرف [۲۵۳] لقيها رجل من اخوالها من بنى ليث يقال له: عبيد الله بن ابى سلمة وهو ابن أم كلاب فقالت له: مهيم؟ قال: قتل عثمان وبقوا ثمانيا.. قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: اجتمعوا على بيعة على فقالت:

ليت هذه انطبقت على هذه.. ردونى.. فانصرفت الى مكة تقول: قتل عثمان.

[صفحه ۱۴۸]

مظلوما [۲۵۴]، فقال لها عبيد الله بن ابى سلمة:

ان اول من امال حرفه لأنت، ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعثلا فقد كفر.

فمنك البداء ومنك الغير

ومنك الرياح ومنك المطر

وأنت أمرت بقتل الامام

وقلت لنا: انه قد كفر

فهبنا اطعناك فى قتله

وقاتله عندنا من أمر

فانصرفت الى مكة فقصدت الحجر فتسترت فيه، فاجتمع الناس حولها، فقالت: ايها الناس ان الغوغاء من اهل الامصار.. سفكوا الدم الحرام.. والله لاصبع عثمان خير من طباق الارض.

وقدم عليهم عبدالله بن عامر من البصرة بمال كثير، ويعلى بن امية بن منية من اليمن فلقيا عائشة، فاستقام الرأى على البصرة، وكان ازواج النبى مع عائشة على قصد المدينة، فلما تغير رأيها الى البصرة تركن ذلك.

وخرجت عائشة ومن معها من مكة، فلما خرجوا منها اذن مروان بن الحكم

ثم جاء طلحة والزبير وقال: على ايكما اسلم بالامرة، فقال عبدالله بن الزبير على ابى، وقال محمد بن طلحة على ابى، فأرسلت عائشة الى مروان وقالت له:

أتريد أن تفرق أمرنا؟ ليصل بالناس ابن أختى عبدالله بن الزبير.

وكان معاذ بن عبـدالله يقول: والله لو ظفرنا لاقتتلنا، ماكان الزبير يترك طلحة والامر، ولا كان طلحة يترك الزبير والامر.. فلما بلغوا ذات عرق لقى سعيد بن العاص مروان بن الحكم واصحابه بها فقال: أين تذهبون وتتركون ثأركم على اعجاز الابل وراءكم؟ يعنى عائشة، وطلحة والزبير، اقتلوهم ثم ارجعوا الى منازلكم.

[صفحه ۱۴۹]

ثم خلا بطلحة والزبير فقال: ان ظفرتما لمن تجعلان الامر؟ ومضى القوم، ومروا بماء الحوأب فنبحتهم كلابه، فأتوا الحفير.

ولما بلغ ذلك اهل البصرة دعا عثمان بن حنيف عمران بن الحصين، وابا الاسود الدؤلى وقال لهما: انطلقا الى هذه المرأة فاعلما علمها وعلم من معها.

فخرجا: فأتيا اليها بالحفير، فأذنت لهما فدخلا وسلما، وسألاها عن سبب خروجها.

فقالت: المطالبة بدم عثمان ... فأتيا طلحة ... فقال: المطالبة بدم عثمان، فأتيا الزبير وقال لهما: مثل قول طلحة، فرجعا الى عثمان بن حنيف وأخبراه...

واقبلت عائشة فيمن معها حتى انتهوا الى المربد ... فتكلم طلحة بالناس وذكر عثمان وفضله ... ودعا الى الطلب بدمه وحثهم على الاخذ به.

وكذا فعل الزبير، وعائشة ... واقبل جارية بن قدامة السعدى وقال: يا أم المؤمنين:

والله لقتل عثمان اهون من خروجك من بيتك ... وقد كان لك من الله ستر وحرمة فهتكت سترك وابحت حرمتك...

وخرج غلام شاب من بنى سعد الى طلحة والزبير وقال: هل جئتما بنسائكما؟

صنتم حلائلكم وقدتم امكم

ذا لعمرك قلة الانصاف

أمرت بجر ذيولها فى بيتها

فهوت تشق البيد بالايجاف

غرضا يقاتل دونها ابناؤها

بالنيل والخطى والاسياف

تكت بطلحة والزبير ستورها

ذا المخبر عنهم والكاف

وجرت بين الطرفين مناوشات باللسان وبالسيف

ثم كتبا كتابا للصلح وتهادنا.. وجاء فى كتاب الصلح:

هذا ما اصطلح عليه طلحة والزبير ومن معهما ... وعثمان بن حنيف ومن معه.

ان عثمان يقيم حيث ادركه الصلح على مافى يده، وان طلحة والزبير يقيمان

[صفحه ۱۵۰]

حيث ادركهما الصلح على مافى ايديهما.. ولايضار واحد من الفريقين فى مسجد ولا سوق ولا طريق.. ولكن طلحة والزبير جمعا

رجالهما فى ليلة مظلمة ذات رياح ومطر.

ثم قصد المسجد فوافقا صلاة العشاء.

فقاتلوا أصحاب عثمان بن حنيف فى المسجد.. وأخذوا عثمان أسيرا.

وضربوه اربعين سوطا ونتفوا لحيته، وحاجبيه واشفار عينيه وحبسوه.

وكتبت عائشة الى زيد بن صوحان:

من عائشة أم المؤمنين حبيبة رسول الله الى ابنها الخالص زيد بن صوحان اما بعد: فان اتاك كتابى هذا فأقدم فانصرنا فان لم تفعل فخذل الناس عن على، فكتب اليها:

اما بعد: فأنا ابنك الخالص ان اعتزلت ورجعت الى بيتك. والا فأنا اول من نابذك. وقال زيد:

رحم الله أم المؤمنين امرت ان تلزم بيتها وامرنا ان نقاتل، فتركت ما امرت به وامرتنا به وصنعت ما امرنا به ونهيتنا عنه.

وقام طلحة والزبير خطيبين يطالبان بدم عثمان.. فقال الناس لطلحة: يا ابا محمد قد كانت كتبك تأتينا بغير هذا.. ثم قام رجل من عبد قيس فقال:

يا معشر المهاجرين.. لما توفى الرسول بايعتم رجلا منكم فرضينا وسلمنا.. ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك فرضينا وسلمنا.

فلما توفى جعل امركم الى ستة نفر فاخترتم عثمان وبايعتموه عن غير مشورتنا

ثم انكرتم منه شيئا فقتلتموه عن غير مشورة منا.

ثم بايعتم عليا عن غير مشورة منا. فما الذى نقمتم عليه فنقاتله؟ هل استأثر بفىء؟ ام عمل بغير الحق؟ أو أتى شيئا تنكرونه؟ فنكون معكم عليه. والا فما هذا؟ فهموا بقتل ذلك الرجل فمنعته عشيرته.

فلما كان الغد وثبوا عليه وعلى من معه فقتلوا منه سبعين.

[صفحه ۱۵۱]

وبقى طلحة والزبير [بعد اخذ عثمان بن حنيف] بالبصرة ومعهم بيت المال والحرس.

وتجهز على الى الشام. فبينما هو كذلك اتاه الخبر عن طلحة والزبير وعائشة. فتوجه الى البصرة ووقعت الحرب وانتصر على، فدخل البصرة ... وراح الى عائشة وهى فى دار عبدالله بن خلف.. وكانت صفية زوجة عبدالله مختمرة ... فلما رأته كلمته بكلام غليظ. فلم يرد عليها شيئا، ودخل على عائشة وسلم عليها وقعد عندها. ثم قال: جبهتنا صفية ... فلما خرج اعادت صفية عليه قولها. فكف بغلته وقال:

هممت أن افتح هذا الباب واشار الى باب فى الدار واقتل من فيه. وكان فيه ناس من الجرحى فأخبر على بمكانهم فتغافل عنهم.

وكان مذهبه الا يقتل مدبرا ولا يدنف على جريح [۲۵۵] ولا يكشف سترا ولا يأخذ مالا.

ولما خرج على ... قال له رجل من أسد: والله لاتغلبنا هذه المرأة. فقال له:

لا تهتكن سترا، ولا تدخلن داراً، ولا تهيجن امرأة بأذى، وان شتمن أعراضكم وسفهن امراءكم وصلحاءكم.. ومضى فلحقه رجل فقال يا امير المؤمنين:

قام رجلان على الباب فتناولا من هو امض شتما لك من صفية. قال:

ويلك لعلها عائشة! قال نعم، فبعث القعقاع بن عمرو الى الباب فأقبل بمن كان عليه فأحالوا على رجلين من ازد الكوفة وهما: عجلان، وسعد، ابنا عبدالله، فضربهما مئة سوط واخرجهما من ثيابهما.

ثم جهز عائشة بكل ما ينبغى لها من مركب وزاد ومتاع وغير ذلك، وبعث معها كل من نجا ممن خرج معها الا من احب المقام،

واختار لها اربعين امرأة من نساء البصرة والمعروفات.

وسير معها اخاها محمد بن ابى بكر.

[صفحه ۱۵۲]

فلما كان اليوم الذى ارتحلت فيه اتاها على فوقف لها.

وحضر الناس، فخرجت وودعتهم، وقالت:

يا بنى لا يعتب بعضنا على بعض، انه والله ما كان بينى وبين على فى القديم الا ما يكون بين المرأة وأحمائها ... وشيعها على اميالا وسرح بنيه معها يوما.

وقال عمار حين ودعها: ما ابعد هذا المسير من العهد الذى عهد اليك؟ قالت: والله انك ما علمت تقول الحق. قال: الحمد لله الذى قضى على لسانك لى».

تلك هى قصة الناكثين. ولا نشك فى ان القارىء قد لاحظ معنا الجرائم الكثيرة التى قاموا بها؛ ومدى صلتها بالمطالبة بدم الخليفة الذبيح. فقد لفق الزبير وطلحة خمسين شاهد زور لعائشة فى ماء الحوأب.

وكانت اول شهادة زور فى الاسلام، على مايروى المؤرخون. وفى معرض التحدث عن شهادة الزور بنظر النبى يقول البخارى فى صحيحه (ج ۸ ص ۴۸) بأسانيده المختلفة عن ابى بكرة قال: «قال النبى اكبر الكبائر الاشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور ثلاثاً اقولها، او اقول شهادة الزور.

فما زال يكررها، قلنا: ليته سكت!!».

على أن أم المؤمنين لو كانت جادة فى امر عودتها الى المدينة قبل ان تبلغ البصرة لما ثناها عن ذلك برأينا شهود الزور. ذلك لانهم لم ينفوا مرورهم بالحوأب وانما قالوا: انهم مروا به قبل فترة.

وقد نكث الزبير وطلحة بيعتهم لعلى، ونقضا عهدهما لعثمان بن حنيف مخالفين بذلك نص الاية الكريمة:

«وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا»

كما اعتديا على حرمة المسجد وعلى الصلاة وقتلا السيابجة غدراً وصنعا ماصنعا بعثمان

[صفحه ۱۵۳]

ابن حنيف والى البصرة، ولعل موقف الناكثين فى باطلهم من عثمان بن حنيف فى حقه يعيد الى الذاكرة على قاعدة وبضدها تتميز الاشياء موقف النبى على حقه من سهيل بن عمرو وهو على باطل حين قال عمر بن الخطاب للنبى على مايحدثنا الطبرى [۲۵۶]:

«انتزع ثنيتى سهيل بن عمرو السفليين، يدلع لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن ابداً. فقال رسول الله: لا امثل به فيمثل الله بى وان كنت نبياً».

فقد امتنع الرسول الكريم عن التمثيل بأحد شيوخ المشركين، فى حين ان عائشة أم المؤمنين وطلحة والزبير قد مثلوا بأمير البصرة وهو شيخ من افاضل المسلمين دون ان يقترف ذنبا يستحق عليه العقاب اللهم الا الوقوف بوجه العصاة على الخليفة ومن ورائه كتاب الله وسنة الرسول.

ولسنا نعلم صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان.

وهل: الاعتداء على عثمان بغض النظر عن مسبباته اكثر فظاعة من الاعتداء على عثمان بن حنيف واصحابه؟

ولماذا اعتدى طلحة والزبير على مسلمى البصرة؟

هل يجيز الدين الحنيف ذلك الاعتداء من حيث المبدأ العام؟ ومن حيث الشكل الذى وقع فيه؟

ذكر الامام مسلم [۲۵۷] بأسانيده المختلفة عن عبدالله بن عمرو بن العاص قال: «قال رسول الله: اربع من كن فيه كان منافقا خالصا،

ومن كانت فيه خلة منهن كانت فيه خلة من نفاق حتى يدعها: اذا حدث كذب، واذا عاهد غدر، واذا وعد اخلف، واذا خاصم فجر».

[صفحه ۱۵۴]

والمنافقون، كما وصفهم الله فى سورة المنافقين:

«واتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله ألا ساء ما كانوا يعملون» [۲۵۸].

ونحن نترك للقارىء تقدير الخلال الاخرى «تزيد عن الخلال الاربع» التى اتصف بها الناكثون.

ويتجسم ذلك الموقف اذا ما وازنه القارىء بموقف الامام الكريم، فى حربه وسلمه، مع خصومه وانصاره على السواء.

[صفحه ۱۵۵]

القاسطون

لقد مر بنا الحديث فى فصل سابق عن حركة الناكثين، تلك الحركة التى زرعت بذور التمرد على النظام فى جسم المجتمع الاسلامى فى عهد الامام

وحركة الناكثين ماهى فى الواقع الا جانب واحد من جوانب الصراع المسلح بين على ومناوئيه، وهى صورة من اروع صور الصراع بين الحق والباطل.

وقد شجعت فتنة الجمل القاسطين الحائرين معاوية واصحابه على القيام بعصيان مسلح على نظام الحكم فى البلاد، كما أتاحت لهم فرصة التجمع وحشد قوى الشر والارهاب لمقاومة مبادىء الدين الحنيف الممثلة فى خلق الامام وفى سياسته العامة.

وقد انضوى تحت لواء معاوية كل من كان حاقداً على الامام لعدالته وسلامة معتقداته فى السياسة والدين والاخلاق. من ذلك مثلا:

أن عبيد الله بن عمر بن الخطاب كان قد التحق بمعاوية «خوفا من على ان يقيده بالهرمزان. وذلك ان ابا لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة قاتل عمر كان فى ارض العجم غلاما للهرمزان فلما قتل عمر شد عبيد الله على الهرمزان فقتله...

وكان الهرمزان عليلا- فى الوقت الذى قتل فيه عمر.. فعفا عثمان عن عبيد الله فلما صارت الخلافة لعلى اراد قتل عبيد الله بن عمر بالهرمزان لقتله اياه ظلما من غير سبب استحقه. فلجأ الى معاوية» [۲۵۹].

[صفحه ۱۵۶]

ولجأ الى معاوية كذلك مصقلة بن هبيرة الشيبانى عامل على فى احدى خطط فارس.

وسبب ذلك ان مصقلة كان قد اشترى اسرى الخوارج من جماعة الخريت بن راشد السامى ولكنه التوى بما شرطه على نفسه من ثمنهم. «فلما طالبه ابن عباس بأداء الدين قال: لو طلبت اكثر من هذا المال الى ابن عفان مامنعنى اياه.

ثم احتال حتى هرب من البصرة ولحق بمعاوية. فتلقاه معاوية احسن لقاء واطمعه وارضاه حتى طمع مصقلة فى ان يحمل اخاه نعيم بن هبيرة على ان يلحق به.» [۲۶۰].

وهكذا نجد ابن هند يحتضن الجناة الفارين من وجه العدالة ويغدق عليهم العطاء من بيت مال المسلمين فيزرع بتصرفه هذا بذور فساد الاخلاق فى المسلمين ويشجع الناس على الخروج على مبادىء الدين الحنيف.

ولم تقتصر نتائج ذلك الزمن الذى عاش فيه ابن أبى سفيان بل تعدته فسارت فى سجل الزمن منذ مصرع الإمام حتى يومنا هذا.

لقد تمرد معاوية على الخليفة وتنكر لمبادىء الدين متظاهرا بالطلب بدم عثمان ابن عفان [۲۶۱] ومعاوية كما ذكرنا هو:

ابن هند آكلة الاكباد، وأبوه ابو سفيان: الذى حارب النبى ... ولم يسلم الا بأخرة حين لم ير من الاسلام بداً، وحين لم يكن الا ان يختار بين الاسلام والموت...

ولم تكن ام معاوية بأقل من أبيه تنكراً للاسلام وبغضا لاهله وحفيظة عليهم.. حتى فتحت مكة فأسلمت كارهة كما اسلم زوجها كارها.

[۲۶۲].

[صفحه ۱۵۷]

وكان على معاوية اذا فرضنا انه يجوز له ان يطالب بدم عثمان [۲۶۳] ولو انصف واخلص نفسه للحق ان يبايع كما بايع الناس.

ثم يأتى الى على مع اولياء عثمان فيطالبون بالاقادة ممن قتله. ولكن معاوية لم يكن يريد ان يثأر لعثمان [۲۶۴] بمقدار ما كان يريد ان يصرف الامر عن على. وآية ذلك ان الامر استقام له بعد مصرع الامام فتناسى ثأر عثمان ولم يتبع قتلته..

فالطلب بدم عثمان اذن لم يكن الا اقصوصة اشترك فى صوغها كل منافس لعلى، حاقد عليه. وقد وسع كل شىء ووصل الى كثير من الغايات الا الثأر للشيخ القتيل».

[صفحه ۱۵۸]

وكان رأى على فى الموضوع كما يذكر ابن حجر العسقلانى [۲۶۵] «أن يدخل معاوية واصحابه فى الطاعة.

ثم يقوم ولى دم عثمان بن عفان فيعمل الامام معه ما فيه حكم الشريعة.».

وقد اشار الامام على الى ذلك فى احدى رسائله الى اهل الامصار بعد صفين حين قال [۲۶۶]:

«وكان بدء امرنا ان التقينا والقوم من اهل الشام والظاهر ان ربنا واحد ونبينا واحد ودعوتنا فى الاسلام واحدة ... والامر واحد إلا ما اختلفنا فيه من دم عثمان ونحن منه براء. فقلنا تعالوا نداوى مالا يدرك باطفاء الثائرة وتسكين العامة حتى يشتد الامر ويستجمع فنقوى على وضع الحق فى مواضعه.

فقالوا: بل نداويه بالمكابرة. فأبوا حتى ضجت الحرب.. فلما ضرستنا واياهم ووضعت مخالبنا فينا وفيهم اجابوا عند ذلك الى الذى دعوناهم اليه.».

ويلوح للباحث ان الخروج على ما توطا الناس عليه من العرف والخلق كان هو القاعدة العامة للاسرة الاموية فى الجاهلية والاسلام.

وكتب التاريخ العربى زاخرة بالامثلة على ذلك. وقد مر بنا فى فصل سابق ذكر كثير من الشواهد والامثلة فى هذا الباب عندما تظاهر رؤوس الامويين فى الانضواء تحت لواء الاسلام.

أما فى الجاهلية فيجد الباحث:

على الرغم من قلة الاخبار الموثوقة عن سيرتهم قصصا ممتعة فى هذا المضمار. من ذلك مثلا ماذكره ابن الاثير [۲۶۷] حين قال:

«كان لعبدالمطلب جار يهودى يقال له: أذينة: يتجر وله مال كثير. فغاظ ذلك

[صفحه ۱۵۹]

حرب بن امية.. فأغرى به فتيانا من قريش ليقتلوه ويأخذوا ماله. فقتله عامر بن عبد مناف بن عبد الدار وصخر بن حرب بن عمرو بن كعب التيمى جد ابى بكر».

وتتلخص حركة القاسطين من حيث وقوع حوادثها من الناحية التاريخية على الشكل التالى [۲۶۸]:

«لما عاد على الى البصرة بعد فراغه من الجمل قصد الكوفة ... وبعث جرير بن عبدالله البجلى ... وكتب معه كتابا الى معاوية يدعوه فيه الى الدخول فيما دخل فيه المهاجرون والانصار من طاعته، فسار جرير الى معاوية.

فلما قدم عليه ماطله معاوية واستنظره، واستشار عمرو بن العاص فأشار عليه ان يجمع اهل الشام ويلزم عليا دم عثمان ويقاتله بهم. ففعل معاوية ذلك. وكان اهل الشام لما قدم عليهم النعمان بن بشير بقميص عثمان الذى قتل فيه مخضوبا بالدم..

وضع معاوية القميص مدة وهو على المنبر. واقسموا الا يمسهم الماء للغسيل من الجنابة والا يناموا على الفراش حتى يقتلوا: قتلة عثمان، ومن قام دونهم قتلوه.

فلما عاد جرير الى على واخبره خبر معاوية واجتماع اهل الشام على قتاله. خرج على فعسكر بالنخيلة.. وسرح الاشتر ببعض الجند

امامه.. وقال له:

اياك ان تبدأ القوم بقتال: ولاتدن منهم دنو من يريد ان ينشب الحرب، ولا تباعد منهم تباعد من يهاب البأس. حتى اقدم عليك.. واصبح على على غدوة الاشتر..

وكان معاوية قد سبق.. فأخذ شريعة الفرات.. فطلب اصحاب على شريعة غيرها فلم يجدوا. فأتوا عليا فأخبروه بعطشهم.. فدعا صعصعة بن صوحان. فأرسله الى معاوية يقول له:

[صفحه ۱۶۰]

انا سرنا سيرنا هذا ونحن نكره قتالكم قبل الاعتذار اليكم. فقدمت لنا خيلك ورجالك فقاتلتنا قبل ان نقاتلك، ونحن من رأينا الكف حتى ندعوك ونحتج عليك. وهذه اخرى قد فعلتموها، منعتم الناس عن الماء.. فأبعث الى اصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء... لننظر فيما بيننا وبينك، وفيما قدمنا له..

فأصر معاوية واصحابه على المنع..

فلما علم على بذلك قال:

قاتلوهم على الماء ... فقاتلوهم حتى خلوا بينهم وبين الماء.

وصار الماء فى ايدى اصحاب على، فقالوا:

والله لاتسقيه اهل الشام، فأرسل على الى اصحابه ان خذوا من الماء حاجتكم وخلوا عنهم..

ثم ان عليا دعا أبا عمر وبشير بن عمرو بن محصن الانصارى، وسعيد بن قيس الهمدانى، وشبث بن ربعى التميمى فقال لهم: ائتوا هذا الرجل وادعوه الى الله والى الطاعة والجماعة ... فأتوه.. فبتدأ بشير ... وقال يامعاوية:

انشدك الله ان تفرق هذه الامة وتسفك دماءها بينها..

فقطع معاوية عليه الكلام وقال:

ونترك دم عثمان؟ والله لا افعل ذلك ابداً. فذهب سعيد بن قيس يتكلم فبادره شبث بن ربعى ... فقال: يامعاوية.

والله لايخفى علينا ما تطلب، انك لم تجد شيئا تستغوى به الناس وتستميل به أهواءهم وتستخلص به طاعتهم الا قولك قد قتل امامك مظلوما، فنحن نطالب بدمه.. وقد علمنا انك ابطأت عنه بالنصر واحببت له القتل لهذه المنزلة التى اصبحت تطلب.

فاتق الله يا معاوية ولا تنازع الامر اهله، قال معاوية:

ان اول ماعرفت به سفهك ... ان قطعت على هذا الحسيب الشريف سيد قومه منطقه، ثم ... كذبت ولؤمت ايها الاعرابى الجلف...

[صفحه ۱۶۱]

انصرفوا من عندى فليس بينى وبينكم الا السيف.. فأتوا عليا فأخبروه بذلك.. فجرت مناوشات بالسلاح بين الفريقين بدأها أهل الشام فى اوخر عام ۳۶ ه.

ثم دخلت سنة ۳۷ ه وفيها جرت موادعة بين على ومعاوية، توادعا على ترك الحرب بينهما حتى ينقضى المحرم طمعاً فى الصلح.

واختلف بينهما الرسل.. فلم يسفر ذلك عن شىء.. فلما انسلخ المحرم.. خرج معاوية وعمرو يكتبان الكتائب ويعبثان الناس.. وعلى يقول لاصحابه:

لا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فأنتم على حجة وترككم قتالهم حجة اخرى، فاذا هزمتموهم فلا تقتلوا مدبراً، ولاتجهزوا على جريح، ولاتكشفوا عن عورة، ولاتمثلوا بقتيل.

ولاتهتكوا ستراً، ولاتدخلوا داراً، ولاتأخذوا شيئاً، ولاتهيجوا امرأة وان شتمن اعراضكم وسبين امراءكم وصلحاءكم.

وكان على يقول بهذا المعنى لاصحابه فى كل مكان».

ذلك مايتصل بالمرحلة التمهيدية لحرب صفين قبل ان ينشب القتال بين الطرفين، ونحسب ان القارىء قد لاحظ معنا جملة أمور:

منها: سعى الامام الى دعوة ابن ابى سفيان بالطرق السليمة المألوفة الى عدم شقه عصا الطاعة على النظام، واحداث الفتنة بين المسلمين، ليتسنى للخليفة بعد ذلك ان ينظر فى الطلب الذى يقدمه له عمرو بن عثمان بن عفان ولى عثمان حسب منطوق الآية التى ذكرناها بشأن المتهمين بقتل عثمان كى يجرى التحقيق اللازم ويتخذ الاجراءات القانونية بحق الجناة.

ولكن معاوية ألب الناس على الامام واتخذ قميص عثمان ستاراً للخروج على النظام؛ وسار بجيوشه متمرداً باغيا يريد العراق. واستولى على ماء الفرات فى موقع تجمع الجيشين ومنع اصحاب الامام الذين لم يخرجوا لقتاله بل للتفاوض معه عساه يثوب الى رشده فيحقن دماء المسلمين.

[صفحه ۱۶۲]

فاضطر الامام الى دعوة اصحابه لقتالهم على الماء فقط، بعد ان فشلت مساعى صعصعة ابن صوحان كما رأينا، وبعد أن بلغ العطش بأصحابه حداً لا يطاق.

وعندما اصبح الماء بحوزة اصحابه امرهم بالسماح لخصومه بالاستقساء.

ولم يثنه غدر ابن ابى سفيان وامشاجه وخروجهم متمردين من الشام، وابتداؤهم اصحابه بالقتال وحجزهم الماء عنهم عن مواصلة مساعيه السلمية.

فأرسل بشير الانصارى، وسعيد الهمدانى، وشبث التميمى، لمفاوضة معاوية واقناعه بالانصياع الى اوامر الله وسنة الرسول.

فأغلظ معاوية لهم القول وشتمهم وطردهم بعد ان حاول ان يوقع بين سعيد، وشبث العداوة والبغضاء باثارة العصبية الجاهلية التى حاربها الاسلام. فأبى معاوية الا الاستمرار فى الطيش والعبث بأرواح الناس ومقدراتهم والاستهانة بمبادىء الدين الحنيف.

فحدث القتال المرير بين الجانبين وانهزمت قوى الشر امام جيوش الامام. فلجأ معاوية الى الحيلة والغدر كعادته فرفعت المصاحف وحصل التحكيم وخرج المارقون واغتيل الامام كما سنرى.

وفى ضوء ما ذكرنا نستطيع ان نقول مرة اخرى:

ان الصراع بين القاسطين وبين قوى الامام ماهو فى جوهره الا صراع بين رجلين يختلفان كل الاختلاف فى الخلق وفى العقيدة.

فمعاوية: «رجل لم يردعه وازع عن التماس اى اسلوب ... مشروع او غير مشروع للوصول الى هدفه وهو انتزاع الحكم من الامام ولم ير حرجا فى الدس، ولافى الغدر ولافى الادعاء الباطل.

فقد كان همه ان يغدر وان وطئت قدمه الملوثة قدس الحق وقيم الاخلاق.

وكانت الخطة التى درج عليها الامام تغاير ذلك.

لهذا فقد تباينت الاسلحة. فهى فى يد على معدومة وفى يد خصمه وفيرة، وتعددت ميادينها امام معاوية وضاقت حلقتها على الامام الا ما أقره منها الدين وارتضته المثل

[صفحه ۱۶۳]

الانسانية الرفيعة» [۲۶۹].

وتباين المقربون كذلك فى الخلق والدين والهدف. فهم عند على من خيرة اصحاب النبى وهدفهم السير وفق مستلزمات الاسلام. وهم عند معاوية من الوصوليين الانتهازيين:

عمار بن ياسر ومن هم على شاكلته من جهة، وعمرو بن العاص ومن لف لفه من جهة اخرى.

وتباين الاتباع كذلك. فقد كان معاوية يحارب الامام «بمئة الف ما فيهم على حد قوله من يفرق بين الناقة والجمل» [۲۷۰].

وقد بلغت طاعة اهل الشام لمعاوية حداً يفوق الوصف [۲۷۱].

فقد صلى بهم على ما يذكر المسعودى عند مسيرهم الى صفين الجمعة: يوم الاربعاء، واعاروه رؤوسهم عند القتال وحملوه بها».

وفى معرض التحدث عن موقف اهل الشام ازاء معاوية.

يقول المسعودى [۲۷۲]: ان احد اخوته من اهل العلم قال له: «كنا نقعد فنتناظر فى ابى بكر وعمر، وعلى ومعاوية، فقالت لى ذات يوم بعض اهل الشام وكان من اعقلهم. واكبرهم لحية كم تظنون فى على ومعاوية؟

فقلت له: من هو على؟ فقال ... قتل على فى غزوة حنين مع النبى.

ولما خرج عبدالله بن على فى طلب مروان الى الشام ... وجه الى ابى العباس السفاح اشياخا من اهل الشام من ارباب النعم والرئاسة، فحلفوا للسفاح انهم ما علموا لرسول الله قرابة ولا اهل بيت يرثونه غير بنى امية حتى وليتم الخلافة»

[صفحه ۱۶۴]

وكان ذلك دون شك من آثار معاوية فى تضليل الناس والتغرير بهم. فيكون معاوية بالاضافة الى ما ذكرنا مسئولا عن تشويه كثير من حقائق التاريخ الاسلامى وتزوير حوادثه.

أما أساليبه فى الغدر بمناوئيه وتدبير المؤمرات لاغتيالهم فمعروفة لدى الكثيرين، فقد دبر قضية سم الاشتر والحسن، بعد ان نكث عهده.

وتتلخص قضية الاشتر النخعى فى ان الامام عليا قد ولاه مصر بعد ان عزل عنها محمد بن ابى بكر. «ولكن الاشتر لم يكد يصل الى القلزم حتى مات».

واكثر المؤرخين يتحدثون بأن معاوية اغوى صاحب الخراج فى القلزم ... ان هو احتال فى موت الاشتر، فدس هذا الرجل للاشتر سما فى شربة من عسل فقتله ليومه.

وكان معاوية وعمرو يتحدثان فيقولان ان لله جنودا من عسل» [۲۷۳]، وكان غدره يترواح بين الشدة واللين حسب الظروف، فيلجأ الى القسوة اذا اعيته الحيلة والمراوغة والدس، من ذلك مثلا:

انه اختار بسر بن ارطأة المعروف بقساوته، وسيره على رأس جيش لتعقب خصومه.

وقد اوصى معاوية بسر بن ارطأة أن يقسو على البادية من شيعة على.

فمضى بسر ونفذ وصية معاوية واضاف لها من عنده قسوة وغلظة واسرافاً فى الاستخفاف بالدماء، والاموال، والحقوق والحرمات، فكان كثير الفتك فى البادية، وجاء المدينة فروع اهلها ... وامرهم بالبيعة لمعاوية ففعلوا مرغمين.

ومضى الى اليمن ففر عنها عامل على واعوانه.

ونشر فيها الروع بالاسراف فى القتل، ثم اخذ البيعة لمعاوية.

وبلغ خبره علياً فأرسل جارية بن قدامة ليرده عن اليمن، ففر عنها بسر بن ارطأة ورجع الى الشام مفسداً فى الارض اثناء رجوعه ومسرفاً فى القتل والنهب حتى ذبح ابنى عبيد الله بن العباس وكانا صبيين.

[صفحه ۱۶۵]

ورد جارية اليمن الى طاعة الامام، وعاد الى مكة فعرف فيها ان عليا قد قتل» [۲۷۴].

يتضح مما ذكرنا ان خلق معاوية كان اقرب الى الوحشية منه الى الانسانية، على انه كان فى وحشيته الخلقية كالوحش المفترس تارة، وكالثعلب المراوغ تارة اخرى اما الامام فكان انسانا كاملا فى دينه، وسياسته واخلاقه، فقد امتلأت نفسه الكبيرة من خشية الله، وحب الناس، ونشر العدالة والاخاء بين المسلمين.

وكان موقف اتباعه منه على حقه مغايراً لموقف اتباع معاوية له على باطله كما رأينا.

والى القارىء طائفة من اقوال الامام لاتباعه وهو فى احرج ساعات نزاعه مع مناوئيه: «أما والذى نفسى بيده ليظهرن هؤلاء القوم عليكم

لیس لانهم اولی بالحق منکم ولکن لاسراعهم الی باطلهم وابطائکم عن حقی.

ولقد اصبحت الامم تخاف ظلم رعاتها، واصبحت اخاف ظلم رعیتی.

أیها الشاهدة ابدانهم الغائبة عنهم عقولهم، المختلفة اهواؤهم المبتلی بهم امراؤهم، صاحبکم: یطیع الله وانتم تعصونه، وصاحب اهل الشام: یعصی الله وهم یطیعونه

والله لکأنی بکم فیما اخالکم ان لو حمس الوغی وحمی الضرب قد انفرجتم عن ابن ابی طالب انفراج المرأة عن قبلها، وانی لعلی بینة من ربی، ومنهاج من نبی، وانی لعلی الطریق الواضح القطه لقطاً» [۲۷۵]، وقال فی مکان آخر:

«ولکن بمن والی من! أرید ان اداوی بکم وانتم دائی» کناقش الشوکة بالشوکة

[صفحه ۱۶۶]

وهو یعلم ان ضلعها معها» [۲۷۶] وأشار الامام فی مناسبة اخری الی العامل الرئیسی فی تقاعسهم عن نصرة الحق فقال: «أتأمروننی ان أطلب النصر بالجور فیمن ولیت علیه؟؟

والله لا اطور به ما سمر سمیر ... ولو کان المال لی لسویت بینکم فکیف وانما المال مال الله؟؟ وان اعطاء المال فی غیر حقه تبذیر واسراف، وهو یرفع صاحبه فی الدنیا ویضعه فی الآخرة، ویکرمه فی الناس ویهینه عند الله» [۲۷۷].

وخاطب اتباعه فی موقع آخر فقال:

«أیتها النفوس المختلفة، الشاهدة ابدانهم والغائبة عنهم عقولهم، اظأرکم علی الحق وانتم تنفرون منه، هیهات ان اطلع بکم سرار العدل، او اقیم اعوجاج الحق؟؟

اللهم انت تعلم انه لم یکن الذی کان منا منافسة فی سلطان، ولا التماس شیء من فضول الحطام، ولکن لنرد المعالم من دینک، ونظهر الاصلاح فی بلادک»، فیأمن المظلومون من عبادک، وتقام المعطلة من سننک» [۲۷۸]

[صفحه ۱۶۷]

وخاطبهم فی موقف آخر فقال: «لم تکن بیعتکم ایای فلتة [۲۷۹]؛ ولیس امری وامرکم واحداً، انی ارید کم لله وانتم تریدوننی لانفسکم.

ایها الناس اعینونی علی انفسکم، وایم الله لانصفن المظلوم من ظالمه، ولاقودن الظالم بخزامته حتی اورده منهل الحق وان کان کارها» [۲۸۰].

[صفحه ۱۶۸]

التحکیم، المارقون، و مصرع الامام

لقد حاول علی جهد استطاعته ان یتجنب الحرب التی سعی معاویة ما امکنه الی اشعال نارها. کما حاول عبثا اقناع معاویة وصحبه بالکف عن ایذائه وایذاء رعایاه. فأوکل مضطراً أمره الی السیف. فبدأت الحرب بین الجانبین.

«ولما رأی عمرو بن العاص أن أمر العراق قد اشتد وخاف الهلاک قال لمعاویة: هل لک فی أمر اعرضه علیک لایزیدنا الا اجتماعا ولایزیدهم الا فرقة؟

قال: نعم.

قال: نرفع المصاحف ثم نقول لما فیها بیننا وبینکم.

فرفعوا المصاحف بالرماح وقالوا: هذا حکم کتاب الله بیننا وبینکم. فلما رآها الناس قالوا: نجیب کتاب الله. فقال لهم علی: عباد الله امضوا علی حقکم وصدقکم وقتال عدوکم. فان معاویة وعمرو وابن ابی معیط، لیسوا بأصحاب دین ولا قرآن.

أنا اعرف منكم بهم قد صحبتهم اطفالا ثم رجالا. ويحكم ما رفعوها الا خديعة.

فقال اصحابه: لا يسعنا ان ندعى الى كتاب الله فنأبى ان نقبله. فقال لهم على: انما اقاتلهم ليدينوا لحكم كتاب الله. فانهم قد عصوا الله فيما امرهم. فأصر اصحابه الا وقف القتال وقبول التحكيم.

واقترح اصحاب معاوية ان يبعث كل فريق من يمثله على ان يعمل الحكمان بما فى كتاب الله لا يعدوانه ثم يتبع الفريقان ما اتفق عليه الحكمان، فاختار اهل الشام عمرو، وبعض اهل العراق ابا موسى الاشعرى.

فقال على لقومه: قد عصيتمونى فى أول الامر فأوقفتم القتال فلا تعصونى الآن.

[صفحه ۱۶۹]

انى لا ارى ان اولى ابا موسى. فانه ليس بثقة. قد فارقنى وخذل الناس عنى ثم هرب منى. فأبوا الا ابا موسى.

فقال: فاصنعوا ما اردتم.. فكتب كتاب التحكيم:

هذا ما تقاضى عليه على بن ابى طالب ومعاوية بن ابى سفيان.

اننا ننزل عند حكم الله وكتابه.. فما وجد الحكمان فى كتاب الله عملا به، وما لم يجداه.. فالسنة العادلة الجامعة غير المفرقة.

وأخذ الحكمان؛ من على، ومعاوية، ومن الجندين، من العهد والمواثيق انهما آمنان واهليهما والامة» [۲۸۱].

وشهد على مافى الكتاب من اصحاب على:

«الحسن والحسين ابنا على بن ابى طالب، وعبدالله بن عباس، وعبدالله ابن جعفر بن ابى طالب، والاشعث بن قيس، والاشتر بن الحارث، وسعيد ابن قيس، والحسين والطفيل ابنا الحارث بن عبدالمطلب وابو سعيد بن ربيعة الانصارى وعبدالله بن خباب ابن ارت وسهل بن حنيف، وابو بشر بن عمر الانصارى وعون بن الحارث بن عبدالمطلب، ويزيد بن عبدالله الاسلمى، وعقبة ابن عامر الجهنى، ورافع بن خديج الانصارى، وعمرو بن الحمق الخزاعى، والنعمان بن العجلان الانصارى، وحجر بن عدى الكندى، ويزيد بن حجية النكرى، ومالك بن كعب الهمدانى، وربيعة بن شرحبيل، والحارث بن مالك، وحجر بن يزيد، وعلبة بن حجية.

ومن اهل الشام: حبيب بن مسلمة، وابو الاعور السلمى، وبسر بن ارطأة القرشى، ومعاوية بن خديج الكندى، والمخارق بن الحارث، ومسلم بن السكسكى، وعبدالرحمن بن خالد بن الوليد، وحمزة بن مالك، وسبيع بن يزيد الحضرمى، وعبدالله بن عمرو بن العاص، وعلقمة بن يزيد الكلبى، وخالد بن الحصين

[صفحه ۱۷۰]

السكسكى، وعلقمة بن يزيد الحضرمى، ويزيد بن ايجر العيسى، ومسروق بن جبلة العكى، وبسر بن ابى يزيد الحميرى، وعبدالله بن عامر القرشى، وعتبة بن ابى سفيان، ومحمد بن ابى سفيان، ومحمد بن عمرو بن العاص، وعمار بن الاحرص الكلبى، ومسعدة بن عمرو العتبى، والصباح بن جهلمة الحميرى، وعبدالرحمن بن ذى الكلام، وتمامة بن حوشب، وعلقمة بن حكم» [۲۸۲].

ثم اتفق على ومعاوية على ما يذكر الدينورى [۲۸۳] «على ان يكون مجتمع الحكمين بدومة الجندل وهو المنصف بين العراق والشام. ووجه على مع ابى موسى شريح بن هانىء فى اربعة الاف من خاصته وصير عبدالله بن عباس على صلاتهم وبعث معاوية عمرو بن العاص وابا الاعور السلمى فى مثل ذلك من اهل الشام.

فساروا من صفين حتى وافوا دومة الجندل. وانصرف على بأصحابه حتى وافى الكوفة [۲۸۴]، وانصرف معاوية بأصحابه حتى وافى دمشق، ينتظران ما يكون من امر الحكمين.

وكان على اذا كتب الى ابن عباس فى امر اجتمع اليه اصحابه فقالوا: ماكتب اليك امير المؤمنين؟.. وتأتى كتب معاوية الى عمرو بن العاص فلا يأتيه أحد من اصحابه يسأله عن شىء من امره.. وعندما اجتمع الحكمان وتداولا فى الامر [۲۸۵] قال عمرو لابى موسى. وأين انت من معاوية؟ قال ابو موسى:

ما معاوية موضعا لها.. قال عمرو: الست تعلم ان عثمان قتل مظلوماً؟ قال بلى.

[صفحه ۱۷۱]

قال: فان معاوية وليّ عثمان.. قال ابو موسى: ان ولى عثمان ابنه عمرو. ولكن ان طاوعتنى احيينا سنة عمر بن الخطاب وذكره بتوليتنا ابنه عبدالله..

هلم نجعلها للطيب ابن الطيب. قال عمرو:

يا ابا موسى لايصلح لهذا الامر الا رجل له ضرسان يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر.

قال ابو موسى: ارى ان نخلع هذين الرجلين علياً ومعاوية ثم نجعلها شورى بين المسلمين يختارون لانفسهم من احبوا.

قال عمرو: فقد رضيت بذلك، وهذا الرأى الذى فيه صلاح الناس».

كان ابو موسى قد عوده عمرو ان يتقدم فى الكلام عليه.

وكثيراً ما كان عمرو يقول له: «أنت صاحب رسول الله واسن منى فتكلم واتكلم، وتعود ذلك ابو موسى، واراد عمرو بذلك ان يقدمه فى خلع على.

فلما اتفقا على خلع على ومعاوية.. اقبلا الى الناس وهم مجتمعون. فقال عمرو:

يا ابا موسى اعلمهم ان رأينا اتفق، فتكلم ابو موسى فقال:

ان رأينا اتفق على امر نرجو ان يصلح الله به امر هذه الامة.

فقال عمرو: صدق وبر. تقدم ياابا موسى فتكلم فتقدم ابو موسى ليتكلم فقال ابن عباس: ويحك انى والله لاظنه قد خدعك، ان كنتما قد اتفقتما على رأى فقدمه ليتكلم به قبلك، ثم تكلم بعده، فانه رجل غادر ولا آمن ان يكون قد اعطاك الرضا بينكما. فاذا قدمت فى الناس خالفك.

وكان ابو موسى مغفلا فقال: انا قد اتفقا وقال: ايها الناس انا قد نظرنا فى امر هذه الامة فلم نر اصلح لامرها ولا الم لشعثها.. الا ان نخلع عليا ومعاوية، ويولى الناس امرهم من احبوا.. وانى قد خلعت عليا ومعاوية..

ثم تنحى واقبل عمرو فقام وقال: ان هذا قد قال ماسمعتموه وخلع صاحبه. وانا اخلع صاحبه كما خلعه؛ واثبت صاحبى معاوية فانه وليّ ابن عثمان والطالب بدمه واحق الناس بمقامه.

[صفحه ۱۷۲]

قال ابو موسى الاشعرى لعمرو: لاوفقك الله غدوت وفجرت.

انما مثلك كمثل الكلب ان تحمل عليه يلهث وان تتركه يلهث، قال عمرو:

ان مثلك كمثل الحمار يحمل اسفاراً.. والتمس اهل الشام ابا موسى فهرب الى مكة.

ثم انصرف عمرو واهل الشام الى معاوية فسلموا عليه بالخلافة» [۲۸۶].

يتضح مما ذكرنا: ان رفع المصاحف حيلة دبرها عمرو بن العاص للحيلولة بين القاسطين وبين الفرار امام جيوش الامام.

وقد فطن الامام الى ذلك ووصف عمرو معاوية وابن ابى معيط بأنهم ليسوا بأصحاب دين ولا قرآن.

وقد مر بنا ذكر شىء من سيرة معاوية وابن ابى معيط، ونود فى هذه المناسبة ان ننقل الى القارىء قبل الاسترسال فى موضوع التحكيم طرفاً من سيرة عمرو بن العاص ليتبين الاسس التى استند اليها على فى وصمه عمرواً وصاحبيه بالبعد عن الدين والقرآن، وعمرو هو: ابن العاص السهمى الذى «كان من المستهزئين بالنبى.

وقد انزل الله فيه قول: ان شانئك هو الابتر» [۲۸۷].

أما المستهزؤون الآخرون فقد ذكرهم ابن خلدون [۲۸۸] بقوله:

«ولما رأت قريش النبى قد امتنع بعمه وعشيرته، وانهم لايسلمونه، طفقوا يرمونه عند الناس ممن يفد على مكة بالسحر والكهانة والجنون والشعر، يرومون بذلك صدهم عن الدخول فى دينه ثم انتدب جماعة منهم لمجاهرته بالعداوة والايذاء، منهم:

عتبة وشيبة ابنا ربيعة، وعقبة بن ابى معيط احد المستهزئين.

وابو سفيان من المسهتزئين، والحكم بن امية من المستهزئين ايضاً.

[صفحه ۱۷۳]

والعاص بن وائل السهمى وابنا عمه: نبيه ومنبه.

وقاموا يستهزئون بالنبى ويتعرضون له بالاستهزاء والاذاية حتى لقد كان بعضهم ينال منه بيده». اما ام عمرو بن العاص «فثمة صحيفة من صحائف فجور الجاهلية تنتشر عن الباغية ام عمرو كامرأة تلقفتها آونة مضاجع الرجال.

فلما خرج ابنها الى النور تهامست الالسن عن ابيه وتاهت حقيقة نسبة بين بضعة نفر.. منهم العاص ومنهم ابو سفيان. ولكن الام حزمت امرها على ان تلصق وليدها بأول الرفيقين اذ كان اوفر النفر ثروة واسخاهم عليها فى الانفاق فكأنها بهذا الاختيار قد ضربت لابنها اول مثل فى تغليب المادة على اوثق العلاقات وانه لمبدأ رضعه من ثدييها وظل يدين بناموسه مدى عمره المديد» [۲۸۹].

هذا هو البيت الذى نشأ فيه عمرو بن العاص.

أما مواقف عمرو نفسه من الاسلام فى اوائل عهده فمعروفة لدى الكثيرين.

فقد كان اشد الكفار خصومة للنبى يوم احد.

ويحضرنا فى هذه المناسبة بعض شعره:

لما رأيت الحرب ينزو شرها بالرضف نزوا

ايقنت أن الموت حق والحياة تكون لغوا

حملت أثوابى على عُتَد يبذ الخيل رهوا [۲۹۰].

ولما يئس عمرو من الانتصار على النبى فى الحرب لجأ الى الغدر والدس والتوارى عن الانظار. قال عمرو، على ما يذكر ابن هشام [۲۹۱]:

«لما انصرفنا من الاحزاب عن الخندق جمعت رجالا من قريش كانوا يرون رأيى ويسمعون منى. فقلت لهم: انى ارى أمر محمد يعلو الامور علواً

[صفحه ۱۷۴]

منكراً.. فأرى ان نلحق بالنجاشى فنكون عنده. فان ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى، فانا ان نكون تحت يديه احب الينا ان نكون تحت يدى محمد.

وان ظهر قومنا: فنحن من عرفوا.»

وقد كان عمرو كما رأينا من أكبر المؤلبين على عثمان.

وهو الذى صرفه عن تطبيق حد الله فى عبيد الله بن عمر بن الخطاب لقتله الهرمزان.

«فقد اقبل ابن العاص على عثمان حين رأى عثمان أن ينظر فى الاقتصاص من عبيد الله...

فقال له: يا أمير المؤمنين ان الله قد اعفاك ان يكون هذا الحدث كان ولك على المسلمين سلطان. انما كان الحدث ولاسلطان لك» [۲۹۲].

ولما بلغ عمرو وهو بفلسطين كما ذكرنا بأن الناس قد بايعوا عليا بأن معاوية يأبى البيعة اتصل عمرو بمعاوية وحبذ له فكرة المطالبة بدم عثمان.

ومن الطريف ان نـذكر فى هـذه المناسـبة : ان المؤرخين يكادون يجمعون على ذكر قصة اسـتشارة عمرو لولديه عبدالرحمن ومحمد، وهو بفلسـطين فى شأن موقفه من النزاع بين على ومعاويـة «فقال له عبـدالله: ان كنت لابـد فاعلا فالى على. قال عمرو: انى ان اتيت علياً يقول لى: انما انت رجل من المسلمين. وان اتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى الامر. وكان محمد ابنه الآخر على هذا الرأى.

فقال لهما عمرو: اما انت ياعبدالله فقد اخترت لآخرتى.

واما انت يامحمـد فقـد اخترت لـدنياى.. وقدم عمرو على معاوية.. وسأله اترى اننا خالفنا عليا لفضل منا عليه؟.. لا والله ان هى الا الدنيا نتكالب عليها» [۲۹۳].

[صفحه ۱۷۵]

ولاندرى ما صلة ذلك بالمطالبة بدم عثمان!!

هذا هو ممثل معاوية فى التحكيم.

أما ممثل على فهو ابو موسـى الاشـعرى الـذى كان يخـذل الناس عن نصـرة الخليفـة حين كان واليا له على الكوفـة الامر الـذى اضـطر الخليفة الى عزله.

ولنعد الآن الى موضوع التحكيم.

فـاذا نظرنـا اليه من الناحيـة المبدئيـة العامـة اى تحكيم كتـاب الله وسـيرة نبيه فيمـا يحصـل من اختلاف بين وجهات نظر المسـلمين فى امورهم الدينية، والدنيوية فان الامام على لا يرضى بغير ذلك بديلاً.

وقد بنى سياسـته العامة فى السـلم والحرب ومع انصاره واعدائه على السواء وفق مسـتلزمات القرآن والسنة. وتألب عليه خصومه وهرب منه بعض انصاره لتمسـكه بـذلك فى جميع تصـرفاته. وقـد مر بنا رفضه قبول الخلافـة اثناء الشورى لوضع شـرط ثالث بجانب الكتاب والسـنة. كمـا مر بنـا جـانب من موقفه مع الناكثين ودعوته اياهم الى تحكيم الكتاب والسـنة فيما خرجوا عليه، فلم يعترض الامام «اذن» على التحكيم الذى دعا اليه معاوية واصحابه من حيث المبدأ.

وانما اعترض على الشكل الذى جاء فيه والظروف التى احاطت به.

فقد رفع خصومه المصاحف على الرماح فى الوقت الذى كانت فيه جيوشه سائرة الى نصرها المبين.

ودعوا (كاذبين) الى تحكيم القرآن الذى حاربوا، وحاربوا من انزل عليه فى الجاهلية والاسلام.

واخترقوا نصوصه (وسنة الرسول) فى تصرفاتهم العامة من الناحيتين الدينية والدنيوية.

فقد امر معاوية باقتراح من ابن العاص كما ذكرنا اصحابه ان يربطوا المصاحف على اطراف القنا، فربطت المصاحف.

واول ما ربط مصحف دمشق الاعظم، ربط على خمسة ارماح يحملها خمسة رجال.

[صفحه ۱۷۶]

ثم ربطـوا سـائر المصـاحف، جميـع مـا كـان معهم. واقبلوا فى الغلس [۲۹۴] ونظر اهـل العراق الى اهـل الشـام قـد اقبلوا وامامهم شـيبه بالرايـات، فلم يـدروا مـا هو حتى اضـاء الصـبح، فنظروا فاذا هى المصاحف. واقبل ابو الاعور السـلمى على برذون [۲۹۵] اشهب وعلى رأسه مصحف وهو ينادى:

يا أهل العراق هذا كتاب الله حكماً فيما بيننا وبينكم.

فتكلم على وقال:

عبـاد الله انـا احرى من اجـاب الى كتاب الله ... ان القوم ليسوا يريـدون بـذلك الا المكر، وقـد عضـتهم الحرب، والله لقـد رفعوها وما رأيهم العمل بها. وليس يسعنى مع ذلك ان ادعى الى كتاب الله فلا اجيب. وكيف! وانما قاتلتهم ليدينوا بحكمه!» [۲۹۶].

وعندما وقف القتال، وانصاع القاسطون فى الظاهر الى رأى الامام فى تحكيم القرآن والسنة لحسم النزاع بين المعسكرين.

وافق الامام على قبول التحكيم التحكيم الـذى هو مبدؤه فى تصـرفاته كافة استمع اليه يخاطب ابن ابى سـفيان: ان البغى والزور يوقعان بالمرء فى دينه ودنياه ... ويبديان خلله عند من يعيبه. قد علمت انك غير مدرك ما قضى فواته.

وقـد رام اقوام امراً بغير الحق فتأولوا على الله فأكـذبهم ... وقـد دعوتنا الى حكم لقرآن ولست من اهله. ولسـنا اياك اجبنا ولكننا اجبنا القرآن فى حكمه» [۲۹۷].

وخاطبه فى موضع آخر فقال: «لقد ابتلانى الله بك وابتلاك بى. فجعل

[صفحه ۱۷۷]

أحـدنا حجـة على الآخر. فغـدوت على طلب الـدنيا بتأويل القرآن وطلبتنى بما لم تجن يـدى ولا لسانى، وعصـيته انت واهل الشام بى. والب عالمكم جاهلكم وقائمكم قاعدكم» [۲۹۸] فالامام اذن لم يعترض على مبدأ التحكيم.

بل التحكيم بالشـكل الـذى دعاه اليه معاوية والظروف التى حصل فيها. وبعد ان زالت تلك الظروف ووضـعت الحرب اوزارها اختفت عوامل ممانعة الامام بقوله.

غير ان الامام اعترض بعد ذلك على تعيين بعض اصحابه ابا موسى الاشعرى ليمثله فى ذلك.

وقـد كان اعتراض الامام مبنياً من حيث الاساس على القول بأن الممثل يجب ان يتبنى فكرة من يمثله بغض النظر عن سـلامتها ليتسـنى له القيام بواجبه على وجهه الاتم. فعمرو بن العاص خير من يمثل معاوية فى هذه الناحية.

فلما اصـر اصـحاب الخليفـة على رأيهم فى تعيين ابى موسـى رجع الامام الى نفسه على مايبدو وقلب الامر على وجوهه فلم ير بأسا من الموافقة على ذلك لان موضوع التحكيم سوف يسير حسبما اتفق الجانبان المتعاقدان على نصوص القرآن وسنة النبى حيث ينكشف لابى موسى زيفه السابق فى التخذيل عن الامام.

وما دام موضوع التحكيم برأى الامام منصبا على حسم الخلاف بينه وبين معاويـة وهو نزاع يتصل على ما ادعى معاويـة بالمطالبـة بـدم الخليفة القتيل، فسوف ينظر الحكمان فى القرآن والسنة فيما اذا كان عثمان قد قتل مظلوماً من جهة؟

وفيما اذا كان لمعاوية الحق فى المطالبة بدم عثمان من الناحية الشرعية اى انه ولى عثمان من جهة ثانية؟

وفيما اذا كان الاسلوب الذى اتبعه معاوية للمطالبة المذكورة فى حالة شرعيتها هو الاسلوب السليم من جهة ثالثة؟

وفيما ينبغى للخليفة ان يفعله من جهة رابعة؟

[صفحه ۱۷۸]

فاطمأن على الى ذلك كل الاطمئنان.

غير أن اجتماع الحكمين قد جعل الموضوع يسير باتجاه آخر لا صلة له اطلاقاً بموضوع المطالبة بدم عثمان ابن عفان.

فأغفل عمرو صاحبه ابتداءً كما رأينا.

والقى فى روعه ان موضوع التحكيم ينحصر فى تعيين خليفة جديد للمسلمين كأن خلع على من الخلافة قد بات أمراً مفروغاً معه.

فاقترح عمرو اسم معاوية فرفضه ابو موسى كما رأينا. واقترح عمرو بعد ذلك اسم ابنه عبدالله فرفضه ابو موسى ايضا، الامر الذى حدا بأبى موسى ان يتقدم هو بمرشح جديد. وهو عبدالله بن عمر بن الخطاب.

ولما اطمأن عمرو الى ثبوت ذلـك الرأى فى ذهن زميله اى فكرة خلع الخليفـة وتعيين آخر بـدله جعـل موضوع البحث ينحصـر فى الاتفاق على المرشح الجديد.

ولما ظهر انهما لم يتفقا على شـخص معين بالذات، طلب من ابى موسـى ان يقترح حلا للخروج من ذلك المأزق الحرج الذى يتوقف عليه مصير الحكم فى البلاد والذى يرقبه المسلمون بفارق الصبر فى كل مكان.

فتقدم ابو موسى باقتراح جديد ظنه كسبا له واندحار لعمرو بن العاص.

فقد خيل اليه انه سينتصر اذا ماوافق عمرو على «خلع» معاوية بعد أن بات خلع الامام امرا متفقا عليه. فوافق عمرو فى الظاهر على الفكرة واغراء باعلانها على الناس، ثم عاد فغدر به على الشكل الذى وصفناه.

وقد برز عمرو فى ذلك كله بأبشع مايبرز فيه الرجل من الخداع، والدس، والتدنى عن مستويات الاخلاق الرفيعة. فأغفل صاحبه وأغراه على خلع على ومعاوية على السواء ليترك الامر للمسلمين يختارون من يشاؤون.

فلما اعلن ابو موسى رأيه على الناس كما مر بنا نهض عمرو فأكد خلع على

[صفحه ۱۷۹]

وتثبيت ابن ابى سفيان. ولاندرى علاقة ذلك كله بالمطالبة بدم عثمان!! وهل تنازع على ومعاوية على الخلافة؟

وهل كان معاوية خليفة حتى يخلعه ابو موسى ويثبته ابن العاص؟

ومهما يكن من شىء فقد حصل خلع الامام وتثبيت معاوية. فارتاع دعاة التحكيم فى عسكر الامام.

فظهر المارقون من الخوارج.. وقالوا: لاحكم الا لله وهى كلمة حق يراد بها باطل على ما ذكر الخليفة. واراد اصحاب على قتال الخوارج فى بادىء الامر ولكنه ابى عليهم ذلك وانكره كشأنه فى مواقفه الاخرى ضد مناوئيه وقال:

«ان سكتوا تركناهم وان تكلموا حاججناهم وان افسدوا قاتلناهم» [۲۹۹].

بدأ المارقون نشر الفساد فى المناطق التى كانوا يسكنون فيها، فنهبوا واغتالوا وتعاطوا كثيرا من الموبقات. «فقتلوا عبدالله بن الخباب بن الارت وخباب من خيرة الصحابة وقتلوا نسوة كن مع عبدالله. وجعلوا يتعرضون الناس ويذيعون الذعر.

فأرسل اليهم على رجلاً من اصحابه يسألهم عن هذا الفساد.

فلم يكد هذا الرسول يدنو منهم حتى قتلوه» [۳۰۰].

فلم يجد على بداً من مقاتلتهم فى النهروان.

وقد وجد الامام نفسه مع ذلك كله، وامام هذه الامور العظام، وفى قلب هذه الفتنة الغليظة المظلمة.. كأحسن ما يجد الرجل نفسه.

صدق ايمان، ونصحاً للدين، وقياماً بالحق، واستقامة على الطريق المستقيمة، لاينحرف ولا يميل ولا يداهن من أمر الاسلام فى قليل ولاكثير.

وانما يرى الحق فيمضى اليه لا يلوى على شىء ولايحفل بالعاقبة، ولا يعنيه

[صفحه ۱۸۰]

ان يجد فى آخر طريقه نجحا او اخفاقا، ولا ان يجد فى آخر طريقه حياة او موتا.

وانما يعنيه كل العناية ان يجد اثناء طريقه وفى آخرها رضا ضميره ورضا الله» [۳۰۱].

فلا عجب ان رأينا حياته بعد النهروان خاصة، على ما يقول الدكتور طه حسين [۳۰۲].

«محنة شاقة الى اقصى حدود المشقة، كان يرى الحق واضحا صريحا.. وقد ظل الخوارج معه بعد ذلك يعايشونه فى الكوفة؛ ويعايشون عامله فى البصرة، وينبثون فى اطراف السواد بين المصريين.. وكانوا يكيدون للامام.

يشهدون صلاته ويسمعون خطبه واحاديثه، وربما عارضه منهم المعارض فقطع عليه الخطبة والحديث، وهم على ذلك مطمئنون الى عدله.

ويأخذون تعيينهم من الفىء وحظوظهم من المال!!

فأطمعهم عدله واسماحه، واغراهم لينه وبره.

جاء احدهم ذات يوم وهو: الحريث بن راشد السامى فقال له: والله لا اطعت امرك ولا صليت خلفك.. فلم يغضب على ذلك ولم يبطش به، وانما دعاه الى ان يناظر ويبين له وجه الحق لعله ان يثوب اليه.

فقال له الحريث: اعود اليك غداً فقبل منه على فانصرف الرجل الى قومه.

ثم خرج بهم فى ظلمة الليل من الكوفة يريد الحرب. ولقى الحريث واصحابه فى طريقهم رجلين سألوهما عن دينهما.

وكان احدهما يهوديا، فلما انبأهم بدينه خلوا سبيله.

وأما الآخر فكان مسلما من الموالى، فلما انبأهم بدينه سألوه عن رأيه فى على

[صفحه ۱۸۱]

فقال خيراً، فوثبوا عليه فقتلوه» [۳۰۳].

واستمر الحريث واصحابه على عبثهم وفسادهم بأرواح الناس وممتلكاتهم مما اضطر الامام الى تجهيز حملة لتأديبهم وانقاذ الناس من اعتدائهم.

ولم يقف امتحان الامام عند الحد الذى وصفناه من خروج الناكثين فالقاسطين فالمارقين، وانما تعداه الى ابن عباس عامله على البصرة اقرب الناس اليه. «وكان لابن عباس من العلم بأمور الدين والدنيا، ومن المكانة فى بنى هاشم وفى قريش عامة، وفى نفوس المسلمين جميعاً ما كان خليقا ان يعصمه من الانحراف» [۳۰۴].

ويلوح للباحث ان ابن عباس «آثر نفسه بشىء من الخير وسار فى بيت المال سيرة تخالف المألوف من امر على ومن امره هو.

وكأنه أنس من صاحب بيت المال وهو ابو الاسود الدؤلى شيئاً من النكير فأغلظ له فى القول ذات يوم.

وضاق ابو الاسود بما رأى وسمع فكتب الى على ... فروعه...

ولكن علياً صبر نفسه على ما تكره، كما تعود ان يفعل دائما..

فكتب الى ابن عباس ... بلغنى عنك امر ان كنت فعلته فقد اسخطت ربك وخنت امانتك وعصيت امامك وخنت المسلمين.

فارفع الى حسابك، واعلم ان حساب الله اشد من حساب الناس..

وليس غريبا ان يكتب على الى ابن عباس ما كتب، فهو لم يتعود الرفق فى امر المال، ولا الادهان فى امر من امور المسلمين..

ولكن ابن عباس اعرض عن هذا كله، فاعتزل عمله ولكنه مع ذلك لم يستعف

[صفحه ۱۸۲]

امامه ولم ينتظر ان يعفيه، وانما اعفى نفسه وترك البصرة، ولحق بمكة حيث لا يبلغه سلطان الامام».

غير ان ابن عباس «لم يكتف بما بلغ من هذه المغاضبة، ولا بما انتهى اليه من هذا التصرف الغريب بل اضاف اليه شراً عظيما لم يسوء به الامام وحده.

وانما اساء به الرعية كلها وعامة اهل البصرة خاصة.

فهو قد ازمع الخروج الى مكة ولكنه لم يخرج منها فارغ اليدين من المال كما دخلها حين ولى عليها.

وانما خرج منها وقد ملأ يديه بما كان فى بيت المال مما ينقل.

وهو يعلم ان ليس له فى هذا المال حق الإ مثل ما لأهل البصرة جميعا فيه» [۳۰۵].

فمضى امتحان على «على هذا النحو المر: خيانة من الوالى، وكيدا من العدو. وهو بين ذلك كله مصمم على خطته الواضحة، لا يرضى الدنية من الامر، ولايداهن فى دينه ولايتحول عن سياسته الصريحة قليلا ولا كثيراً.

والمحن تتابع عليه ويقفو بعضها اثر بعض، وهو ماض فى طريقه لا ينحرف عنه الى يمين او شمال» [۳۰۶].

وفى غمرة النضال وزحمة الصراع مع الباطل تصدى له ابن ملجم فأصاب منه مقتلا «ويروى المؤرخون: ان عليا امر من حوله ان يحسنوا اطعام ابن ملجم ويكرموا منواه. فان برىء من ضربته نظر، فاما عفا واما اقتص.

وامرهم: ان مات ان يلحقوه به ولا يعتدوا: ان الله لا يحب المعتدين».

[صفحه ۱۸۳]

بين على و معاوية

اشاره

۱ الفصل السابع: مقتطفات من سيرة الامام

۲ الفصل الثامن: نماذج من تصرفات معاوية

[صفحه ۱۸۴]

مقتطفات من سيرة الامام

اشاره

أشرنا فى الفصول السابقة الى كثير من الحوادث التى دلت على تمسك الامام بكتاب الله وسنة رسوله فيما يتعلق بتصرفاته العامة والخاصة، فى زمن الحرب وفى وقت السلم، مع أنصاره وخصومه على السواء. وها نحن ننقل الى القارىء بعض آثاره التى رواها كبار المؤرخين المسلمين.

[صفحه ۱۸۵]

فلسفة الحكم

تتلخص فلسفة الحكم عند الامام فى عهده للأشتر الذى ولاه مصر فدس له السم فى الطريق احد الاشخاص بتحريض من معاوية وعمرو بن العاص كما يحدثنا الرواة. والى القارىء ملخص العهد [۳۰۷]:

«هذا ما امر به عبدالله أمير المؤمنين مالك بن الحارث الاشتر فى عهده اليه حين ولاه مصر.. أمره بتقوى الله وايثار طاعته واتباع ما امر به فى كتابه..

ثم اعلم يا مالك انى قد وجهتك الى بلاد قد جرت عليها دول قبلك من عدل وجور، وان الناس ينظرون من امورك فى مثل ما كنت تنظر فيه الى امور الولاة قبلك.

ويقولون فيك ما كنت تقوله فيهم..

فليكن أحب الذخائر اليك خيرة: العمل الصالح.

أشعر قلبك الرحمة للرعية.. فإنك فوقهم..

أنصف الله وأنصف الناس من نفسك ومن خاصة أهلك ومن لك فيه هوى من رعيتك.. وليكن أحب الامور إليك أوسطها فى الحق، وأعمها فى العدل، وأجمعها لرضى الرعية. فإن سخط العامة، يجحف برضاء الخاصة، وإن سخط الخاصة يغتفر مع رضى العامة..

وليكن أبعد رعيتك منك.. أطلبهم لمعايب الناس.. إن شر وزرائك من كان قبلك للأشرار وزيراً، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة..

ثم ليكن آثرهم عندك أقولهم بالحق لك.. ألصق بأهل الورع والصدق، ثم حثهم على أن لا يطروك ولا يبجحوك بباطل لم تفعله..

[صفحه ۱۸۶]

ولايكونن المحسن والمسىء عندك سواء: فإن فى ذلك تزهيداً لأهل الإحسان فى الإحسان، وتدريباً لأهل الإساءة على الإساءة.

والزم كلا منهم ماالزم نفسه، واعلم أنه ليس شيء أدعى الى حسن ظن وال برعيته من إحسانه إليهم وتخفيفه المؤنات عليهم..

لا تنقض سنة صالحة عمل بها صدور هذه الامة..

وصلحت عليها الرعية.

ولاتحدثن سنة تضر بشيء من ماضى تلك السنن..

وأكثر مدارسة العلماء ومناقشة الحكماء..

واعلم: أن الرعية طبقات لايصلح بعضها الا ببعض ولا غنى لبعضها عن بعض؛ فمنها الجنود، ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل وعمال الإنصاف وأهل الجزية والخراج من أهل الذمة، ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات ومنها الطبقة السفلى من ذوى الحاجات والمسكنة.

وكل قد سمى الله له سهمه، ووضع على حده وفرضه فى كتابه أو سنة نبيه..

إن فضل قرة عين الولاة استقامة العدل فى البلاد وظهور مودة الرعية..

اختر للحكم بين الناس: أفضل رعيتك فى نفسك ممن لاتضيق به الامور ولا تمحكه الخصوم.. ثم انظر أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وإثرة..

أسبغ عليهم الارزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم ان خالفوك أمرك..

ثم تفقد اعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم.. وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى اصلاحهم صلاحا لمن سواهم.. لأن الناس كلهم عيال على الخراج..

ثم استوص بالتجار وذوى الصناعات وأوص بهم خيراً.. واعلم مع ذلك ان فى كثير منهم ضيقاً فاحشاً وشحاً قبيحاً واحتكاراً للمنافع وتحكماً فى البياعات، وذلك باب مضر للعامة وعيب على الولاة.

[صفحه ۱۸۷]

فامتنع من الاحتكار، فمن قارف حكرة بعد نهيك اياه فنكل به وعاقبه من غير اسراف.

ثم الله الله فى الطبقة السفلى من الذين لا حيلة لهم من المساكين والمحتاجين..

إجعل لهم قسما من بيت المال.. ولا تشخص همك عنهم، ولا تصعر خدك لهم.

وتفقد أمور من لايصل اليك منهم. ففرغ لأولئك ثقتك من أهل الخشية والتواضع لترفع إليك أمورهم..

واجعل لذوى الحاجات وقتاً تفرغ لهم فيه شخصك وتجلس لهم مجلساً عاماً فتتواضع فيه..

وتعقد عنهم جندك وأعوانك من حراسك وشرطك حتى يكلمك مكلمهم غير متعتع.. ثم احتمل الخرق منهم والعىّ ونح عنهم الضيق..

ولا تطولن احتجاجك عن رعيتك.. فالاحتجاب منهم يقطع عنهم علم ما احتجبوا دونه.. فيشاب الحق بالباطل. وانما الوالى بشر لايعرف ما توارى عنه الناس من الامور. وليست على الحق سمات تعرف بها ضروب الصدق من الكذب..

ثم ان للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة انصاف فى المعاملة:

فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الاحوال..

وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد..

وحط عهدك بالوفاء وارع ذمتك بالامانة.. فإنه ليس من فرائض الله شيء الناس اشد عليه اجتماعاً مع تفرق أهوائهم وتشتت آرائهم من تعظيم الوفاء بالعهود..

ولا تغدرن بذمتك.. واياك والدماء وسفكها بغير حلها.. ولاعذر لك عند الله ولاعندى فى قتل العمد..

وإياك والإعجاب بنفسك والثقة بما يعجبك منها وحب الإطراء..

[صفحه ۱۸۸]

وإياك والمن على رعيتك بإحسانك..

أو أن تعدهم فتتبع موعدك بخلفك.. وإياك والعجلة بالأمور قبل أوانها أو التساقط فيها عند إمكانها...

فضع كل أمر موضعه.. أملك حمية انفك وسورة حدك وسطوة يدك وغرب لسانك.

واحترس من كل ذلك بكف البادرة وتأخير السطوة حتى يسكن غضبك فتملك الاختيار».

حرصه على بيت المال

لقد مر بنا جانب من ذكر حرص الإمام على أموال المسلمين عندما تحدثنا عن موقفه من ولده الحسين فى قضية العسل، ومن أخيه عقيل حين قدم عليه طالباً زيادة حصته من الدقيق.

وإلى القارىء طائفة من الامثلة الاخرى فى هذا الباب.

قال هارون بن عنترة عن أبيه: دخلت على على بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه فقلت:

يا أمير المؤمنين إن الله جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً؛ وأنت تفعل هذا بنفسك؟ فقال:

والله ما أرزأكم شيئا. وماهى الا قطيفتى التى اخرجتها من المدينة» [۳۰۸].

ولم ينزل الإمام على ما يحدثنا الرواة «القصر الابيض بالكوفة إيثاراً للخصاص التى كان يسكنها الفقراء. وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام.

وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: دخلت على على فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته وكسرة يابسة. فقلت: يا أمير المؤمنين أتأكل مثل هذا؟

[صفحه ۱۸۹]

فقال لى: يا أبا الجنوب كان رسول الله يأكل أيبس من هذا، ويلبس أخشن من هذا وأشار الى ثيابه فإن لم آخذ بما أخذ به خفت الا الحق به» [۳۰۹].

وكتب ابن الأثير: ان عاصم بن كليب روى عن ابيه انه قال: «قدم على على مال من اصبهان فقسمه على سبعة اسهم. فوجد فيه رغيفاً فقسمه على سبعة ودعا امراء الاسباع فأقرع بينهم لينظر ايهم يعطى أولاً.

وذكر يحيى بن مسلمة: أن علياً استعمل عمرو بن مسلمة على أصبهان «فقدم ومعه مال كثير وزقاق فيها عسل وسمن.

فأرسل أم كلثوم بنت على الى عمرو تطلب منه سمناً وعسلاً. فأرسل اليها ظرف عسل وظرف سمن. فلما كان الغد خرج على واحضر المال والسمن والعسل ليقسم. فعد الزقاق فنقصت زقين. فسأله عنهما. فكتمه وقال: نحن نحضرهما. فعزم عليه الا ذكرهما له. فأخبره.

فأرسل الى أم كلثوم فأخذ الزقين منها فرآهما قد نقصا، فأمر التجار بتقويم مانقص منهما، فكان ثلاثة دراهم.

فأرسل اليها فأخذها منها!، ثم قسم الجميع..

وقال سفيان: إن علياً لم يبن آجرة على آجرة، ولا لبنة على لبنة، ولاقصبة على قصبة.

وقيل: إنه أخرج سيفاً الى السوق فباعه وقال: لو كان عندى اربعة دراهم ثمن إزار لم ابعه، وكان لا يشترى ممن يعرفه، واذا اشترى قميصاً قدر كمه على طول يده وقطع الباقى، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير الذى يأكل منه ويقول:

لاأحب ان يدخل بطنى الا ما اعلم» [۳۱۰].

[صفحه ۱۹۰]

تواضعه و عدله

ذكر الشعبى على مايقول ابن الأثير [۳۱۱]:

إن علياً وجد درعاً عند نصرانى «فأقبل الى شريح قاضيه وجلس الى جانبه يخاصم النصرانى مخاصمة رجل من رعاياه، وقال: انها درعى ولم أبع ولم اهب، قال شريح للنصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟

قال النصرانى: ما الدرع الا درعى وما أمير المؤمنين بكاذب؟!

فالتفت شريح، الى على يسأله. يا أمير المؤمنين، هل من بينة؟ فضحك على..

وقال: اصاب شريح، مالى من بينة؟ فقضى بالدرع للنصرانى فاخذها ومشى.. وأمير المؤمنين ينظر اليه.. الا ان النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد ان هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يدينني الى قاضيه.. وقاضيه يقضى عليه، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين».

وكان الإمام، لشدة تواضعه وحرصه على إقامة العدل بين رعيته، اذا أراد أن يشترى شيئا بنفسه، على ما يذكر الدكتور طه حسين «تحرى بين السوقة رجلا لا يعرفه فاشترى منه ما يريد.

وكان يكره ان يحابيه البائع ان عرف انه أمير المؤمنين، ثم كان لايرضى عن نفسه الا اذا أدى للناس حقهم عليه فى دينه فأقام لهم صلاتهم وعلمهم بالقول والعمل وقام على اطعام فقرائهم طعام العشاء وتحرى ذوى الحاجة منهم فأغناهم عن المسألة.

وكان يخلو لنفسه اذا كان الليل فينصرف عن الناس الى عبادته الخاصة مصلياً مجتهداً حتى يتقدم الليل، فإذا اخذ بحظه من النوم غلس بالخروج الى المسجد» [۳۱۲].

[صفحه ۱۹۱]

تحليل لسياسته العامة

أعلم أن قوماً ممن لم يعرفوا حقيقة فضل على بن ابى طالب، زعموا: أن عمر ابن الخطاب كان أسوس منه، وإن كان هو أعلم من عمر، وصرح بذلك أبو على ابن سينا: وعلى بن ابى طالب كان مقيداً بقيود الشريعة مدفوعاً الى اتباعها.

ورفض ما يصلح اعتماده من آراء الحرب والكيد والتدبير اذا لم يكن للشرع موافقاً.

فلم تكن قاعدته فى خلافته قاعدة غيره ممن يلتزم بذلك، ولسنا بهذا القول زارين على عمر.. ولكن عمر كان مجتهداً يعمل بالقياس.. ويرى تخصيص عمومات النص بالآراء والاستنباط من أصول تقضى خلاف ما يقتضيه عموم النص، ويكيد خصمه ويأمر أمراءه بالكيد والحيلة، ويؤدب بالدرة والسوط من يغلب على ظنه أنه يستوجب ذلك، ويصفح عن آخرين قد اجترموا ما يستحقون به التأديب.

ولم يكن على يرى ذلك، وكان يقف مع النصوص لا يتعداها الى الاجتهاد والاقيسة، ويطبق امور الدنيا على أمور الدين ويسوق الكل مساقاً واحداً.

ولا يرفع ولا يضع إلا بالكتاب والنص..

ولم يكن يرى مخالفة الشرع لاجل السياسة سواء اكانت سياسته دينية ام دنيوية.

أما الدنيوية: فنحو أن يتوهم الإمام فى انسان أنه يروم فساد خلافته من غير ان يثبت ذلك عليه يقيناً.

فإن علياً لم يكن يستحل قتله ولا حبسه ولا يعمل بالتوهم وبالقول غير المحقق.

وأما الدينية: فنحو ضرب المتهم بالسرقة فإنه لم يكن يعمل به بل يقول: أن يثبت عليه بإقرار أو بينة أقمت عليه الحد والا لم اعترضه.

[صفحه ۱۹۲]

...واذا كان مذهبه ما قلناه وكان معاوية عنده فاسقاً وقد سبق عنده مقدمة اخرى ويقينية هى: ان استعمال الفاسق لا يجوز، ولم يكن ممن يرى تمهيد قاعدة الخلافة بمخالفة الشريعة فقد تعين مجاهرته بالعزل، وإن أفضى ذلك الى الحرب.. وجواب على الاعتراض على عزله معاوية وهو: أنا علمنا أن الاحداث التى نقمت على عثمان.. توليته معاوية الشام مع ماظهر من جوره وعدوانه ومخالفته احكام الدين.. وقد خوطب عثمان فى ذلك فاعتذر..

فلو أن علياً فتح عقد الخلافة له بتوليته معاوية الشام واقراره فيه أليس كان يبتدى.

أول أمره بما انتهى اليه عثمان فى آخره؟..

ولو كان اقراره معاوية فى حكم الشريعة سائغاً والوزر فيه مأموناً لكان غلطاً قبيحاً فى السياسة وسبباً قرباً للعصيان والخالفة. ولم يكن يمكن علياً ان يقول للمسلمين.

إن حقيقة رأيى هى: عزل معاوية عند استقرار الامر وطاعة الجمهور.

وإن قصدى بإقراره على الولاية مخادعته وتعجل طاعته.. لان اظهاره لهذا العزم كان يتصل خبره بمعاوية فيفسد التدبير الذى شرع فيه..

ومما اعترض على على به: أنه ترك طلحة والزبير حتى خرجا الى مكة وأذن لهما فى العمرة، وظهر عنه الرأى فى ارتباطهما قبله ومنعهما من البعد عنه فى عهد عمر .

وقد روى عن علىّ أنه قال لهما .

والله ما تريدان العمرة وانما تريدان الغدرة وخوفهما بالله من التسرع الى الفتنة.

وأخذ عليهما عهد الله وميثاقه فى الرجوع الى المدينة؛ وما كان يجوز له فى الشرع ان يحبسهما، ولا فى السياسة، فلإنه لو اظهر التهمة لهما وهما من افاضل السابقين وجلة المهاجرين لكان فى ذلك من التنفير عنه ما لا يخفى ومن الطعن عليه ما هو معلوم..

[صفحه ۱۹۳]

لاسيما وأن طلحة كان اول من بايعه. والزبير لم يزل مشتهراً بنصرته» [۳۱۳].

بعض أقواله المأثورة

۱ الدنيا منتهى بصر الاعمى لا يبصر مما وراءها، والبصير ينفذها بصره ويعلم أن الدار وراءها، فالبصير منها شاخص والاعمى اليها شاخص، والبصير منها متزود والاعمى لها متزود [۳۱۴].

۲ ليس لواضع المعروف فى غير حقه وعند غير أهله الا محمدة اللئام وثناء الاشرار ومقالة الجهال ما دام منعماً عليهم.

۳ إنه سيأتى عليكم من بعدى زمان ليس فيه شىء اخفى من الحق ولا اظهر من الباطل ولا اكثر من الكذب على الله.. ولا فى البلاد شىء انكر من المعروف ولا اعرف من المنكر.

۴ اذا أقبلت الدنيا على قوم اعارتهم محاسن غيرهم، واذا أدبرت عنهم سلبتهم محاسن انفسهم.

۵ خالطوا الناس مخالطة إن متم معها بكوا عليكم، وإن عشتم حنوا اليكم.

۶ إحذروا صولة الكريم اذا جاع، واللئيم اذا شبع.

۷ هلك فىّ رجلان: محب غال ومبغض قال.

۸ احذروا أهل النفاق فإنهم الضالون المضلون..

يمشون الخفاء ويدبون الضراء.. لهم بكل طريق صريع.

[صفحه ۱۹۴]

وإلى كل قلب شفيع، ولكل شجو دموع، يتقارضون الثناء ويتراقبون الجزاء.

إن سألوا ألحفوا، وإن عذلوا كشفوا، وإن حكموا اسرفوا.

وقد اعدوا لكل حق باطلا، ولكل قائم مائلا، ولكل حى قاتلاً، ولكل باب مفتاحاً، ولكل ليل مصباحاً.

۹ احذر كل عمل يرضاه صاحبه لنفسه ويكره لعامة المسلمين.

واحذر كل عمل يعمل به فى السر ويستحى منه فى العلانية.

واحذر كل عمل اذا سئل صاحبه أنكره أو اعتذر منه.

۱۰ فاعل الخير خير منه وفاعل الشر شر منه.

۱۱ الصبر صبران: صبر على ما تكره وصبر عما تحب.

۱۲ من نصب نفسه للناس إماماً فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره، وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه.

۱۳ إن الدنيا والآخرة عدوان متفاوتان، وسبيلان مختلفان، فمن احب الدنيا وتولاها ابغض الآخرة وعاداها.

وهما بمنزلة المشرق والمغرب وماش بينهما كلما قرب من واحد بعد من الآخر.

۱۴ صاحب السلطان كراكب الاسد يغبط بموقعه وهو أعلم بموضعه.

۱۵ من كرمت عليه نفسه هانت عليه شهواته.

۱۶ العدل صورة واحدة والجور صور كثيرة، ولهذا سهل ارتكاب الجور وصعب تحرى العدل، وهما يشبهان الإصابة فى الرماية والخطأ فيها.

وإن الإصابة تحتاج الى ارتياض وتعهد، والخطأ لا يحتاج الى شىء من ذلك.

۱۷ أما بعد فإن الدنيا مشغلة عن غيرها. ولم يصب صاحبها منها شيئاً إلا فتحت له حرصاً عليها ولهجاً بها.

[صفحه ۱۹۵]

۱۸ لقد أصبحتم فى زمن لا يزداد الخير فيه الا إدباراً والشر فيه الا إقبالاً ... اضرب بصرك حيث شئت من الناس، فهل تبصر الا فقيراً يكابد فقراً أو غنياً بدل نعمة الله كفراً او بخيلا اتخذ البخل بحق الله وفراً.. أو متمرداً كأن بأذنه عن سمع المواعظ وقراً.. لعن الله الآمرين بالمعروف التاركين له، والناهين عن المنكر العاملين به.

۱۹ يا أبا ذر: غضبت لله فارج من غضبت له.

إن القوم خافوك على دنياهم وخفتهم على دينك، فاترك فى أيدهم ماخافوك عليه، واهرب منهم بما خفتهم عليه، فما احوجهم الى ما منعتهم، وما أغناك عما منعوك!

۲۰ إن لسان المؤمن من وراء قلبه، وإن قلب المنافق من وراء لسانه، لأن المؤمن اذا اراد ان يتكلم بكلام تدبره فى نفسه، فإن كان خيراً أبداه، وإن كان شراً واراه. وان المنافق يتكلم بما اتى على لسانه، لايدرى ماذا له وماذا عليه.

۲۱ والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر.

۲۲ ومن وصية له للحسن كتبها اليه بحاضرين من صفين:

من الوالد الفانى.. المستسلم للدهر...

الى المولود المؤمل ما لا يدرك، السالك سبيل من قد هلك.. تاجر الغرور، وغريم المنايا.. وصريع الشهوات.

أوصيك بتقوى الله اى بنى ولزوم امره. وامر بالمعروف تكن من اهله، وانكر المنكر بيدك ولسانك.. ولاتأخذك فى الله لومة لائم..

وخض الغمرات للحق حيث كان.

وتفقه فى الدين، وعود نفسك التصبر على المكروه.

وأخلص فى المسألة لربك..

واعلم: أنه لا خير فى علم لا ينفع، ولا ينتفع بعلم لا يحق تعلمه..

[صفحه ۱۹۶]

اى بنى: إنى وان لم اكن عمرت عمر من كان قبلى فقد نظرت فى اعمالهم، وفكرت فى اخبارهم، وسرت فى آثارهم حتى عدت كأحدهم، بل كأنى بما انتهى الى من امورهم قد عمرت مع اولهم الى آخرهم، فعرفت صفو ذلك من كدره ونفعه من ضرره، اعلم يا بنى ان احب ما أنت آخذ به وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك.

يابنى اجعل من نفسك ميزانا فيما بينك وبين غيرك. فاحبب لغيرك ما تحب لنفسك او اكره له ما تكره لها، ولا تظلم كما لا تحب ان تظلم، واحسن كما تحب ان يحسن اليك، واستقبح من نفسك ما تستقبحه من غيرك.

وارض من الناس بما ترضاه لهم من نفسك، ولا تقل ما لا تعلم وإن قَّل ماتعلم.

واعلم: انك إنما خلقت للآخرة لا للدنيا.. وانت طريد الموت الذى لا ينجو منه هارب.. فكن منه على حذر ان يدركك وانت على حالة سيئة.

وإياك ان تغتر بما ترى من اخلاد اهل الدنيا اليها وتكالبهم عليها.. فإنما أهلها كلاب عاوية وسباع ضارية يهر بعضها على بعض ويأكل عزيزها ذليلها.. سلكت بهم الدنيا طريق العمى، فتاهوا فى حيرتها.. ونسوا ما وراءها.

واعلم يابنى: ان من كانت مطيته الليل والنهار فإنه يسار به وان كان واقفاً..

واكرم نفسك عن كل دنية وان ساقتك اليه الرغائب ... وماخير؛ خير لا ينال الا بشر، وبشر لا ينال الا بعسر.. وتلافيك ما فرط من صمتك ايسر من ادراكك ما فات من منطقك.. والحرفة مع العفة خير من الغنى مع الفجور.

إحمل نفسك من اخيك عند صرمه على الصلة، وعند صدوده على اللطف والمقاربة.. وعند جرمه على العذر، حتى كأنك له عبد.. وإياك ان تضع ذلك فى غير موضعه..

لا تتخذ من عدو صديقك صديقا، فتعادى صديقك، وامحض اخاك النصيحة حسنة كانت ام قبيحة.

ولن لمن غالظك فإنه يوشك ان يلين لك.

[صفحه ۱۹۷]

إن أردت قطيعة أخيك فاستبق له من نفسك بقية يرجع اليها إن بدا له ذلك يوما ما..

ما أقبح الخضوع عند الحاجة والجفاء عند الغنى..

استدل على مالم يكن بما قد كان، فإن الامور اشباه، ولاتكون ممن لاتنفعه العظة الا اذا بالغت فى ايلامه، فإن العاقل يتعظ بالآداب، والبهائم لاتتعظ الا بالضرب.

ما ينطبق عليه من آى الذكر الحكيم

سورة النساء: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن اولئك رفيقاً».

سورة فصلت: «إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تنزل عليهم الملائكة ألاتخافوا ولاتحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون، نحن أولياؤكم فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ولكم فيها ما تشتهى انفسكم ولكم فيها ماتدعون»

سورة المنازعات: «وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى، فإن الجنة هى المأوى:».

[صفحه ۱۹۸]

نماذج من تصرفات الخليفة الجديد

اشاره

قد مر بنا نماذج من تصرفات معاوية تجاه خصومه واتباعه معاً. وكان طابع تلك التصرفات، كما لاحظ القارىء، الغدر والإيقاع بالخصوم، وبذل المال وتوزيع المناصب على الأتباع.

أى ان سياسة معاوية كانت سياسة وصولية انتهازية تسير على المبدأ القائل: بأن الوسائل تبررها الغايات، ولو كانت الغايات نبيلة عادلة تهدف الى توزيع العدل الاجتماعى بين الناس لكان هناك مجال امام الباحث للدفاع عنها، ولكنها كما رأينا:

أهداف شخصية نفعية غرضها الظاهر التوصل إلى الحكم بمختلف الأساليب والوسائل.

وهدفها البعيد تحطيم روح الإسلام والقضاء على مثله العليا فى السياسة والاخلاق.

وقد نجح معاوية مع الاسف الشديد فيما كان يتوق الى التوصل إليه، فاستولى على خلافة المسلمين، وسار بها وفق أهوائه ومصالحه، وخلف للمسلمين والعرب هذا التراث الاجتماعى البغيض وهذه العصبية الطائفية والقبلية المجرمة التى نكتوى بنارها فى الوقت الحاضر.

وإلى القارىء نماذج اخرى من تصرفات ابن ابى سفيان، سقناها لغرض موازنتها بتصرفات ابن ابى طالب، ليرى القارىء الفرق الكبير بين الرجلين، ومدى التدهور الذى اصاب نظام الحكم فى الإسلام، وقديماً قيل: وبضدها تتميز الاشياء.

[صفحه ۱۹۹]

ماساة حجر بن عدى

ذكر ابن الأثير [۳۱۵] قصة حجر واتباعه فقال: «دخلت سنة إحدى وخمسين وفيها قتل حجر بن عدى واصحابه وسبب ذلك ان معاوية استعمل المغيرة بن شعبة على الكوفة سنة احدى واربعين. فلما امره عليها دعاه وقال:

قد اردت ايصاءك بأشياء كثيرة أنا تاركها اعتماداً على بصرك، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة: لاتترك شتم على وذمه، والترحم على عثمان، والعيب لاصحاب على، والإقصاء لهم، والإطراء بشيعة عثمان، والإدناء لهم.

فأخذ المغيرة يشتم علياً.. فإذا سمع ذلك حجر بن عدى قال:

بل إياكم ذم الله ولعن. أنا أشهد ان من تذمون احق بالفضل.

وقد حبس المغيرة أرزاق حجر واصحابه. فكان حجر يناديه بقوله:

مر لنا ايها الإنسان بأرزاقنا فقد حبستها عنا وليس ذلك لك.

ثم توفى المغيرة وولى زياد فاستمر على الفعل نفسه.

وجمع زياد من أصحاب عدى اثنا عشر رجلا فى السجن واحضر شهوداً وقال: إنى لأحب ان يكون الشهود أكثر من اربعة، فدعا الناس ليشهدوا فشهد جمع كبير منهم: اسحق، وموسى، ابنا طلحة بن عبيد الله، والمنذر بن الزبير، وعمار ابن عقبة ابن ابى معيط.

ثم دفع زياد حجر بن عدى وأصحابه الى وائل بن حجر الحضرمى وكثير ابن شهاب وامرهما ان يسيرا بهم الى الشام فخرجوا عشية فلما بلغوا الغريين لحقهم شريح بن هانى واعطى وائلا كتابا فقال: ابلغه امير المؤمنين فأخذه. وساروا حتى انتهوا بهم الى مرج عذراء عند دمشق وكانوا:

[صفحه ۲۰۰]

حجر بن عدى الكندى، والارقم بن عبدالله الكندى، وشريك بن شداد الحضرمى، وصيفى بن فسيل الشيبانى، وقبيصة بن ضبيع

العبسى، وكريم بن عفيف الخثعمى، وعاصم بن عوف البجلى، وورقاء بن سمى البجلى، وكدام بن حسان، وعبدالرحمن العنزيان، ومحرر بن شهاب التميمى، وعبدالله بن حوية السعدى..

وأتبعهم برجلين هما: عتبة بن الاخمس بن سعد بن بكر، وسعد بن نمران الهمدانى. فتموا اربعة عشر رجلا.

ودفع وائل الى معاوية كتاب شريح بن هانى. فإذا فيه: بلغنى ان زياداً كتب شهادتى وان شهادتى على حجر انه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال».

وروى الطبرى [۳۱۶] مأساة ابن عدى وصحبه على الشكل التالى:

«جاء قيس بن عباد الشيبانى الى زياد فقال له: ان شخصا منا من بنى همام يقال له صيفى بن فسيل من رؤوس اصحاب حجر وهو اشد الناس عليك، فبعث اليه زياد فأتى به فقال له زياد: يا عدو الله ما تقول فى ابى تراب قال: ما اعرف ابا تراب.

قال: اما تعرف على بن ابى طالب؟ قال: بلى. قال: فذاك ابو تراب.

قال: كلا ذاك ابو الحسن والحسين.

فقال له صاحب الشرطة: يقول لك الأمير هو ابو تراب؟ وتقول انت لا. قال: وإن كذبت الأمير اتريد ان اكذب واشهد له على باطل كما شهد. قال له زياد: وهذا ايضا مع ذنبك!!! علىَّ بالعصا. فأتى بها فقال ما قولك؟

قال: احسن قول انا قائله فى عبدمن عباد الله المؤمنين

[صفحه ۲۰۱]

قال: اضربوا عاتقه بالعصا حتى يلتصق بالارض فضرب حتى لزم الارض.

ثم قال: اقلعوا عنه فسأله: إيه ما قولك فى على.

قال: والله لو شرحتنى بالمواسى والمدى ما قلت إلا ما سمعت منى.

قال: لتلعننه او لاضربن عنقك قال: اذا تضربها والله قبل ذلك فإن ابيت الا ان نضربها رضيت بالله وشقيت انت قال: ادفعوا فى رقبته.

ثم قال: اوقروه حديداً والقوه فى السجن.

ويستمر الطبرى على سرد تلك المأساة فيروى لنا قصة شهادة الزور الكبرى التى لفقتها حكام المسلمين آنذاك على هؤلاء النفر من المسلمين.

«هذا ما شهد عليه ابو بردة بن ابى موسى لله رب العالمين شهد أن حجر بن عدى خلع الطاعة وفارق الجماعة.

وجمع اليه الجموع يدعوهم الى نكث البيعة وخلع امير المؤمنين معاوية وكفر بالله عز وجل كفرة صلعاء. فقال زياد:

على مثل هذه الشهادة فاشهدوا، أما والله لاجدن على قطع خيط عنق الخائن الاحمق.

فشهد رؤوس الارباع على مثل شهادته وكانوا اربعة.

ثم إن زياداً دعا الناس فقال: اشهدوا على مثل شهادة رؤوس الارباع.

فقرأ عليهم الكتاب فقال اول الناس عناق بن سرجيل بن ابى دهم التيمى فقال: زياد: أبدأوا بأسامى قريش ثم اكتبوا اسم عناق فى الشهود ومن نعرفه ويعرفه امير المؤمنين.

فشهد إسحق بن طلحة بن عبيد الله، وموسى بن طلحة، واسماعيل بن طلحة والمنذر بن الزبير، وعمارة بن عقبة بن ابى معيط، وعبدالرحمن بن هناد، وعمر ابن سعد بن ابى وقاص، وعامر بن مسعود بن اميه، ومحرز بن ربيعة بن عبدالعزى

[صفحه ۲۰۲]

ابن عبدشمس، وعبيد الله بن مسلم بن شعبة الحضرمى، وعناق بن شرجيل بن ابى دهم ووائل بن حجر الحضرمى، وكثير بن شهاب ابن حصين الحارثى وقطن ابن عبدالله بن حصين والسرى بن وقاص الحارثى.

وكتبت شهادته وهو غائب فى عمله والسائب بن الاقرع الثقفى وشبث ابن ربعى وعبدالله بن ابى عقيل الثقفى، ومصقلة بن هبيرة الشيبانى والقعقاع بن شور الدهلى، وشداد بن المنذر بن الحارث بن وغلة الذهلى.. وحجار بن ابجر العجلى، وعمرو بن الحجاج الزبيدى، ولبيد بن عطارد التميمى، ومحمد بن عمير ابن عطارد التميمى، وسويد بن عبدالرحمن التميمى واسماء بن خارجة القزارى، وشمر بن ذى الجوشن العامرى وشداد ومروان ابنا الهيثم الهلاليان، ومحصن ابن ثعلبة بن عائذة القرشى، والهيتم بن الاسود النخعى وكان يعتذر اليهم وعبدالرحمن بن قيس الاسدى، والحارث وشداد ابنا الازمع الهمدانيان وكريب بن سلمة بن يزيد الجعفى، وعبدالرحمن بن ابى سبرة الجعفى، وزحر بن قيس الجعفى، وقدامة بن العجلان الازدى، وعزرة بن عزة الاحمس.

وكتبت شهادة هؤلاء الشهود فى صحيفة ثم دفعها زياد الى وائل بن حجر الحضرمى وكثير بن شهاب الحارثى، وبعثهما عليهم، وامرهما ان يخرجا بهم.

وكتب فى الشهود شريح بن الحارث القاضى وشريح بن هانى الحارثى.

فأما شريح القاضى فقال:

سألنى عن حجر فأخبرته أنه كان صواماً قواماً.

وأما شريح بن هانى الحارثى فكان يقول:

ما شهدت ولقد بلغنى ان قد كتبت شهادتى فأكذبته ولمته.. فمضوا بهم حتى انتهوا الى الغريين فلحقهم شريح بن هانى معه كتاب.

فقال لكثير: بلغ كتابى هذا أمير المؤمنين.

[صفحه ۲۰۳]

ودفع وائل بن حجر كتاب شريح بن هانى فقرأه فإذا به: أما بعد فإنه بلغنى أن زياداً كتب اليك بشهادتى على حجر بن عدى وان شهادتى على حجر انه ممن يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويديم الحج والعمرة ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر حرام الدم والمال».

وأما من قتل من أصحاب حجر فهم كما يقول الطبرى:

«حجر بن عدى وشريك بن شداد الحضرمى، وصيفى بن فسيل الشيبانى، وقبيصة ابن ضبيعة العبسى، ومحرز بن شهاب السعدى ثم المنقرى، وكدام بن حيان العنزى وعبدالرحمن بن حسان العنزى الذى رد الى زياد فدفن حياً» [۳۱۷].

وقد رثت هند بنت زيد بن مخرمة الانصارية حجراً:

ترفع أيها القمر المنير

تبصر هل ترى حجراً يسير

يسير الى معاوية بن حرب

ليقتله كما زعم الأمير

ألا يا حجر حجر بن عدى

توقتك السلامة والسرور

أخاف عليك ما أرضى عديا

وشيخاً فى دمشق له زئير

يرى قتل الخيار عليه حقاً

له من شر أمته وزير

وهكذا انتهت، على ما يقول الدكتور طه حسين [۳۱۸]:

«هذه المأساة المنكرة التى استباح فيها أمير من أمراء المسلمين ان يعاقب الناس على معارضة لا إثم فيها، وأن يكره وجوه الناس

واشرافهم على ان يشهدوا عليهم زوراً وبهتاناً، وان يكتب شهادة القاضى على غير علم منه ولا رضا...

استباح أمير من امراء المسلمين لنفسه هذا الإثم، واستحل هذه البدع واستباح إمام من ائمة المسلمين ان يقضى بالموت على نفر من الذين عصم الله دماءهم، دون ان يراهم او يسمع لهم او يأذن لهم فى الدفاع عن انفسهم».

[صفحه ۲۰۴]

نماذج أخرى من غدر معاوية

لقد مر بنا الإلماع الى بعض حوادث غدر معاوية بخصومه، وبخاصة تدبيره مؤامرة قتل الاشتر فى طريقه الى مصر. ولعل ابرز تلك الحوادث:

غدره بالحسن بن على بعد الصلح المعروف الذى عقد بين الطرفين.

ولم يكتف معاوية بالنكث بذلك العهد، وإنما ذهب إلى تدبير مؤامرة قتل الحسن.

قال المسعودى [۳۱۹] «وذكر أن امرأة الحسن جعدة بنت الاشعث بن قيس الكندى سقته السم، وقد كان معاوية دس لها».

وذكر المسعودى كذلك [۳۲۰] «أن عبدالله بن العباس وفد على معاوية فقال: والله إنى لفى المسجد اذ كبر معاوية فى الخضراء فكبر أهل الخضراء.. فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبدالمناف وهى زوج معاوية بن ابى سفيان من خوخة لها فقالت: سرك الله يا أمير المؤمنين ماهذا الذى بلغك فسررت به؟ قال موت الحسن» وفعل معاوية شىء مشابه لما ذكرناه فى قضية تدبيره مؤامرة قتل عبدالرحمن ابن خالد بن الوليد.

[صفحه ۲۰۵]

الحاقه زياد بن أبيهٔ بأبى سفيان

ذكر المسعودى [۳۲۱]: «ولما هم معاوية بإلحاق زياد بأبى سفيان أبيه وذلك فى سنة أربعين شهد عنده زياد بن اسماء الحرمازنى، ومالك بن ربيعة السلوى، والمنذر بن الزبير بن العوام ان ابا سفيان اخبر أنه ابنه ... ثم زاده يقيناً إلى ذلك شهادة ابى مريم السلولى.

وكان أخبر الناس ببدء الامر، وذلك انه جمع بين ابى سفيان وسمية ام زياد فى الجاهلية على زنى، وكانت سمية من ذوات الرايات بالطائف تؤدى الضريبة الى الحرث بن كلدة وكانت تنزل فى الموضع الذى تنزل فيه البغايا بالطائف وخارجاً عن الحضر فى محلة يقال لها حارة البغايا »...

ثم ذكر المسعودى نص شهادة الاستلحاق: «قال ابو مريم السلولى:

أشهد ان أبا سفيان قدم علينا بالطائف. وانا خمار فى الجاهلية فقال: ابغنى بغياً فأتيته وقلت لم اجد الا جارية الحارث بن كلدة سمية.

فقال: ائتنى بها على ذفرها وقذرها.

فقام يونس بن عبيد اخو صفية مولاة سمية.

فقال: يا معاوية قضى الله ورسوله ان الولد للفراش وللعاهر الحجر وقضيت ان الولد للعاهر.. مخالفة لكتاب الله». ويستطرد المسعودى فى ذكر هذه القصة الطريفة فيروى ما قاله عبدالرحمن بن ام الحكم فى ذلك من شعر:

ألا أبلغ معاوية بن حرب

مغلغلة عن الرجل اليمانى

أتغضب ان يقال: ابوك عف

وترضى ان يقال: أبوك زانى

[صفحه ۲۰۶]

فأشهد أن رحمك من زياد

كرحم الفيل من ولد الأتان

وفى زياد وإخوته يقول خالد البخارى:

إن زياداً ونافعاً وأبا

بكرة عندى أعجب العجب!!

إن رجالا ثلاثة خلقوا

من رحم أنثى مخالفى النسب

ذا قرشى فيما يقول: وذا

مولى وذا ابن عمه عربى

ويروى ابن ابى الحديد [۳۲۲] ظروف قصة الاستلحاق على الوجه التالى: «فلما ورد الكتاب على زياد قام فخطب الناس وقال: العجب من ابن آكلة الاكباد ورأس النفاق يهددنى، ثم كتب الى على وبعث بكتاب معاوية فى كتابه.. وكتب له الإمام:

إن معاوية كالشيطان الرجيم يأتى المرء من بين يديه ومن خلفه وعن يمينه وعن شماله فاحذره ثم احذره ... فلما قتل على بقى زياد فى عمله وخاف معاوية جانبه وعلم صعوبة ناحيته وأشفق من ممالأته الحسن ... فكتب إليه...

أما بعد: فإنك عبدقد كفرت النعمة واستدعيت النقمة ... لا أم لك، بل لا أب لك.

يا ابن سمية إذا أتاك كتابى هذا فخذ الناس بالطاعة والبيعة وأسرع الإجابة.. وإلا اختطفتك بأضعف ريش ونلتك بأهون سعى.

وأقسم قسماً مبرراً ان لا اوتى بك إلا فى زمارة، تمشى حافيا من أرض فارس الى الشام حتى اقيمك فى السوق وابيعك عبداً واردك الى حيث كنت فيه وخرجت منه...

فلما ورد الكتاب على زياد غضب غضباً شديداً وجمع الناس وصعد المنبر.

وقال: إن ابن آكلة الأكباد وقاتلة اسد الله، ومظهر الخلاف، وسر النفاق، ورئيس الاحزاب.

ومن أنفق ماله فى إطفاء نور الله، كتب الى يرعد ويبرق عن سحابة جفل لا ماء فيها.

[صفحه ۲۰۷]

ثم نزل، وكتب إلى معاوية.. لقد وصل الى كتابك.. فوجدتك كالغريق يغطيه الموج فيتشبث بالطحلب ويتعلق بأرجل الضفادع.. ولولا حلم ينهانى عنك.. لانرت لك مخازى لايغسلها الماء.. وإن كنت ابن سمية فأنت ابن جماعة.

أما زعمك أنك تخطفنى بأضعف ريش، فهل سمعت بذئب أكله خروف.

فلما ورد كتاب زياد على معاوية غمه واحزنه وبعث الى المغيرة بن شعبه فخلا به.

قال المغيرة.. إن زياداً رجل يحب الشرف والذكر وصعود المنابر، فلو لاطفته المسألة، وألنت له الكتاب، لكان لك أميل وبك وأوثق، فاكتب اليه وأنا الرسول.

فكتب معاوية.. الى زياد بن ابى سفيان.. حملك سوء ظنك بى وبغضك لى على ان عققت قرابتى وقطعت رحمى.. حتى كأنك لست أخى وليس صخر بن حرب أباك وابى. وشتان ما بينى وبينك. أطلب بدم ابن العاص وأنت تقاتلنى.

فرحل المغيرة بالكتاب حتى قدم فارس فلما رآه زياد قدمه وأدناه ولطف به فرفع اليه الكتاب. فجعل يتأمله ويضحك.

ثم جمع الناس.. وصعد المنبر.. وقال: لقد نظرت فى امور الناس منذ قتل عثمان.. فوجدتهم كالاضاحى فى كل عيد يذبحون.

وكتب كتاب الجواب الى معاوية:

الحمد لله الذى عرفك الحق وردك الى الصلة. ولست ممن يجهل معروفاً ولا يغفل حسباً..

وروى المدائنى قال: لم اراد معاوية استلحاق زياد وقد قدم عليه من الشام جمع من الناس وصعد المنبر واصعد زياداً معه.

ثم قال: إنى قد عرفت نسبنا أهل البيت فى زياد، فمن كان عنده شهادة فليقم بها.. فقام ابو مريم السلولى وكان خماراً فى الجاهلية فقال:

إن أبا سفيان قدم علينا بالطائف، فأتانى فاشتريت له لحماً وخمراً وطعاماً،

[صفحه ۲۰۸]

فلما أكل قال: يا أبا مريم اصب لى بغياً. فخرجت فأتيت بسمية.. تجر ذيلها فدخلت معه.

وروى شيخنا ابو عثمان: أن زياداً مر وهو والى البصرة بأبى العريان العدوى وكان شيخاً مكفوفاً ذا لسن وعارضة شديدة. فقال ابو العريان ماهذه الجلبة؟ قالوا:، زياد ابن ابى سفيان. قال: والله ماترك ابو سفيان الا يزيد ومعاوية وعتبة وعنبسة وحنظلة ومحمداً، فمن أين جاء زياد: فبلغ الكلام زياداً.

وقال قائل له: لو سددت عنك فم هذا الكلب فأرسل إليه بمائتى دينار! فقال له رسول زياد: إن ابن عمك زياداً الامير قد ارسل إليك مائتى دينار.. ثم مر به زياد من الغد فى موكبه. فوقف عليه وسلم. وبكى ابو العريان. فقال مايبكيك؟ قال: عرفت صوت ابى سفيان فى صوت زياد. فبلغ ذلك معاوية فكتب الى ابى العريان:

ما ألبثتك الدنانير التى بعثت

أن لونتك أبا العريان ألوانا

أمسى إليك زياد فى أرومته

نكراً فأصبح ما أنكرت عرفانا

لله در زياد لو تعجلها

كانت له دون ما يخشاه قربانا

فلما قرىء كتاب معاوية على ابى العريان قال: أكتب جوابه ياغلام:

أحدث لنا صلة تحيا النفوس بها

قد كدت يا ابن أبى سفيان تنسانا

أما زياد فقد صحت مناسبه

عندى فلا أبتغى فى الحق بهتانا

من يسد خيراً يصبه حين يفعله

أو يسد شراً يصبه حيثما كان [۳۲۳].

وقد تم ذلك سنة ۵۶ ه أى قبل ان ينتصف القرن [الاول] على وفاة النبى ورحم الله الحسن البصرى فقد كان يقول فيما يروى الطبرى: «أربع خصال كن فى معاوية لو لم يكن فيه منهن إلا واحدة لكانت موبقة: انتزاؤه على هذه الامة بالسفهاء حتى ابتزها امرها بغير مشورة منهم وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة؛

[صفحه ۲۰۹]

واستخلافه ابنه بعده سكيراً وخميراً يلبس الحرير ويضرب بالطنابير، وادعاؤه زياداً، وقد قال رسول الله:

الولد للفراش وللعاهر الحجر؛ وقتله حجر بن عدى» [۳۲۴].

اقواله المأثورة

۱- ذكر أبن الأثير [۳۲۵]:

لما مرض معاوية مرضه الذى مات فيه دعا ابنه يزيد فقال: يابنى إنى كفيتك الشد والترحال، ووطأت لك الامور، وذللت لك الاعداء، واخضعت لك رقاب العرب، وجمعت لك مالم يجمعه أحد.

وإنى لست أخاف عليك ان ينازعك فى هذا الامر الا اربعة نفر من قريش: الحسين بن على، وعبدالله بن عمر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالرحمن بن ابى بكر.

فأما ابن عمر فإنه رجل قد وقدته العبادة. فإذا لم يبق أحد غيره بايعك.

وأما الحسين بن على فإنه رجل خفيف ولن يتركه أهل العراق حتى يخرجوه..

وأما ابن أبى بكر فإنه رأى أصحابه صنعوا شيئاً صنع مثله، وليس همه الا فى النساء واللهو.

وأما الذى يجثم لك جثوم الاسد ويراوغك مراوغة الثعلب فإن امكنته فرصة وثب فذاك ابن الزبير.

فإن هو فعلها بك فظفرت به فقطعه إرباً إرباً» [۳۲۶].

[صفحه ۲۱۰]

۲ قال معاوية لما حضرته الوفاة: إن رسول الله كسانى قميصاً فحفظته، وقلم أظفاره فأخذت قلامة فجعلتها فى قارورة. فإذا مت فألبسونى ذلك القميص واسحقوا تلك القلامة وذروها فى عينى وفمى فعسى الله ان يرحمنى ببركتها [۳۲۷].

۳ ذكر الطبرى بأسانيده المختلفة عن أبى مسعدة الفزارى قال:

قال لى معاوية: يا ابن مسعدة رحم الله ابا بكر لم يرد الدنيا ولم ترده.

وأما ابن حنتمة اى عمر فأرادته الدنيا ولم يردها.

وأما عثمان فأصاب من الدنيا واصابت منه، وأما نحن فتمرغنا فيها [۳۲۸].

۴ أغلظ رجل لمعاوية فأكثر، فقيل له: أتحلم عن هذا؟

فقال: إنى لا احول بين الناس والسنتهم مالم يحولوا بيننا وبين ملكنا [۳۲۹].

۵ لام معاوية [۳۳۰] عبدالله بن جعفر على الغناء [۳۳۱] فدخل يوما ومعه بديح ومعاوية واضع رجلا على رجل، فقال عبدالله لبديح إيهاً! فتغنى فحرك معاوية رجليه وقال: إن الكريم طروب.

۶ قام معاوية خطيباً بعد أن دس السم للأشتر فقال:

[صفحه ۲۱۱]

أما بعد فإنه كانت لعلى يمينان فقطعت إحداهما بصفين وقطعت الاخرى اليوم [۳۳۲].

۷ سأل معاوية عمرو بن العاص: مابلغ من عقلك؟ قال: مادخلت فى شىء قط الا خرجت منه، قال معاوية: لكننى مادخلت فى شىء قط واردت الخروج منه [۳۳۳].

۸ لو ان بينى وبين الناس شعرة ما انقطعت:

إذا شدوها أرخيتها وإذا أرخوها شددتها [۳۳۴].

۹ جاء فى الطبرى ان معاوية كان يأكل فى اليوم سبع مرات ويقول: والله ما اشبع وإنما اعيا [۳۳۵].

۱۰ روى الواقدى ان عمرو بن العاص دخل يوما على معاوية بعد ما كبر.

فقال له: ما بقى مما تستلذه؟ فقال: أما النساء فلا إرب لى فيهن.

وأما الثياب فقد لبست من لينها وجيدها حتى وهى بها جلدى، فما ادرى ايها الين.

وأما الطعام فقد اكلت من لذيذه وطيبه حتى ما ادرى ايه الذ واطيب.

فما شيء الذ عندى من شراب بارد فى يوم صائف ومن ان انظر الى بنيّ وبنى بنيّ يدورن حولى [۳۳۶].

[صفحه ۲۱۲]

معاوية فى الميزان

كل شيء فى الحياة الانسانية هين اذا هان الخلل فى موازين الانسانية. وانها لاهون من ذلك اذا جاوز الامر الخلل الى انعكاس الاحكام وانقلابها من النقيض الى النقيض. فمن الناس من يحب ان تتغلب المنفعة على الحقيقة او على الفضيلة ... لانه يرجع الى طبيعته فيشعر بحقارتها اذا غلبت مقاييس الفضائل المنزهة والحقائق الصريحة، ولانه يكره ان يدان الناس او تقاس الاعمال بمقاييس المثل العليا فيلوم نفسه ولايقدر على التماس المعذرة لها فى نقيصتها او فى طبيعتها التى لافكاك منها.

وليس ابغض الى الإنسان من احتقاره لنفسه؛ وليس احب اليه من اعتذاره لها عن حقيقتها. إنه يتعصب فى كل شعور يدفع به النقص ويمهد به العذر وينفى به الاضطرار الى الاقرار بسبق السابقين له، وارتفاع المرتفعين عليه.

وإنه ليعترف بالجهل اذا استطاع ان يدعى لنفسه تعلة يسمو بها على اهل المعرفة.

وإنه ليعترف بالعجز اذا استطاع ان ينزل بالقادرين الى «مستواه» بخديعة من خداع النفس.

وإنه ليعترف بالرذيلة اذا استطاع ان يلوث الفضيلة التى يمتاز بها عليه ذوو الفضائل البينة ... ويكفى ان ينسب الى العظيم المثالى عمل من الاعمال التى لايقدر عليها النهاز ولايسعى اليها ليشعر النهاز بالاختلاف والجفوة بينه وبين ذلك العمل العظيم المثالى ... ويضطره الى ذلك وقوفه بين طريقين:

أحدهما غريب يصغره فى نظر نفسه، والآخر مألوف يطرقه كل يوم.

واذا لم يرجح من اخبار فترة النزاع بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان الا الخبر الراجح

[صفحه ۲۱۳]

عن لعن على على المنابر بأمر معاوية لكان فيه الكفاية لإثبات ما عداه مما يتم به الترجيح بين كفتى الميزان.

فإن الذى يعلن لعن خصمه على منابر المساجد لا يكف عن كسب الحمد لنفسه فى كل مكان وبكل لسان، ولو لم يرد من اخبار تلك الفترة الا ان معاوية كان يغدق الاموال على الاعوان ومن يرجى منهم العون لكان لعن خصمه على المنابر كافيا للإبانة عما صنعه لكسب الثناء عليه وإسكات القادحين فيه.

ولكن اخبار الاموال المبذولة لتغيير الحقائق فى هذه الفترة تفيض بها كتب المادحين والقادحين ومن لايمدحون ولايقدحون.

جاء فى تاريخ الخلفاء للسيوطى عن الإمام احمد بن حنبل أنه سأل أباه عن على ومعاوية؟ فقال:

اعلم ان علياً كان كثير الاعداء، ففتش له اعداؤه عيباً فلم يجدوا، فجاءوا الى رجل قد حاربه وقاتله فأطروه كياداً منهم له [۳۳۷].

وقتل عثمان فانقسمت الرقعة الإسلامية قسمين: أحدهما لا خلاف فيه وهو الشام حصة معاوية، والآخر لا وفاق فيه وهو حصة علىّ من الحجاز والعراق، وقد تدخل مصر فيها حيناً وتخرج منها اكثر الاحايين..

فكانت أعباء الخلافة كلها على على، وكانت احوال الملك كلها مع معاوية، مواتية له، محيطة به فيما يريد.. وفيما لا يريد.

كان الناس مع على ينظرون الى سنة الرسول.

وكان الناس مع معاوية ينظرون الى هرقل وكسرى...

[صفحه ۲۱۴]

فكان المجتمع الإسلامى مجتمعين.. افترقا غاية افتراقهما فى النزاع بين على ومعاوية.

فكان على يكبح تياراً جارفا لا حيلة فى السير معه ولا فى دفعه.

وكان معاوية يركب ذلك التيار رخاء سخاهم بغير مدافعة وبغير حيرة...

وسبب آخر من اسباب الولع بالحديث عن الدهاء انه اصبح كفؤاً للشجاعة او راجحاً عليها فى موازين الصفات الاجتماعية.

فإذا عيب رجل من رجالهم بقلة الشجاعة وجد العزاء وفوق العزاء بشهرة الدهاء.

فالدهاء عندهم مزية وضرورة وعزاء وغطاء للخوف والجبن..

لقد كانوا يطلقون الدهاء على كل وسيلة غير صريحة يبلغ بها صاحبها مأربه.

وأبرع ما برع فيه معاوية من ألوان الدهاء إلقاء الشبهة بين خصومه.

وقد احتال بمثل هذه الحيلة على قيس بن سعد حتى اوقع الريبة منه فى نفس الإمام.

وحيلة أخرى لانجزم بها ولكننا نشير اليها فى مكانها مما رواه الرواة عن الوسائل الخفية التى توسل بها معاوية للغلبة على خصومه ومنافسيه..

ومات الحسن، ومات مالك بن الأشتر.. ومات عبدالرحمن بن خالد بن الوليد وعوجلوا جميعاً بغير علة ظاهرة فسبق الى الناس ظن كاليقين انها غيلة مدبرة، وان صاحبها من كان له نفع عاجل بتدبيرها، وهو: معاوية.

لقد علم المراقبون لطبائع الحيوان ان المطاردة عنده تقوم على حركات متتابعة ولا تقوم على حركة واحدة.

فإذا لمح الحيوان من خصمه انه يجفل منه أخذ فى الهجوم.

وإذا عدا خصمه امامه اخذ فى العدو وراءه.

وإذا ادركه ولم يجد منه مقاومة تمادى فى صرعه وافتراسه.

وقد دخل حجر بن عدى على معاوية ومعاوية ينتظر منه صدمة يتبعها حذر

[صفحه ۲۱۵]

لواجب الحلم والأناة، فلما دخل حجر محيياً له بالإمارة وزال الحاجز الاول زالت معه الحواجز الاخريات، ولم يعلم الرجل اين يكون الوقوف. ونظن ان هذه الخليقة قد اوشكت ان تبرز فى طوية معاوية من وعيه الباطن الى وعيه الظاهر.

وقد صبر معاوية على الوان من الخضوع فى طلب وجاهته السياسية لا يصبر عليها كثير من عامة الناس ... واحتاج ان يقول مرة كما جاء فى الطبرى مستنداً الى سعيد بن سويد: ما قاتلتكم لتصوموا ولا لتصلوا ولا لتحجوا ولا لتزكوا ... ولكن إنما قاتلتكم لأتأمر عليكم.

ثم نشبت الفتنة الوبيلة فى خلافة عثمان، ومعاوية بمعزل منها.

وقتل عثمان فاتخذ مقتله ذريعة للخروج على الإمام وإنكار بيعته.

وأسرف كل الإسراف فى التذرع بهذه الذريعة قبل استقلاله بالخلافة.

فما كان له من مسوغ يتعلل به غير مقتل عثمان يردده فى كل حديث وفى كل خطاب وفى كل جواب. وعلى قدر اللهج بهذه الفاجعة قبل استقلاله بالخلافة سكت عنها واغفلها بعد ذلك فلم يعد إليها قط لا ليعتذر الى قرابة الخليفة المقتول من سكوته وإغفاله.

وكان معاوية عظيم العناية بأطايب الخوان، كثير الزهو بالثياب الفاخرة والحلية الغالية، وكان يأكل ويشرب فى آنية الذهب والصحاف المرصعة بالجوهر ويأنس للسماع واللهو ولا يكتم طربه بين خاصة صحبه.

وقد ألجأته الحاجة الى إنفاق المال فى أبهة الملك والإغداق على الاعوان والخدم الى ارهاق الرعية بالضرائب ومخالفة العهود مع اصحاب الجزية.

فكان من الولاة من نطيعه ومنهم من يحيبه معترضاً.

ومن الولاة الذين انكروا ان تستصفى الاموال لبيت مال الخليفة: والى خراسان الذى كتب اليه زياد يأمره الا بقسم فى الناس ذهباً ولا

فضة، فكتب الوالى الى زياد:

بلغنى ماذكرت من كتاب امير المؤمنين وإنى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب

[صفحه ۲۱۶]

كتاب أمير المؤمنين.. وليس أضل ضلاله ولا اجهل جهلاً من المؤرخين الذين سموا سنة إحدى وأربعين هجرية بعام الجماعة لانها السنة التى استأثر فيها معاوية بالخلافة.

فلم يشاركه أحد فيها لان صدر الإسلام لم يعرف سنة تفرقت فيها الامة كما تفرقت فى تلك السنة، ووقع فيها الشتات بين كل فئة من فئاتها كما وقع فيها.

إذ كانت خطة معاوية فى الأمن والتأمين قائمة على فكرة واحدة وهى التفرقة بين الجميع.

ولم يقصر هذه الخطة على ضرب خصومه ببعضهم.. كضرب الشيعة بالخوارج. والعرب بالموالى.. واليمانية بالقيسية.. بل كان يفعل ذلك فى صميم البيت الاموى من غير السفيانيين.

وواضح من هذه التفرقة انه كان يكف يده عن البطش والنكاية فى معاملتهم جميعا.. لانه كان يغرى بعضهم ببعض فيستغنى بالوقيعة بينهم عن الإيقاع بهم، ولكنه على هذا كله كان يؤيد سياسة الإيقاع مهما يكن من قسوتها.

وكان يختار لها من الولاة من يعلم انه يفرط فيها ولا يقتصد فى شرورها وبقاتها.

ولا يبالى ان يأخذ البرىء بذنب الاثيم ولا ان ينكل بالقريب قصاصاً من البعيد

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وثرائه ولانقول فى صولته وعزه فقد كان يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله. أما تبعته العامة فى امر الملك فأمر جسيم لا تعد له جسامة عمل فى عصره لانه نكص بالملك خطوات ... ولو انه أنشأ هذا الملك والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم ... غير ان الناس عرفوا فى زمانه فارقا شاسعا بين ولى الامر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية ... وبين الحكم الذى يجرى على سنة المساومة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصغائر الحياة.

[صفحه ۲۱۷]

ما ينطبق على تصرفاته من القرآن

سورة آل عمران: «إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم. أولئك الذين حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وما لهم من ناصرين ۳: ۲۱، ۲۲»

سورة يونس: «إن الذين لا يرجون لقاءنا ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون أولئك مأواهم النار بما كانوا يكسبون ۱۰: ۷، ۸»

پاورقى

[۱] انظر المستدرك على الصحيحين ۳ / ۱۰۹، مسند الامام احمد ۴ / ۲۸۱، الطبعة الاولى خصائص الامام على للحافظ النسائى ص ۲۱ طبعة مصر تفسير الفخر الرازى ۱۳ / ۴۸ ۴۹، اسباب النزول للواحدى ۱۳۵ طبعة مؤسسة الحلبى حياة محمد للأستاذ محمد حسين هيكل الطبعة الاولى ص ۱۰۴ جريدة السياسة المصرية ملحق عدد ۲۷۵۱.

[۲] يدنف: اى يجهز عليه بالقال.

[۳] معاوية ومن هم على شاكلته، ومن المحزن حقا ان يتخذ بعض الناس من هؤلاء ابطالا يدرسون سيرتهم للناشئة فى الوقت الذى

يريدون من تلك الناشئة ان تتحلى بمكارم الاخلاق التى جاء بها الدين الحنيف، فالاستقامة التى يدعو اليها الدين، والغدر الذى سار عليه معاوية ضدان لايجتمعان.

[۴] لامجال للتفكيك بين الاسلام وعلى عليه السلام «الناشر».

[۵] انظر صحيح مسلم ج ۱ ص ۴۲.

[۶] عبدالحسين احمد الامينى النجفى «الغدير فى الكتاب والسنة والادب» الطبعة الاولى مطبعة الغرى فى النجف؛ ۱۹۴۵ م، ص ۸ ۱۱.

[۷] المائدة: الاية ۶۷.

[۸] انظر «عبقات الانوار» مجلد حديث الولاية.

[۹] المائدة: الاية ۳.

[۱۰] ما بين المعقوفين سقط من الاصل. (الناشر).

[۱۱] الخطط ۱/ ۲۸۸ ۳۸۹.

[۱۲] وفى نسخة: مولاى ومولى.. الخ. (الناشر).

[۱۳] يراجع: سيرة ابن هشام، والسيرة الحلبية، والبخارى، وعيد الهجرة: فى ربيع الاول.

[۱۴] السقيفة اسم لايوان كبير كانت تجتمع فيه العرب فى الجاهلية للمشورة والمداولة بالامور الباطلة، ومجازا يطلق على الكلام التافه، انظر غياث اللغات طبعة الهند، مادة «سقف» (الناشر).

[۱۵] عبدالفتاح عبدالمقصود الامام على بن ابى طالب لجنة النشر للجامعين بالقاهرة ۱۹۵۳ م، ج ۵ ص ۱۰۴.

[۱۶] راجع الغدير للشيخ الامينى صدر منه ۱۱ جزءاً طبع فى العراق وايران ولبنان.

[۱۷] ابن ابى الحديد، شرح نهج البلاغة ۱ / ۳ الطبعة الاولى.

[۱۸] شرح النهج ۲ / ۵۷۲ الطبعة الاولى طبعة مصر. (الناشر).

[۱۹] الكامل فى التاريخ: ۲ / ۲۱۷.

[۲۰] قضية ايتونى بدواة وبيضاء: ان النبى صلى الله عليه وآله وسلم علم وهو فى مرض موته ما حدث فى المجتمع الاسلامى من تطورات ووقوع احداث يخشى على الاسلام منها فقد كثرت القالة حول الخلافة من بعده من تنفيذ امره «بغدير خم» او يعود الامير للمجتمع فى الاغلبية الساحقة التى تعارض تلك الفكرة وهل هناك مجموعة تسعى لكسب الاكثرية لاخذ الحكم وما هو موقف الانصار وكبار الصحابة من هذا الامر ... الخ.

[۲۱] صحيح البخارى ۵ / ۱۳۷ و ۱۳۸ طبع مصر.

[۲۲] الطبقات الكبرى ۴ / ۶۰ ۶۱.

[۲۳] النجم: ۳ و۴.

[۲۴] كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ۲ / ۲۹۷.

[۲۵] قال ابن الاثير فى النهاية ۵ / ۲۴۶ فى مادة هجر؟ الهجر بالضم هو الخنا والقبيح من القول ومنه حديث مرض النبى صلى الله عليه وآله وسلم: ما شأنه: اهجر؟.. والقائل كان عمر. «الناشر».

[۲۶] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۹۷ وذكر هذا الخبر احمد ابن ابى طاهر صاحب كتاب «تاريخ بغداد» فى كتابه مسندا.

[۲۷] ابن ابى الحديد شرح النهج ۳ / ۱۶ الطبعة المصرية الاولى.

[۲۸] سيرة النبى محمد ۱ / ۲۷۶ ۲۷۹.

[۲۹] الطبقات الكبرى ۱ / ۱۰۱.

[۳۰] الكامل فى التاريخ ۲ / ۵۹ ۶۲.

[۳۱] ابن الاثير «الكامل فى التاريخ» ۲ / ۵۹ ۶۳.

[۳۲] كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ۲ /۱۷۱.

[۳۳] يذهب الشيعة الامامية الى من عصمة النبى (ص) ذاتية «الناشر».

[۳۴] المصدر نفسه ۲ / ۱۷۹ و ۱۸۰.

[۳۵] عبدالفتاح عبدالمقصود: الامام على بن ابى طالب ۱ / ۷۰.

[۳۶] عبقرية الامام: للعقاد ص ۱۳.

[۳۷] الفتنة الكبرى: عثمان بن عفان ص ۱۵۱.

[۳۸] سيرة النبى محمد: لابن هشام ۲ / ۹۵.

[۳۹] ابن خلدون: كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ۲ / ۱۸۷.

[۴۰] ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ۲ / ۷۵.

[۴۱] ابن هشام: سيرة النبى محمد ۲ / ۹۵ و ۹۸ و ۱۱۱.

[۴۲] الطبرى: «تاريخ الامم والملوك» ۳ / ۱۵۴ والمسعودى «مروج الذهب» ۲ / ۲۸۴.

[۴۳] الطبرى: «تاريخ الامم والملوك» ۳ / ۱۵۴.

[۴۴] ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ۲ / ۲۵.

[۴۵] ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ۲ / ۷۰.

[۴۶] صحيح مسلم ۲ / ۳۲۳.

[۴۷] «صحيح مسلم» ۲ / ۳۲۴.

[۴۸] ابن ابى الحديد شرح نهج البلاغة ۳ / ۱۷ طبعة مصر الاولى.

[۴۹] الطبقات الكبرى لابن سعد ۴ / ۳ و۴.

[۵۰] كذا وجدناه فى المطبوع.

[۵۱] الجرف بالضم ثم السكون محل بينه وبين المدينة ثلاثة اميال من ناحية الشام، قاله: فى مراصد الاطلاع طبعة عيسى الحلبى بالقاهرة ۱ / ۳۲۶. «الناشر».

[۵۲] ابن الاثير «الكامل فى التاريخ» ۲ / ۲۱۵.

[۵۳] كتاب «العبر، وديوان المبتدأ والخبر، فى ايام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر» ۲ / ۲۶۵.

[۵۴] هذا مخالف لرأى اكثر العامة والخاصة، لانهم ذكروا ان النبى (ص) كان يتكلم الى حين وفاته. «الناشر».

[۵۵] ابن الاثير، المصدر نفسه.

[۵۶] راجع تعليقنا على هامش الصفحة المتقدمة من ان النبى (ص) لم يكن ليفقد قدرته على الكلام. «الناشر».

[۵۷] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ۱۵۲ و ۱۵۳.

[۵۸] الاصابة فى تمييز الصحابة ۲ / ۵۰۱ و ۵۰۲.

[۵۹] الاحزاب: ۳۳.

[۶۰] حديث سد الابواب الا باب على. ذكره السمهودى فى وفاء الوفاء. «الناشر».

[۶۱] آل عمران: ۶۱.

[۶۲] ابوبكر لم يكن من المفجوعين بوفاة النبى (ص) ليساعد الامام على فى اعداد جثمان الرسول فى مثواه الاخير وانما دخل دار الرسول (ص) ليتطلع الاخبار ويدبر امر الخلافة راجع كتابنا مع رجال الفكر فى القاهرة.

[۶۳] السنح بالضم، ثم السكون، وآخره حاء مهملة احدى محال المدينة. كان بها منزل ابى بكر، وهى منازل بنى الحارث بن الخزرج، بقوا الى المدينة. ۱ ه «مراصد الاطلاع» لابن عبدالحق البغدادى ۲ / ۷۴۵ طبعة عيسى الحلبى بالقاهرة. «الناشر».

[۶۴] هذه الخلاصة موجودة فى امهات كتب التاريخ الاسلامى، وهى هنا ملخصة عن الطبرى: تاريخ الامم والملوك.

[۶۵] عبدالفتاح عبدالمقصود (الامام على بن ابى طالب) ۱ / ۱۴۹.

[۶۶] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۱۸۴.

[۶۷] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۲۸۳ طبعة اولى.

[۶۸] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۱۸۴.

[۶۹] كناية عن ابى بكر بن ابى قحافة.

[۷۰] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۶۴: ۱۶۵ الطبعة الاولى بمصر.

[۷۱] عبدالفتاح عبدالمقصود: الامام على بن ابى طالب ۱ / ۲۱۶.

[۷۲] الحشر: ۶.

[۷۳] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۷۸ الطبعة الاولى بمصر.

[۷۴] فتوح البلدان ص ۴۶ و ۴۷.

[۷۵] وقد امتعضت السيدة فاطمة من موقفه، ولم تكلمه الى ان توفيت بعد وفاة ابيها باثنتين وسبعين ليلة وذكر البخارى فى الصحيح ان النبى صلى الله عليه وسلم قال: فاطمة بضعة منى يغضبنى ما يغضبها. «الناشر».

[۷۶] النساء ۱۱.

[۷۷] النمل ۱۶.

[۷۸] مريم ۵ و ۶.

[۷۹] شرح نهج البلاغة ۴ / ۷۸ ۱۰۳.

[۸۰] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۲۱۶.

[۸۱] انظر: الاحزاب ۳۳.

[۸۲] البقرة ۲۸۲.

[۸۳] صحيح البخارى ۳ / ۱۸۰.

[۸۴] اخرجه البخارى فى صحيحه. «الناشر».

[۸۵] الكامل فى التاريخ ۲ / ۹۳ ۹۵.

[۸۶] وامه هالة بنت خويلد اخت خديجة زوج رسول الله، فسألته ان يزوجه زينب ففعل قبل ان يوحى اليه، فلما اوحى اليه آمنت به زينب وبقى ابوالعاص مشركا، ولم يستطع الرسول فى بادىء الامر ان يفعل شيئا تجاه زينب المسلمة او زوجها المشرك، فلما هاجر الى المدينة ووقعت بدر واسر ابوالعاص واطلق سراحه كما ذكرنا اخبر النبى بأنه سوف يرسل اليه زينب الى المدينة، فأرسل الرسول زيد بن حارثة مولاه ورجلا آخر من الانصار ليصحبا زينب من مكة. فلما قدم ابوالعاص امرها باللحاق بالنبى ففعلت ذلك. المؤلف .

[۸۷] شظاظ، على وزن كتاب، وهو خشبة عقفاء تجعل فى عروتى الجولقين.

[۸۸] تقمصها، جعلها كالقميص مشتملة عليه، والضمير للخلافة، ولم يذكرها للعلم بها ... فسدلت: ارخيت ... ومضى لسبيله: مات...

وقوله فأدلى بها من قوله تعالى «ولاتأكلوا اموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها الى الحكام البقرة ۱۸۸» اى تدفعوها اليهم رشوة. واصلها من ادلت الدلو فى البئر ارسلتها ... كان على يرى العدول عنه الى غيره اخراج لها الى غير جهة الاستحقاق ... من باب الاستعارة. ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۱ / ۵۰ ۶۷، الطبعة الاولى.

[۸۹] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۲۳۹.

[۹۰] عبدالفتاح عبدالمقصود: الامام على بن ابى طالب ۱ / ۲۴۰.

[۹۱] عبدالفتاح عبدالمقصود ۱ / ۲۳۸.

[۹۲] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۱ / ۵۰ ۶۷ الطبعة الاولى.

[۹۳] الكامل فى التاريخ ۳ / ۳۴.

[۹۴] والى القارىء ما ذكره ابن خلدون فى مسألة مصرع الخليفة الثانى «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر فى ايام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الاكبر ۲ / ۳۶۲» «كان للمغيرة بن شعبة مولى من نصارى العجم اسمه ابولؤلؤه، وكان يشدد عليه فى الخراج، فلقى يوما عمر فى السوق فشكا اليه وقال: اعدنى على المغيرة، فانه يثقل علىّ فى الخراج درهمين فى كل يوم، قال: وما صناعتك؟ قال: نجار، حداد، نقاش، فقال: ليس ذلك بالكثير على هذه الصنائع.. وقد بلغنى انك تقول: اصنع رحى تطحن بالريح، فاصنع لى رحى، قال: اصنع لك رحى يتحدث الناس بها!؟ وانصرف، فقال عمر: توعدنى العلج!! فلما اصبح الصباح خرج عمر الى الصلاة ... ودخل ابولؤلؤة وبيده الخنجر، فضرب عمر».

[۹۵] لان سالما قتل فى اوئل خلافة ابى بكر اثناء حرب الذين اتهموا بالامتناع عن اداء الزكاة.

[۹۶] صحيح مسلم ۲ / ۲۲۴.

[۹۷] وكان غائبا عن المدينة آنذاك.

[۹۸] تذكر ان جثمان الرسول لم يوضع فى حفرته وعقد اجتماع السقيفة المشهور.

[۹۹] تذكر شهادة عبدالرحمن بن عوف وعثمان بن عفان عند ابى بكر بشأن استخلافه عمر، وما صنعه عثمان عند كتابته عهد ابى بكر لعمر.

[۱۰۰] ابن الاثير «الكامل فى التاريخ» ۳ / ۳۵ و ۳۶.

[۱۰۱] وما اكثر اعطاء المواثيق فى امثال هذه الامور الخطيرة لغرض الحصول على الغاية المرجوة. ومن ثم يبدأ التسويف والمماطلة والانحراف، وما اكثر الذين يدفعهم ايمانهم الخالص الى وضع تلك المواثيق ظنا منهم انهم ما داموا لا يستطيعون ان يخرجوا علمها فان غيرهم لايستطيع ايضا ان يخرج عليها.

[۱۰۲] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۱ / ۵۰ ۶۷ الطبعة الاولى. ويظهر من كلام الامام عليه السلام ان اتفاقا سابقا كان بين ابى بكر وعمر حول تولى الخلافة «الناشر».

[۱۰۳] «تاريخ الامم والملوك» ۵ / ۳۴ و ۳۵.

[۱۰۴] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۷۰ طبعة مصر الاولى.

[۱۰۵] الاحزاب: ۵۳.

[۱۰۶] «تاريخ الامم والملوك ۵ / ۲۰ و ۵۱ و ۴ / ۱۶۲ وكان ابن عوف من اكابر المترفين فى الجاهلية والاسلام «وكان مترفا فى طعامه ولباسه وسكنه، وقد سمح له الرسول، على ما يذكره الرواة: ان يلبس الحرير لحكة كانت فى جلده.

[۱۰۷] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۷۰ طبعة مصر الاولى.

[۱۰۸] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۲۷۵ و ۲۷۶.

[۱۰۹] المصدر نفسه ۱ / ۱۲۳ و ۱۲۴.

[۱۱۰] ابن ابی الحدید «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۷۲ طبعة / مصر الاولی.

[۱۱۱] عبدالفتاح عبدالمقصود: «الامام علی بن ابی طالب» ۲ / ۹ و ۱۰.

[۱۱۲] المصدر نفسه ۱ / ۲۵۰ و ۲۵۱.

[۱۱۳] ابن ابی الحدید: «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۹۷ طبعة مصر الاولی.

[۱۱۴] ابن ابی الحدید: «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۹۸.

[۱۱۵] المصدر نفسه ۳ / ۹۸.

[۱۱۶] ابن ابی الحدید: «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۹۸ الآیة: ۱۲: الاسراء.

[۱۱۷] المصدر نفسه ۳ / ۱۹.

[۱۱۸] ابن الاثیر «الکامل فی التاریخ» ۳ / ۳۰.

[۱۱۹] البلاذری: «فتوح البلدان» ص ۳۶.

[۱۲۰] المصدر نفسه ص ۳۹.

[۱۲۱] المصدر نفسه ص ۴۷.

[۱۲۲] ابن ابی الحدید: «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۰۸ الطبعة الاولی.

[۱۲۳] الکامل فی التاریخ ۲ / ۲۴۲ و ۲۴۳.

[۱۲۴] البطاح کغراب وهو منزل لبنی یربوع وفی «مراصد الاطلاع» طبع عیسی الحلبی بالقاهرة ۱ / ۲۰۳ «بطاح بالضم : ماء فی دیار بنی اسد بن خزیمة» ۱ ه، مصححة. «الناشر».

[۱۲۵] بزاخة بالضم، والخاء معجمة : قال الاصمعی: ماء لطیء، بأرض نجد. وقال ابوعمرو: لبنی اسد، فیه کانت وقعة المسلمین مع طلیحة فی الردة قال القعقاع یذکر یوم بزاخة:

ویوما علی ماء البزاخة خالد

اثار بها فی هبوة الموت عثیرا

۱ ه من «مراصد الاطلاع» ۱ / ۱۹۲ طبعة عیسی الحلبی بالقاهرة. «الناشر».

[۱۲۶] فیما یتصل بموقفهم من الذین امتنعوا عن اداء الزکاة بالیسیر الیهم الا فی قضیة مالک ابن نویرة التی لم یثبت للخلیفة آنذاک امتناعه.

[۱۲۷] فتوح البلدان ۱۰۷ و ۱۰۸.

[۱۲۸] اثناء خلافته حیث انشده مرثیته المشهورة التی یقول فیها:

وکنا کندمائی جذیمة حقبة

من الدهر حتی قیل: لن یتصدعا

فلما تفرقنا کأنی ومالکا

لطول اجتماع لم نبت لیلة معا.

[۱۲۹] اسعدت عینی الذاهبة: الاسعاد لایکون الا فی البکاء قاله فی المقاییس، مادة «سعد» ۳ / ۷۵ طبعة عیسی الحلبی بالقاهرة. «مصححه».

[۱۳۰] مما لاشک فیه ان خالدا قصد بعبارة «ادفئوا اسراکم» قتلهم، لانه حبسهم «عند ضرار بن الازور ... وکان کنانیا». ابن خلدون فی

«كتاب العبر» ۲ / ۲۷۸.

[۱۳۱] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۸۴.

[۱۳۲] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۸۴ الطبعة الاولى.

[۱۳۳] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۸۵: الطبعة الاولى بمصر.

[۱۳۴] التوبة: ۱۰۳.

[۱۳۵] صحيح البخارى ۸ / ۵۰ طبعة مصر.

[۱۳۶] «تاريخ الامم والملوك» ۳ / ۱۲۴.

[۱۳۷] الكامل فى التاريخ ۳ / ۲۹۳.

[۱۳۸] عبدالفتاح عبدالمقصود: «الامام على بن ابى طالب» ۱ / ۲۸.

[۱۳۹] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» ۱ / ۵۰ ۶۷، الخضم: اكل بكل الفم، وضده القضم وهو: أكل بأطراف الاسنان وقيل: الخضم اكل الشىء الرطب، والقضم أكل الشىء اليابس والمراد على التفسيرين لا يختلف، وهو: انهم على قدم عظيمة من التهم وشدة الاكل وامتلاء الافواه.

قال أبو ذر عن بنى أمية: يخضمون ونقضم.

وانتكث قتله: انتقض واجهز عليه عمله: ثم قتله وكبت به بطنته، كبا الجواد: إذا سقط بوجهه، والبطنة. الاسراف فى الشبع وثالث القوم عثمان ... والعطفان. الجانبان من المنكب إلى الورك ... والمعنى. خدش جانباى، لشدة الاحتكاك منهم والازدحام ... وعرف الضبع ثخين، ويضرب به المثل فى الازدحام وينثالون. يتتابعون.. وكربيضة الغنم. يصف شدة ازدحامهم حوله، وجئومهم بين يديه.. فأما طائفة الناكثين. فهم أصحاب الجمل والقاسطين، أصحاب صفين. والمارقين. أصحاب النهروان.

[۱۴۰] ربما ساعدتنا الظروف فى المستقبل فقمنا بدراسة ذلك بشىء من التفصيل، راجع الصراع بين الامويين ومبادىء الاسلام المؤلف.

[۱۴۱] ابن هشام «سيرة النبى محمد» ۲ / ۲۹۴.

[۱۴۲] على الرغم مما بين الطرفين من عهد بعدم التعرض للحجيج او المعتمرين الا بخير.

[۱۴۳] ابن هشام: سيرة النبى محمد ۲ / ۴۱۴، ۴۱۵.

[۱۴۴] ابن الاثير: الكامل فى التاريخ ۲ / ۱۰۳.

[۱۴۵] الطبرى: تاريخ الامم والملوك ۳ / ۱۰، ۱۴.

[۱۴۶] ابن هشام «سيرة النبى محمد» ۳ / ۱۲ و ۱۳.

[۱۴۷] المصدر نفسه ۳ / ۱۱.

[۱۴۸] المصدر نفسه ۳ / ۴۱.

[۱۴۹] المصدر نفسه ۳ / ۲۱، ۲۲.

[۱۵۰] ابن هشام (سيرة النبى محمد) ۳ / ۱۵۹.

[۱۵۱] ابن الطقطقى الفخرى فى «الاداب السلطانية» ص ۷۶ و ۷۷ لعل ابتسامة النبى تشير الى حادثة الزنى التى رمى بها الفاكهة بن المغيرة زوجه هند، فطلقها فتزوجها ابوسفيان.

[۱۵۲] الطبرى «تاريخ الامم والملوك» ۳ / ۲۸ و ۲۹.

[۱۵۳] ابن الاثير «الكامل فى التاريخ» ۲ / ۹۸.

[۱۵۴] ابن هشام: «سيرة النبى محمد» ۱ / ۳۲۰.

[۱۵۵] المصدر نفسه ۱ / ۳۵۷ ۳۶۰.

[۱۵۶] المصدر نفسه ۱ / ۳۷۶ ۳۷۸.

[۱۵۷] امتشقته: اقتطعته، صحاح اللغة مادة «مشق».

[۱۵۸] ابن خلدون «كتاب العبر ...» الخ ۲ / ۲۳۴.

[۱۵۹] سيرة النبى محمد ۴ / ۳۳.

[۱۶۰] انساب الاشراف ۵ / ۲۷.

[۱۶۱] الحجرات: ۶.

[۱۶۲] الدكتور طه حسين: الفتنة الكبرى، على وبنوه ۱۵۵.

[۱۶۳] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۱۵.

[۱۶۴] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۲۰ و ۲۱.

[۱۶۵] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۹۴.

[۱۶۶] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى» عثمان بن عفان ۱۶۷، والبلاذرى «انساب الاشراف» ۵ / ۴۸.

[۱۶۷] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۹۳.

[۱۶۸] انساب الاشراف ۵ / ۲۷ / ۲۸ / ۵۲.

[۱۶۹] التوبة: ۳۴.

[۱۷۰] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۸۱ ۸۳ هذا النص مخالف لما عليه الشيعة الامامية «الناشر».

[۱۷۱] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة».

[۱۷۲] المصدر نفسه ۳ / ۸۰.

[۱۷۳] «الفتنة الكبرى على وبنوه» ص ۱۲۵.

[۱۷۴] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۷۷.

[۱۷۵] مروج الذهب ومعادن الجوهر، ۲ / ۲۲۲.

[۱۷۶] الدكتور طه حسين. «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۹۰.

[۱۷۷] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۹۳ و ۱۹۴.

[۱۷۸] المصدر نفسه: عثمان بن عفان ص ۱۹۵.

[۱۷۹] انساب الاشراف ۵ / ۲۵ ۲۶.

[۱۸۰] البلاذرى «انساب الاشراف» ۵ / ۴۹.

[۱۸۱] المصدر نفسه ۵ / ۲۷.

[۱۸۲] سيرة النبى محمد ۳ / ۳۴۰ و ۳۴۱.

[۱۸۳] الحجرات: ۶.

[۱۸۴] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» المجلد الرابع ص ۱۹۵ طبعة مصر.

[۱۸۵] المسعودى: مروج الذهب ۲ / ۲۲۴ و ۲۲۵.

[۱۸۶] ويذكر المسعودى فى «مروج الذهب ۲ / ۲۲۵» ان ابا الوليد كان يهوديا.

[۱۸۷] المسعودى: مروج الذهب ۲ / ۲۲۴.

[۱۸۸] يعنى عمراً، وخالدا، ابنى عثمان بن عفان.

[۱۸۹] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۹۳.

[۱۹۰] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۸۷.

[۱۹۱] المصدر نفسه: عثمان بن عفان ص ۱۸۸.

[۱۹۲] عبد الفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۳۳.

[۱۹۳] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۶۳.

[۱۹۴] انساب الاشراف ۵ / ۵۴ و ۵۵.

[۱۹۵] عبد الفتاح عبد المقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۳۴ و ۳۵.

[۱۹۶] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۹۸ و ۱۹۹.

[۱۹۷] انساب الاشراف ۵ / ۵۴ و ۵۵.

[۱۹۸] المصدر نفسه ۵ / ۳۶.

[۱۹۹] البلاذرى «انساب الاشراف» ۵ / ۳۷.

[۲۰۰] البقرة والنساء والمائدة.

[۲۰۱] وليس فى القرآن ما يشير الى استثناء الشخص الذى يقتل ابوه من التعرض لاقامة الحدود الدينية بسبب ذلك القتل. وجريرة عبيد الله انه بعد أن قتل ابو لؤلؤة أباه تناول السيف فقتل ابا لؤلؤة، كما قتل الهرمزان، وجفينة، وبنت أبى لؤلؤة دون ان يثبت اشتراكهم فى القتل.

وكان الواجب على عبيد الله ان يتقدم بالشكوى الى الخليفة حسب الاصول المعروفة.

[۲۰۲] اعتراض غير وجيه لان الانفاق من الصدقات سواء كان فى الحرب او فى غيره من المرافق العامة «الناشر».

[۲۰۳] التوبة: ۶۰.

[۲۰۴] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى. عثمان بن عفان» ص ۱۷۵ ۱۷۶.

[۲۰۵] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۴۸.

[۲۰۶] انساب الاشراف ۵ / ۵۰ و ۵۱.

[۲۰۷] عبدالفتاح عبدالمقصود الامام على بن ابى طالب ۲ / ۴۷.

[۲۰۸] انساب الاشراف ۵ / ۷۴.

[۲۰۹] فصلى عليه الزبير بن العوام على رواية، وسعد بن ابى وقاص على اخرى، وكان ذلك سنة ۳۲ ه.

[۲۱۰] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۶۷ و ۶۸.

[۲۱۱] عباس محمود العقاد «عبقرية الامام» ص ۸۳.

[۲۱۲] البلاذرى «انساب الاشراف» ۵ / ۷۴.

[۲۱۳] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴۵۸.

[۲۱۴] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۲۹.

[۲۱۵] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۲۷۶ ۲۷۸.

[۲۱۶] انساب الاشراف / ۴۸ و ۴۹.

[۲۱۷] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى: عثمان بن عفان» ص ۲۰۶ و ۲۰۷.

[۲۱۸] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۲۸.

[۲۱۹] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى» عثمان بن عفان ص ۱۶۸.

[۲۲۰] «انساب الاشراف» ۵ / ۲۷.

[۲۲۱] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، عثمان بن عفان» ص ۱۳۶.

[۲۲۲] انساب الاشراف ۵ / ۴۷.

[۲۲۳] الأحزاب: ۶۷.

[۲۲۴] يجد القارىء نص الكتاب وملابسات القضية موجودة فى أمهات كتب التاريخ، وقد وجدنا تلخيصاً جميلاً لذلك كله فى «الاصابة فى تمييز الصحابة» ۲ / ۴۵۵ و ۴۵۶، لابن حجر العسقلانى، وفى كتاب «الوزراء والكتاب» للجهشيارى ص ۲۲ ۳۰ مطبعة مصطفى محمد، الطبعة الاولى بمصر عام ۱۹۳۸ م، قال الجهشيارى: «لما صار المصريون بأيلة راجعين عن عثمان مر بهم راكب انكروا شأنه فأخذوه، فاذا هو غلام لعثمان على جمل له معروف، وكان عثمان يحج عليه، ففتشوه فوجدوا معه قصبة من رصاص فيها صحيفة عليها خاتم عثمان، ففتحوا الصحيفة فاذا فيها كتاب من عثمان الى عبدالله بن سعد عامله على مصر فيه: اذا قدم عليك فلان وفلان، وفلان وفلان فاضرب اعناقهم، وفلان وفلان فاقطع أيديهم وأرجلهم ... فكروا راجعين ... فأقرءوا الكتاب اصحاب النبى، فعاتب قوم عثمان على ذلك، فقال: أما الخط فخط كاتبى مروان، وأما الخاتم فخاتمى، والله ما أمرت بذلك ... فقال القوم: ان كنت كاذباً فلا امامة لك، وان كنت صادقاً فليس يجوز أن يكون اماما من كان بهذه المنزلة من الغفلة».

[۲۲۵] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۵۸۰ / ۵۸۳.

[۲۲۶] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۲۰ ۲۲.

[۲۲۷] تاريخ الامم والملوك ۵ / ۱۵۲ و ۱۵۳.

[۲۲۸] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۱۵۷ طبعة مصر الاولى.

[۲۲۹] المصدر نفسه ۲ / ۱۷۰.

[۲۳۰] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» ۱ / ۹۰ الطبعة الاولى بمصر.

[۲۳۱] المصدر نفسه ۳ / ۱۸۱ التداك: الازدحام. الهيم: العطاش.

[۲۳۲] المصدر نفسه ۱ / ۵۰ ۶۷ لقد مر بنا شرح كلامه فى فصل سابق.

[۲۳۳] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى: على وبنوه» ص ۸.

[۲۳۴] ابن ابى الحديد: «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۵۰۵ و ۵۰۶ الطبعة الاولى بمصر.

[۲۳۵] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۸.

[۲۳۶] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۳ / ۴۲۷ و ۴۲۸.

[۲۳۷] «ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق ومن قتل مظلوما لقد جعلنا لوليه سلطانا فلا يسرف فى القتل انه كان منصوراً» الاسراء: ۳۳، بغض النظر عن شرعية القتل او عدمها.

[۲۳۸] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى»، وعبدالفتاح عبدالمقصود: «الامام على ابن ابى طالب».

[۲۳۹] الطبرى «تاريخ الامم والملوك ۳ / ۷۶ ۷۰.

[۲۴۰] صحيح البخارى ۳ / ۱۵۴ و ۱۵۶ و ۵ / ۵۵ و ۵۶.

[۲۴۱] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة».

[۲۴۲] فتوح البلدان ص ۲۶.

[۲۴۳] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۳ / ۴ ۹ الطبعة الاولى.

[۲۴۴] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۴۰۳ ۴۰۵.

[۲۴۵] فى لقاء لى مع: الدكتور طه حسين عام ۱۹۶۵ م سألته: عن رأيه فى عائشة اجاب بقوله: كان احد الاساتذة يقول: لو ادركت عائشة لاوجعتها ضرباً حتى اقعدتها فى بيتها لقوله تعالى: «وقرن فى بيوتكن ولا تبرجن تبرج الجاهلية الاولى» الاحزاب: ۳۳. راجع كتابنا: «مع رجال الفكر فى القاهرة» ص ۱۶۰ / ۱۷۵ الطبعة الاولى القاهرة مطبعة حسان عام ۱۹۷۴ م. «الناشر».

[۲۴۶] هذا التشبيه غير مؤدب «الناشر».

[۲۴۷] وهو ماء لبنى عامر بن صعصعة يقع فى بادية العراق الجنوبية.

[۲۴۸] ويذكر التاريخ ان الامام استعان على جملة منهم كعمار بن ياسر ومحمد بن ابى بكر ومالك الاشتر وغيرهم «الناشر».

[۲۴۹] يشير الى بيعة الزبير وطلحة له، ثم نكوصهما عن ذلك، والى عهدهما له حين خرجا للعمرة من المدينة لمكة بالرجوع الى المدينة وخرقهما لذلك العهد.

[۲۵۰] وهم: الشرطة حرس بيت المال، وهم قوم من السند كانوا بالبصرة جلاوزة وحرس سجون.

[۲۵۱] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۴۹۷ ۵۰۱.

[۲۵۲] الكامل فى التاريخ: ۵ / ۱۰۵ ۱۳۳.

[۲۵۳] موقع بين مكة والمدينة.

[۲۵۴] لابد ان القارىء قد لاحظ ان السيدة عائشة لم تعلق بشىء حين سمعت بمقتل عثمان، ولكنها ثارت لمجرد سماعها باجماع المسلمين على بيعة على فطلبت ان يردوها الى مكة واصبح عثمان مظلوما بنظرها.

[۲۵۵] يدنف: اى مجهز عليه بالقال. «الناشر».

[۲۵۶] تاريخ الامم والملوك ۲ / ۲۸۹.

[۲۵۷] صحيح مسلم ۱ / ۴۲.

[۲۵۸] المنافقين: ۲.

[۲۵۹] المسعودى «مروج الذهب ومعادن الجوهر» ۲ / ۲۶۱.

[۲۶۰] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۱۲۷.

[۲۶۱] فى حين ان ولى عثمان الذى يسوغ له المطالبة بدمه من الناحية الشرعية هو ابنة عمرو كما ذكرنا.

[۲۶۲] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۶۱.

[۲۶۳] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام على بن ابى طالب» ۲ / ۳۰۱.

[۲۶۴] ليس لدى الباحث من الادلة المقنعة ما يمنعه من الاعتقاد باشتراك معاوية بطريقة غير مباشرة فى التآمر على قتل عثمان، فقد وهن العظم من عثمان وبلغ من الكبر عتيا. وليس من الممكن او المعقول ان تنتقل الخلافة الى معاوية دون ان يقتل عثمان، وان بقاء عثمان سنتين او ثلاثا فى الحكم وتعديل سيرته السياسية لم يكن فى صالح معاوية واذا لم يكن معاوية قد الب الناس على الشيخ او خذلهم عن نصرته فقد تقاعس عن مساعدته فى احرج الظروف، فقد ساهم فى قتله من الناحية السلبية على أسوأ الفروض. ذلك لان معاوية، بحكم مركزه فى الشام الذى استمر زهاء عشرين عاما كان هو الوالى الوحيد الذى باستطاعته انقاذ حياة ابن عفان. ويجمل بنا فى هذا الصدد، ان نذكر القارىء بالمحاورة الطريفة التى جرت بين معاوية وابى الطفيل حول تقاعس كل منهما عن نصرة عثمان. فقد سأل معاوية ابا الطفيل متخابثا عن تقاعسه عن نصرة الخليفة، فأجاب هذا بأن تقاعسه كان ضمن التقاعس العام الذى ابداه المهاجرون

والانصار. ثم وجه السؤال نفسه الى معاوية فأجابه بأن طلبه بدمه فى خلافة على نصرة له. فضحك ابو الطفيل ثم قال: انت وعثمان كما قال الشاعر:

لا الفينك بعد الموت تندبنى

وفى حياتى ما زودتنى زادى

هذا الى ان معاوية باسناده امارة مصر لابن العاص الذى عزله عثمان عنها فجعله من المؤلبين عليه قد برهن بوضوح على ان المطالبة بدم عثمان وسيلة للثورة على على.

[۲۶۵] الاصابة فى تمييز الصحابة ۲ / ۵۰۱ و ۵۰۲.

[۲۶۶] شرح نهج البلاغة ۴ / ۱۶۱ و ۱۶۲.

[۲۶۷] الكامل فى التاريخ ۲ / ۹.

[۲۶۸] ابن الأثير: «الكامل فى التاريخ» ۳ / ۱۴۱ ۱۶۰.

[۲۶۹] عبدالفتاح عبدالمقصود: «الامام على بن ابى طالب» ۵ / ۶۶ و ۶۷.

[۲۷۰] عباس محمود العقاد: «عبقرية الامام» ص ۵۰.

[۲۷۱] المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲ / ۳۳۴.

[۲۷۲] المسعودى: مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲ / ۵۱.

[۲۷۳] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۱۳۱.

[۲۷۴] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى على وبنوه» ص ۱۵۰.

[۲۷۵] «شرح نهج البلاغة» لابن ابى الحديد ۲ / ۱۸۲ ۱۸۵.

(حمس الوغى. اشتد وعظم. الوغى فى الاصل: الاصوات والجلبة، وسميت الحرب نفسها وغى لما فيها من ذلك. وانفراج المرأة عن قبلها أى وقت الولادة. وقوله القطه لقطا يريد ان الضلال غالب على الهدى وأنه التقط طريقه من ههنا وههنا كما يسلك الانسان طريقاً دقيقة قد اكتنفها الشوك والعوسج من جانبيها كليهما فهو يلتقط النهج التقاطا).

[۲۷۶] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ص ۲۶۱ و ۲۶۲.

ولكن بمن كنت اعمل ذلك والى من اخلد فى فعله.. واما الحاضرون لنصرتى فأنتم وحالكم معلومة فى الخلاف والشقاق والعصيان.

واما الغائبون من شيعتى كأهل البلاد النائية فالى ان يصلوا قد بلغ العدو غرضه منى ولم يبق من اخلد اليه فى اصلاح الامر وابرام هذا الرأى ... الا اذا استعين ببعضكم على بعض فأكون كناقش الشوكة بالشوكة.

يقول: لا تستخرج الشوكة الناشبة فى رجلك بشوكة مثلها فان احداهما فى القوة والضعف كالاخرى. فكما ان الاولى انكسرت لما وطئتها فدخلت فى لحمك فالثانية اذا حاولت استخراج الاولى بها تنكسر فى لحمك.

[۲۷۷] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۳۰۵.

[۲۷۸] المصدر نفسه ۳۷۸ و ۳۷۹ أظأركم: اعطفكم.. والسرار آخر ليلة فى الشهر وتكون مظلمة، ويمكن عندى: ان يفسر على وجه آخر وهو: ان يكون السرار ههنا بمعنى السرر، وهى: خطوط مضيئة فى الجبهة.. فيكون معنى الكلام هيهات ان تلمع بكم لوامع العدل، وتتجلى اوضاعه، ويبرق وجهه وهو يمكن ان يكون فيه ايضا وجه آخر وهو ان ينصب سرار ههنا على الظرفية ويكون التقدير: هيهات ان اطلع بكم الحق زمان استسرار العدل واستخفائه فيكون قد حذف المفعول به.

[۲۷۹] الفلتة: الامر يقع فى غير تدبر ولا روية. وفى الكلام تعريض ببيعة ابى بكر لان المشهور عن عمر انه قال: «ان بيعة ابى بكر فلتة وقانا الله شرها».

[۲۸۰] ابن ابی الحدید «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۴۰۳.

[۲۸۱] ابن الاثیر: «الکامل فی التاریخ» ۳ / ۱۶۰ ۱۶۸.

[۲۸۲] الدینوری، «الاخبار الطوال» ص ۱۹۸ و ۱۹۹.

[۲۸۳] الاخبار الطوال: ص ۲۰۰ ۲۰۳.

[۲۸۴] فامتنع الذین اصروا علی وقف القتال، وقبلوا التحکیم من اصحاب الامام من دخول الکوفة مع الامام، فیکون منهم المارقون الذی ارغموا الامام بعد ذلک علی حربهم بالنهروان.

[۲۸۵] واوحی عمرو الی رفیقه: ان موضوع خلع علی من الخلافة قد بات مفروغاً منه، وان المشکلة هی اتفاقهما علی من سیخلفه.

[۲۸۶] ابن الاثیر «الکامل فی التاریخ» ۳ / ۱۶۰ ۱۶۸.

[۲۸۷] ابن الاثیر «الکامل فی التاریخ» ۲ / ۴۹ و ۵۰.

[۲۸۸] ابن خلدون «کتاب العبر ودیوان المبتدأ والخبر» ۲ / ۱۷۷.

[۲۸۹] عبدالفتاح عبدالمقصود «الامام علی بن ابی طالب» ۲ / ۲۷۵.

[۲۹۰] ابن هشام «سیرة النبی محمد» ۳ / ۱۱۶. ینزو: یرتفع ویثب. وارضف الحجارة المحماة بالثار، العتد: الفرس الشدید، یبذ: یسبق، والرهو: الساکن، اللین.

[۲۹۱] سیرة النبی محمد: ۲ / ۱۷۷.

[۲۹۲] عبدالفتاح عبدالمقصود الامام علی بن ابی طالب ۴ / ۸۳، واذا کان الامر کذلک فقد قتل عثمان ولیس لعلی سلطان علی الناس فلماذا اقام عمرو الدنیا علیه واقعدها.

[۲۹۳] عباس محمود العقاد «معاویة بن ابی سفیان» ص ۵۳ ۵۵.

[۲۹۴] الغلس: بعد العشاء الآخرة وقبل الفجر «الناشر».

[۲۹۵] البرذون، صنف من الخیل الغیر العربیة «الناشر».

[۲۹۶] الدینوری: «الاخبار الطوال» ص ۱۹۱ و ۱۹۲.

[۲۹۷] ابن ابی الحدید «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۱۳ و ۱۱۴.

[۲۹۸] ابن ابی الحدید «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۶۰ والاشارة هنا الی مقتل عثمان.

[۲۹۹] الدکتور طه حسین «الفتنة الکبری، علی وبنوه» ص ۱۱۳.

[۳۰۰] المصدر نفسه ص ۱۱۳.

[۳۰۱] الدکتور طه حسین: «الفتنة الکبری، علی وبنوه» ص ۱۲۲.

[۳۰۲] المصدر نفسه ۱۲۲ ۱۲۶.

[۳۰۳] الدکتور طه حسین «الفتنة الکبری. علی وبنوه» ص ۱۳۳.

[۳۰۴] المصدر نفسه ص ۱۳۰ و ۱۳۸.

[۳۰۵] الفتنة الکبری علی وبنوه ص ۱۲۹.

[۳۰۶] المصدر نفسه ص ۱۸۳.

[۳۰۷] ابن ابی الحدید «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۱۱۹ و ۱۵۲.

[۳۰۸] العقاد: «عبقریة الإمام علی» ص ۱۳، وابن الأثیر: «الکامل فی التاریخ» ۳ / ۲۰۰.

[۳۰۹] عباس محمود العقاد «عبقریة الإمام علی» ص ۲۵.

[۳۱۰] الكامل فى التاريخ ۳ / ۲۰۰ ۲۰۲.

[۳۱۱] الكامل فى التاريخ ۲ / ۲۰۱ و ۲۰۲.

[۳۱۲] الدكتور طه حسين: «الفتنة الكبرى على وبنوه» ص ۱۵۹.

[۳۱۳] ابن أبى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۲ / ۵۷۳ ۵۸۳.

[۳۱۴] هذا القول وما بعده من الاقوال مأخذوة من «شرح نهج البلاغة» لابن ابى الحديد.

[۳۱۵] الكامل فى التاريخ ۳ / ۲۳۳ ۲۳۹.

[۳۱۶] تاريخ الامم والملوك ۶ / ۱۴۹ ۱۵۵.

[۳۱۷] تاريخ الامم والملوك ۶ / ۱۵۵.

[۳۱۸] الفتنة الكبرى. على وبنوه ص ۲۴۳.

[۳۱۹] مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲ / ۳۰۳.

[۳۲۰] المصدر نفسه ۲ / ۳۰۷.

[۳۲۱] مروج الذهب ومعادن الجوهر ۲ / ۳۱۰ ۳۱۲.

[۳۲۲] شرح نهج البلاغة ۴ / ۶۸ ۷۲.

[۳۲۳] ابن ابى الحديد «شرح نهج البلاغة» ۴ / ۶۸ ۷۰.

[۳۲۴] الدكتور طه حسين «الفتنة الكبرى، على وبنوه» ص ۲۴۸.

[۳۲۵] الكامل فى التاريخ ۳ / ۲۵۹ و ۲۶۰.

[۳۲۶] يذكر بعض الرواة ومنهم ابن الأثير نفسه أن عبدالرحمن بن ابى بكر كان قد مات قبل معاوية. وقيل: إن يزيد كان غائباً من مرض ابيه وموته، وإن معاوية احضر الضحاك بن قيس، ومسلم بن عقبة المرى فأمرهما أن يؤديا عنه رسالته التى ذكرناها فى المتن الى يزيد ابنه.

[۳۲۷] الكامل فى التاريخ ۳ / ۲۶۰. ومما يلفت النظر حقا أن يحتفظ معاوية بقلامة ظفر النبى ولا يحافظ على سنته!!.

[۳۲۸] الطبرى: «تاريخ الامم والملوك» ۶ / ۱۸۶. وفى رواية اخرى «اما انا فقد تضجعتها ظهراً لبطن وانقطعت إليها فانقطعت لى».

[۳۲۹] الطبرى، «تاريخ الامم والملوك» ۶ / ۱۸۷.

[۳۳۰] المصدر نفسه ۶ / ۱۸۷ و۱۸۸.

[۳۳۱] هذا الحديث مخالف لما عليه المؤرخون من قداسة عبدالله بن جعفر لما ذكروه من جلالة قدره وتوثيقه. راجع تاريخ الطبرى، والاستيعاب لابن عبدالبر واسد الغابة لابن الأثير وغيرها. «الناشر».

[۳۳۲] العقاد «معاوية بن ابى سفيان» ص ۷۴. ويقصد بذلك عمار بن ياسر والاشتر.

[۳۳۳] المصدر نفسه ص ۷۷.

[۳۳۴] المصدر نفسه ص ۸۲.

[۳۳۵] المصدر نفسه ص ۱۲۶.

[۳۳۶] المصدر نفسه ص ۱۳۲.

[۳۳۷] هذه الفترة وما يليها مقتطفات من كتاب العقاد «معاوية بن ابى سفيان فى الميزان» ص ۹ و ۱۱ و ۱۲ و ۱۴ و ۱۶ و ۱۷ و ۳۵ و ۳۸ و ۴۸ و ۴۹ و ۷۰ و ۷۱ و ۱۱۲ ۱۱۵ و ۱۸۱ و ۱۸۲ و ۱۸۵ ۱۹۱ و ۲۰۳ ۲۰۵.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آبادی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغَفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹